في الميزان

غوستاف لوبون

شوقي أبو خليل

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

بسم الله الرحمن الرحيم

في الميزان

غوستاف لوبون

الكتاب ٨٢٥
الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ = ١٩٩٠ م

سورية - **دمشق** - برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد - ص.ب (٩٦٢)
برقياً: فكر - س.ت ٢٧٥٤ هاتف ٢٣٩٧١٧ ، ٢١١١٦٦ - تلكس FKR 411745 Sy

الصف التصويري: دار الفكر بدمشق
الطباعة (أوفست): المطبعة العلمية بدمشق

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

مُقدِّمَة

☆ « لقد أثبتَ التَّاريخُ ما لِلْمُعْتَقِدِ القويِّ من القوَّة الَّتي لا تُقاوَم ، فخضعتْ دولةُ الرُّومانِ المنيعةِ لجيوشٍ من رعاةِ البدو ، الَّذين أضاءَ قلوبَهُم ما جاءَ به محمَّد ﷺ من الإيمان »(١) .

بسم الله القائل في محكم التَّنزيل : ﴿ فَأَوفُوا الكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مؤمِنِينَ ﴾ [الأعراف ٨٥/٧] ، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله ، محمَّد بن عبد الله ، القائل : « احذروا ذلّة العَالِم ، وانتظروا فَيْأَتَهُ »(٢) . ربَّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، لا عِلْم لنا إلاَّ ما علَّمتنا ، وبعْدُ ..

☆ تمهيد (بُوكَّاي واسْتيفِنْس) :

كنتُ في مؤتمر سنة ١٩٨٩ م ، وفي حفلة الافتتاح ، جلس إلى جانبي رجلٌ أُوربي الملامح ، مديد القامة فارعها ، ذو لحية خفيفة شقراء ، ولباس خاص ، أقرب ما يكون إلى الزِّي المغربي ، وفي المساء ، مرَّ هذا الرَّجل بنا ، يجرُّ عباءته السَّوداء الأَنيقة ، فقال بلسان عربيٍّ فصيح ، فيه لُكْنَة الأعاجم : السَّلام على مَنِ

---

(١) روح الثَّورات ، غوستاف لوبون ، ص ٢٠

(٢) الحلواني عن ابن عمر ، والبيهقي .

اتَّبع الهُدَى ، فأجبناه : وعلى من اتَّبع الهُدَى السَّلام ، فقال : أعجبني ردُّ سلامكم ، أتسمحون لي أن أجلس معكم ؟ فقلنا : بكلِّ طيب خاطر ، أهلاً وسهلاً ومرحباً ، وصادف جلوسه ، وللمرَّة الثَّانية ، إلى يميني مباشرة ، فقلت له : من سُنَّة رسولنا الكريم ﷺ التَّعارف ، أنا فلان ، وهذه بطاقتي ، فَمَنْ أنت ؟

وقبل أن يجيب عن سؤالي ، رحَّب بي كثيراً ، وقدَّم لي بطاقته ، ثمَّ قال : عرفتك منذ سنوات عن طريق كتبك ، أنا أبو فريد القبطاني ، مؤسِّس مجلَّة (صوت الإسلام) ومدير نَشْرِها ، أُصدرها في مدينة باريس مع عدد من المسلمين الدُّعاة .

قلت له : أمغربيُّ الأصل أنت ؟

قال مجيباً : لا ، أنا فرنسيّ أباً عن جَدٍّ ، كان للبروفيسور محمَّد حميد الله(٣) ، الأثر الأكبر في اعتناقي الإسلام .

قلت له : أتعرف الدُّكتور موريس بوكَّاي(٤) ؟

---

(٣) محمَّد حميد الله ، عمره قرابة تسعين عاماً ، باكستاني الأصل مقيم في باريس ، يتقن إحدى عشرة لغة ، ترجم القرآن الكريم إلى الفرنسيَّة ، فطبع أكثر من أربع عشرة مرَّة ، وفي كلِّ مرَّة كان حميد الله يعدِّل في ترجمة المعاني ليستقيم المعنى أكثر في أذهان القارئ الفرنسي ، يدرِّس في الأكاديميَّات ، ويكتب ويحاضر بالعربيَّة والفرنسيَّة والانكليزيَّة والتِّركيَّة والألمانيَّة والأُرديَّة ... يعيش في غرفة واحدة متواضعة مليئة بالكتب والأوراق ، ينفق ٩٠٪ من دخله لمصالح المسلمين في فرنسة ، أسلم على يديه المئات ، والمئات عن طريق كتبه وترجماته .

(٤) الدّكتور موريس بوكَّاي : طبيب فرنسي معاصر ، واحد ممّن عنوا بالدّراسات العلميَّة ، ومقابلتها بالكتب المقدَّسة ، ولكي يتسنَّى له الحصول على مزيد من التَّوضيحات ، تعلَّم الدكتور بوكَّاي اللُّغة العربيَّة ، ودرس القرآن الكريم فوجد فيه آيات مدهشة ، لا يمكن إدراك معناها إلاَّ في ضوء المعارف العلميَّة الحديثة والمعاصرة ، فهي إعجاز خالد يشهد بأنَّ القرآن الكريم من مصدر إلهي ، يثبت نبوَّة محمد ﷺ .

ابتسم أبو فريد ابتسامة عريضة ، وتنهَّد تنهُّداً عميقاً ، وبعد لحظات صمت ، قال : إنَّه صديقي المنافق .

قلت له : أَلَمْ تظلم الرَّجل بهذه الصِّفة ؟

قال : إنَّه صديقي ، وأعتزُّ جداً بصداقته ، وهو مسلم فذٌّ ، أسلم منذ أواخر السَّبعينات ، وهو يحاضر أُسبوعياً أمام أُلوف الفرنسيِّين عن الإعجاز العلميِّ في القرآن الكريم ، وقدَّم منذ سنتَيْنِ محاضرةً أبدع بها وأجاد ، وفي نهايتها سأل بوكَّاي الحضورَ ـ وكنت بينهم ـ : هل من سؤال ؟ فقلت له : لسان النَّاس يقول عنك إنَّك منافقٌ ، فقال : لِمَ هذا الْحُكْم ؟ قلت : منذ سنواتٍ وأنت تحاضرنا عن القرآن ، وإعجازه العلمي في ثنايا آياته الكريمة ، وتؤكِّد أنَّه هو الكتاب المقدَّس الوحيد الَّذي جاء العلم الحديث ـ بكلِّ مجالاته ـ مؤيِّداً لما فيه ، ولم يجد فيه ما يناقضه مطلقاً ، وقدَّمت كتابك : (دراسة الكتب المقدَّسة في ضوء المعارف الحديثة) ، الَّذي تُرْجِمَ إلى أكثر من عشر لغات ، فلماذا لا تعلن إسلامك ، مادامت هذه المحاضرات تمثِّل قناعاتك ؟ فأجابني الدكتور بوكَّاي ، وبكلِّ هدوء وثقة : أنتَ تعلم أنِّي مسلم منذ عشر سنوات ، ولا مانع أن أُجدِّد إسلامي الآن أمام الجميع ، قلت له : ولكنَّك (موريس) ، لماذا لم تغيِّر اسمك ؟ فأجاب : هذا أمر شكلي لا يمسّ الجوهر ، تأكَّد ياأخي ، أنَّني لوقدَّمت كتابي (دراسة الكتب المقدَّسة ..) باسم محمَّد بوكَّاي ، أو مصطفى بوكَّاي ، أو عبد الهادي بوكَّاي ... ماكان له ماكان من أثر ، ولما اهتمَّ به المسلمون والأُوربيُّون على حدٍّ سواء ، كما اهتموا به عندما قُدِّم باسم موريس بوكَّاي .

ثمَّ أَضاف أبو فريد القبطاني في جلستنا تلك : إن عشرة فرنسيين في كلِّ أُسبوع يعلنون إسلامهم في مسجد باريس وحده ، وكان ممَّن أسلم على سبيل المثال : (كليمون توريز) ، حفيد (موريس توريز) مؤسِّس الحزب الشُّيوعي

الفرنسي ، وأصبح اسمه رسمياً : (عبد الرَّحمن توريز) ، كما أسلمت أُختـه (كاترين) ، والَّتي أصبح اسمها (لطيفة) .

وقدَّم لي أبو فريد مجلَّة (صوت الإسلام) ، العدد التَّاسع لسنة ١٩٨٨ م ، لأقرأ فيها مقابلةً تحت عنوان : (استجواب عبد الرَّحمن توريز ، مع بيان) ، وممّا قاله عبد الرَّحمن توريز خلال المقابلة ، ردّاً على سؤالٍ نصُّه : « لماذا اعتناق الإسلام بالذَّات ؟ » ، قال : « ثلاث ميِّزات في الإسلام لم أجدها في غيره من الأديان ، ولا في النَّظريّات البشريَّة : البساطة ، والوضوح ، والتَّوافق مع طبيعة الإنسان »[٥] .

وعندما حدَّثني أبو فريد القبطاني[٦] عن الدُّكتور موريس بوكَّاي ، تذكَّرت فوراً البريطاني (كات استيڤنس) مطرب القارَّتَيْن ، الأُوربيَّة والأمريكيَّة ، الَّذي نال شهرة عالميَّة بالغة ، من خلال الغناء والموسيقى ، الَّتي فرَّغ لها كلَّ وقته وجهده ، وكسب بسببها أموالاً وثروة طائلة جدّاً ، ولكن لم تجلب له الملايين والشُّهرة العالميَّة الواسعة ، السَّعادة والسَّكينة والاستقرار ، كما قال ، فعاش ظروفاً تعيسة قاسية ، وصراعاً مؤلماً ، كدَّر صفو أيَّامه ، وصفاء لياليه ، وراح يتنقَّل من النَّصرانيَّة إلى البوذيَّة فالشُّيوعيَّة ، ثمَّ النَّصرانيَّة مرَّة أُخرى ، إلى أَن هداه الله تعالى إلى نور الإسلام ، فاعتنقه بعزيمة وإيمان كاملَيْن ، دون أن يكون لمسلم يدٌ في ذلك .

---

(٥) صوت الإسلام ، العدد ٩ ، تشرين الثَّاني (نوڤمبر) ص ٦٠

(٦) وصلتني منه برقيَّة بتاريخ ١٩٨٩/٤/٤ م ، والبرقيَّة أصلاً موجَّه إلى السَّيِّد رئيس الجمهوريَّة الفرنسيَّة (فرانسوا ميتران) يعلمه بها أنَّ جهات فرنسية وإسرائيليَّة تحضِّر لقتله ، لنشاطه المؤيِّد للقضايا العربيَّة والإسلاميَّة ، وأنَّ الخطَّة قد بدأ تنفيذها ، كما هو مُعَدٌّ لها ، « وقد أرسلت برقياتٍ مماثلةً لجهاتٍ عالميَّة » أدباءَ ومفكِّرين وكُتَّاب ، ليكونوا شهوداً إن مسَّته جهاتٌ معادية للعرب بسوء .

هجر كات استيڤنس دنيا الغناء والمعجبين والمعجبات ، واتَّجه إلى الإسلام بكلِّ حواسِّه وجوارحه ، لينهل من تعاليمه السَّمحة ، ويدعو غيره كذلك إليه ، بعد أن أطلق على نفسه اسماً جديداً هو : (يوسف إسلام) ، فهزَّ بإسلامه كلَّ الأوساط ، وأسلم بإسلامه وحماسه للإسلام كثير من معجبيه .

يقول يوسف إسلام اليوم ، كات استيڤنس الأمس : في عام ١٩٧٥ م ، حدثت المعجزة ، بعد أن قدَّم لي شقيقي الأكبر نسخة من ترجمة معاني القرآن لكريم ، لقد لاحظت في القرآن شيئاً غريباً ، فهو لا يشبه باقي الكتب ، لا يتكون من مقاطع وأوصاف تتوفَّر في الكتب الدِّينيَّة الَّتي قرأْتُها ، ولم يكن على غلاف القرآن الكريم اسم مؤلِّف ، ولهذا أيقنت مفهوم الوحي ، الَّذي أُوحى لى هذا النَّبيِّ الْمُرْسَل بهذا القرآن من الله تعالى .

ومن أوَّل وهلة شعرت أَنَّ القرآن يبدأ (باسم الله) ، وليس باسم غير الله ، عبارة ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، كانت مؤثِّرة في نفسي ، ثمَّ تستمر فاتحة كتاب ﴿ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ ، كلُّ الحمد لله خالق العالمين ، وربٌّ لمخلوقات ، فالقرآن هو الَّذي دعاني للإسلام ، فأَجبتُ دعوته .

وحاولت أن أبحث عن أخطاء في القرآن الكريم ، غير أنِّي لم أجد ، كان كلُّه نسجماً مع فكرة الوحدانيَّة الخالصة ، بدأت أُومن ماهو الإسلام ، كان الإسلام سالة من الله للبشر .

لقد أجابَ القرآنُ الكريم عن كلِّ تساؤلاتي ، وبذلك شعرت بالسَّعادة ، عادة العثور على الحقيقة ، ووجدت في القرآن كيف أنَّ هذه السَّعادة هي لخالدة .

وبعد أن درست القرآن الكريم ، نطقت بالشَّهادتَيْن ، فولدت من جديد ،

ورحت أدرس سيرة الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام ، وكيف أنَّه بسلوكه وسُنَّتـه علَّم المسلمين الإسلام ، فأدركت الثَّروة الهائلة في حياة الرَّسول ﷺ وسُنَّته(٧) .

☆ ☆ ☆

☆ كتاب (حضارة العرب) :

تذكَّرت ـ وأنا أُعد هذا الكتاب ـ الـدّكتور موريس بوكَّـاي ويوسف إسلام (كات استيڤنس) ، اللَّـذين أسلما ، لأنَّهما لم يجـدا في القرآن الكريم مـا ينـافي العقل ، أو ينقضـه العلم ، أو يرفضـه على ضوء المكتشفـات الحـديثـة : ﴿ ذٰلِكَ الكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ، فهو دين الفطرة في كلِّ شيء ، وليس في استطـاعـة أيِّ عقل بشري نزيه ، أن يرتاب فيه : ﴿ فِيهِ هُدَىً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ،لتطـابق أحكامـه وهديه ، مع مقتضيات الفطرة البشريَّة ، ولما كان غير العرب لا يتـذوَّقون بلاغتـه اللُّغويَّة ، في اللُّغة الَّتي أُنزل بها ، جاءت اللَّفتـات العلميَّـة القـاطعـة حجَّـة في كلِّ لغة : ﴿ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ .

تذكَّرتُ الاثنين ، بوكَّاي واستيڤنس ، واستغربت كيف خفي هذا الإعجـاز عن الدّكتور غوستاف لوبون ، الَّذي أَجاد في كتابه (حضـارة العرب) في وصف العمارة الإسلاميَّة « الَّتي لبست أطماراً بالية ، إلاَّ أنَّها أطمار شريفة » :

« ويتلألأ ذلك الميناءُ الجميل كالحجارة الكريمة حين تُلْقِي الشَّمس أشِعَّتها على جامع عمر ، فيكتسب خارجُ هذا الجامع منظراً سحريّـاً خيـاليّـاً لاعهـد لجوانب المبـاني الأُوربيَّـة الـدُّكْن بمثلـه ، والمرءُ قـد يُفكِّر في تلـك القصـور السِّحريَّـة الَّتي يبصرها بخياله أحياناً ، ولكن الخيالَ دون الحقيقة في أمر جامع عمر »(٨) .

---

(٧) الرَّابطـة ، العـدد ٢٥١ ، السَّنــة ٢٤ ، جمـادى الآخرة ١٤٠٦ هـ ، شبـاط (فبراير) ١٩٨٦ م ، ص ٥٢ و ٥٣

(٨) حضارة العرب ، ص ١٩٧

« وجامع قرطبة أُقيم أيّام كان الفنُّ العربيُّ في فجره ، ثمَّ تدرَّج الفنُّ العربيُّ إلى الكمال ، فأُقيمت على الطِّراز العربيِّ الكامل مبانٍ عجيبةٌ كالحمراء تُخْبِرُ ، بما لها من الرَّوْعَة والجلال ، الأجيالَ القادمة بما كان للقوم الَّذين شاهدوها من الذَّوق الفنِّي وحبٍّ ماهو ساطع بديع عجيب »[٩] .

(حضارة العرب) ، كتاب لاشكّ فريد في نوعه ، وكاتبه مُحِبٌّ للعرب وحضارتهم ، إلاَّ أنَّ الأخطاء والهفوات والمطاعن فيه كثيرة ، فمع حُسْنِ نِيَّةِ (لوبون) ، نلمس أنَّه لم يرهق نفسه ليحيط بدقائق العقيدة الإسلاميَّة ، فجاءت معظم هفواته وأخطائه في هذا المجال ، فهو لم يتصوَّر أو يدرك ظاهرة الوحي ، أو أدركها ، لكنه لم يقرّ بها لمحمّد بن عبد الله ، ولم يستوعب بعض الأُمور المتعلِّقة بالنُّبوَّةِ والقرآن والشَّريعة .

لقد وصف (لوبون) آثارَ حضارتنا فأجاد ، ودافع عن فتوحاتنا فأنصف ، كلُّ ذلك بروحٍ علميَّة عالية المستوى قويَّة الحجَّة ، ولكن يصدم الدَّارس (لحضارة العرب) بعد هذا الإنصاف بأقواله في القرآن ، وفي الرَّسول الكريم ﷺ ، وفي الإسلام عقيدة .

أليس من الظُّلم والجور القول : إنَّ محمَّداً ﷺ كان من (المتهوّسين)[١٠] ؟

أليس من التَّحامل القول : إنَّ القرآن من تأليف محمَّد ، وشاهد من شواهد عبقريَّته[١١] ؟

أليس من الافتراء القول : إنَّ الإسلام مقتبسٌ من عناصر يهوديَّة ونصرانيَّة[١٢] ؟

---

(٩) المرجع السَّابق ، ص ٣٥٤

(١٠) المرجع السَّابق ، ص : ٣٩ و ٤٠ و ١٤٥ و ١٧٣

(١١) المرجع السَّابق ، ص : ١٤٨ و ١٥١ و ١٥٣ و ١٥٤ و ١٥٥

(١٢) المرجع السَّابق ، ص : ١٣٦ ، و ١٣٧

ومن حقِّ (لوبون) والاستشراق أن يقول ، وأن يتناول بالتَّحليل والنَّقد والدِّراسة والتَّعليق ، ومن حقِّنا الرَّدُّ والتَّصويت وتفنيد الخطأ ، لأنّ السُّكوت عمَّا يُقال ، أو يقدَّم ، يعني تسليماً ضمنيّاً بآراء الاستشراق وطروحاته ، وإلا فأين النَّقد والرَّدُّ ، مادام الرَّأي فاسداً ظالماً ؟!

والغريب العجيب ، أنَّ الأُستاذ المترجِم ، وهو عربيّ مسلم ، لم يعلِّق على هفوات (لوبون) ، ولا على أخطائه وافتراءاته ، سواء أجاءت عن حُسْنِ نيَّة ، أمْ جاءت عن سوء فهم ، واكتفى الأُستاذ المترجم ، وهو رجل فاضل لا شكّ ، بتصويب خطأَيْن اثنين فقط ، في مقدِّمة الطَّبعة الأُولى ، كما سنبيِّن في فصل : كتاب حضارة العرب ، وصفٌ وعَرْض .

والصُّعوبة الكبرى ، الَّتي واجهتنا في دراسة هذا الكتاب ، كانت عدم توثيق (لوبون) لما كتب ، وعدم عَزْوِهِ مااقتبس إلى مصادره ، كما أنَّه لم يُقَدِّم الأمثلة على رأيه المطروح ، وعندما نقل بعض الآراء من مصادرنا ، لم يذكر اسم المصادر الَّتي اعتمدها ، أو اقتبس منها ، بل قال في أكثر من موضع بصيغة التَّمريض والارتياب : ويروي مؤرِّخو العرب ، على زعم كتب السِّيرة ... دون أن يذكر مَنْ هم هؤلاء المؤرِّخون ، أو يحدِّد أي كتب السِّيرة الَّتي تزعم ، واكتفى بسرد أسماء عشرات الكتب في نهاية الكتاب ، على أنها كانت مصادره .

☆ مؤلِّف (حضارة العرب) :

مَنْ مِنَّا لم يحفظ ، أو يسمع على الأقَل ، منذ طفولته بقول العلاَّمة الفرنسي الشَّهير غوستاف لوبون :

« ماعرف التَّاريخ فاتحاً أرحم من العرب »[١٣] ، لقد حفظنا عبارته الرَّائعة

(١٣) يقول روبرتسون : « إنّ أتباع محمَّد ـ ﷺ ـ هم الأمَّة الوحيدة الَّتي جمعت بين التَّحمُّس في الدِّين والتَّسامح فيه ، أي أنَّها مع تمسُّكها بدينها لم تعرف إكراه غيرها على قبوله » ، [حاضر العالم الإسلامي ١٠٤/١] .

الْمُنْصِفَة ، إمَّا بعد سماعها من معلِّمينا ، معلِّمي التَّاريخ خصوصاً ، وإمَّا من صفحات كتبٍ اقتبست هذه العبارة من كتاب « حضارة العرب » .

وضع العلاَّمة لوبون أثناء سياحاته الكثيرة في أقطار الأرض كُتُباً قيِّمة في مدنيَّات بعض الأُمم ، ثم استخرج منها العِبَر ، فوضع ثلاثة كتب ، شرح فيها ما ظهر له من سنن الاجتماع ، وهي : (سِرُّ تطوُّر الأُمم) ، و (روح الجماعات)[١٤] ، و (الآراء والمعتقدات) ، ثمَّ طبَّق ما جاء في هذه الكتب من الآراء في مؤلَّفاتٍ أُخرى ، أهمها : (روح الثَّورات والثَّورة الفرنسيَّة)[١٥] ، و (روح الاشتراكيَّة) ، و (حضارة العرب)[١٦] ، و (حضارات الهند) ، و (الحضارة المصريَّة)[١٧] ، و (حضارة العرب في الأندلس)[١٨] ..

إذن ، فالمؤلِّف هو العلاَّمة الدّكتور غوستاف لوبون : [١٨٤١ ـ ١٩٣١ م] ، من فلاسفة علم الاجتماع الفرنسيين ، ومن المستشرقين الْمُنْصِفينَ إلى حدٍّ بعيد ، لم يدافع عن حضارتنا العربيَّة فحسب ، بل دافع عن حقوق المسلمين ، وانتقد سياسة القهر والهضم الَّتي عسفتهم بها الدُّول الأُوربيَّة المستَعْمِرة ، وقد كتب كتابات شافية في انتقاد قومه الفرنسيين بما يعاملون به مسلمي الجزائر من الظُّلم ، والإرهاق ، ونزع الأراضي ، والتَّشريد في الصَّحراء ، وغير ذلك[١٩] .

---

(١٤) ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا ، تحت عنوان : (روح الاجتماع) مطبعة الشَّعب ، سنة ١٩٠٩ م .

(١٥) (روح الثَّورات والثَّورة الفرنسيَّة) ، ترجمة الأُستاذ عادل زعيتر ، نشر مكتبة عبيد بدمشق ، سنة ١٩٢٤ م .

(١٦) (حضارة العرب) موضوع دراستنا في هذا الكتاب ، طبعة : دار إحياء التُّراث العربي ، بيروت ، الطَّبعة الثَّالثة : ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩ م ، علماً أنَّ طبعته الأُولى كانت سنة ١٩٤٥ م ، وطبعته الثَّانية ١٩٤٨ م .

(١٧) الحضارة المصريَّة ، عرَّبه الأُستاذ صادق رستم .

(١٨) حضارة العرب في الأندلس ، عرَّبه عبد الرَّحمن البرقوقي .

(١٩) حاضر العالم الإسلامي ١٥٥/١

وهو لم يذكر العرب بخير في كتابه (حضارة العرب) فقط ، لقد ذكرهم أيضاً في كتابه : (روح الثَّورات والثَّورة الفرنسيَّة) ، قال لوبون بعد ذكر انتصار جيوش الثَّورة الفرنسيَّة : « ويذكِّرنا تاريخهم بتاريخ قبائل جزيرة العرب ، الَّتي استولى عليها المثل الأعلى الَّذي جاء به محمَّد ﷺ ، فتحوَّلت إلى جيوش مخيفة فتحت جزءاً من العالم الرُّوماني القديم بأسرع ما يمكن »[٢٠] .

وقال في كتابه : (روح الاجتماع) : « لقد أثبت التَّاريخ ما للمعتقد القويِّ من القوَّة الَّتي لا تقاوم ، فخضعت دولة الرُّومان المنيعة لجيوشٍ من رعاة البدو ، الَّذين أضاءَ قلوبَهم ما جاء به محمد ﷺ من الإيمان »[٢١] .

☆ مُتَرْجِمُ (حضارة العرب) :

عادل بن عمر بن حسن زعيتر : [١٣١٢ ١٣٧٧ هـ = ١٨٩٥ ـ ١٩٥٧ م] ، حقوقي ، من أكابر المترجمين عن الفرنسيَّة ، من أعضاء المجمَعَيْن العلميَّيْن بدمشق وببغداد ، مولده ووفاته في مدينة نابلس (فلسطين) ، تعلَّم بها وببيروت وبالأستانة ، وكان من ضبَّاط الاحتياط بالجيش العثماني في الحرب العالميَّة الأُولى ، ولحق بجيش الثَّورة العربيَّة الكبرى ، فحكم عليه الأتراك العثمانيُّون بالإعدام غيابيّاً سنة ١٩١٧ م ، وقصد باريس بعد الحرب ، فتلقَّى فيها الحقوق ما بين سنتي ١٩٢١ ـ ١٩٢٧ م ، وعاد إلى فلسطين محامياً ومدرِّساً في معهد الحقوق بالقدس ، ثمَّ انقطع إلى التَّرجمة ، فنقل عن الفرنسيَّة سبعة وثلاثين كتاباً في التَّشريح والتَّاريخ والاجتماع ، منها :

ابن الإنسان ، والبحر المتوسِّط ، ونابليون ، وكلُّها لأَميل لودفيغ ، ابن خلدون ، لبوتول ، ابن رشد والرُّشديَّة ، لرينان ، روح الشَّرائع لمونتسكيو ،

---

(٢٠) روح الثَّورات والثَّورة الفرنسيَّة ، ص ٢٢٩

(٢١) روح الثَّورات والثَّورة الفرنسيَّة ، ص ٢٠

العقد الاجتماعي ، لجان جاك روسُّو ، تاريخ العرب العام ، لسيديو ، حياة محمَّد ، لأميل درمنجهام ، الرَّسائل الفلسفيَّة ، لڤولتير ، مفكرو الإسلام ، لكرادوڤو .

وحضارة العرب ، وحضارات الهند ، وروح الاشتراكيَّة ، وروح الثَّورات والثَّورة الفرنسيَّة ، وفلسفة التَّاريخ ، وروح السِّياسة ، والآراء والمعتقدات ، وكلُّها للدكتور غوستاف لوبون .

وللأُستاذ عادل زعيتر مؤلَّفات حقوقيَّة لم تُنْشَر ، وكان ـ تغمَّده الله تعالى برحمته ورضوانه ـ مع إجادته الفرنسيَّة ، يجيد التُّركيَّة ، وله إلمام بالانكليزيَّة جُمِعَ أكثر ما كُتِبَ عنه ، بعد وفاته ، في : (ذكرى عادل زعيتر)[٢٢] .

☆ خطَّة هذه الدِّراسة :

في هذا الكتاب ، الرَّابع في سلسلة (في الميزان) ، سنعرض كتاب (حضارة العرب) في مجمل أبوابه وفصوله ، ثمَّ ماقدَّمه (لوبون) من روائع تحسب له على صفحات (حضارة العرب) ، وبعد ذلك ، الفصل الأهم : الأخطاء والهفوات ، ونختم بفكرتَيْن :

الأُولى : مفتاح شخصيَّة الرَّجل من خلال كتابه (حضارة العرب) .

والثَّانية : أهمُّ الأخطاء والهفوات والافتراءات المشتركة بين جرجي زيدان ، وفيليب حِتِّي ، وكارل بروكلمان ، وغوستاف لوبون .

وسيلمس القارئ من خلال صفحات كتابنا هذا ، أن لوبون انتقل من أقصى المديح لحضارتنا ، إلى أقصى القدح لعقيدتنا ، ومن قمَّة الإيجابيات ، إلى حضيض السَّلبيَّات ، ومن ذروة التَّقدير والإعجاب والثَّناء ، إلى أدنى الخطأ والطَّعن

---

(٢٢) الأعلام ٢٤٤/٣

والافتراء ، ومع ذلك ، لن نقول كما قال نجيب عقيقي في كتابه (المستشرقون ٢٢٦/١) : « حضارة العرب صدر في باريس سنة ١٨٨٤ م ، **ولا قيمة علميَّة له** » ، فقد يكون في ذلك ظلم كبير ، وخطأ فادح ، لن نقول إلا ما للرَّجل ، ولن نذكر إلاَّ ما عليه بالدَّليل والبرهان الموثَّق .

وقبل أن نبدأ مع صفحات الفصل الأوَّل من هذا الكتاب ، أُسجِّل شكري وامتناني إلى الأخ الزَّميل ، الأُستاذ هاني المبارك ، الَّذي قدَّم آراءه القيِّمة في فصل : (الأخطاء والهفوات) ، وإلى أُسرة دار الفكر ، الَّتي ألمس عنايتها بما نكتب ونقدِّم ، وأنا إذ أُسجِّل شكري وامتناني ، أنطلق مِنْ (مَنْ لَمْ يشكُرِ النَّاسَ لم يشكُرِ الله) ، فشكراً لكلِّ مَنْ قدَّم ملاحظاته ، أو قدَّم إمكاناته :

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأحقاف ١٥/٤٦] .

والحمد لله ربِّ العالمين أوَّلاً وآخراً

دمشق في : **٢ المحرَّم الحرام ١٤١٠ هـ**
٤ آب (أغسطس) ١٩٨٩ م

شوقي أبو خليل

مِنْ رَوَائِع لُوبُون

☆ « وَإذا مـاقيسَتْ قيمـةُ الرِّجـال بجليـل أعمـالهم ، كان محمَّـد من أعظم مَنْ عَرَفهم التَّاريخ » .

[غوستاف لوبون]

إنَّ نظرة مدقِّقة متفحِّصة لكتاب (حضارة العرب) ، تؤكِّد أنَّه كتاب أنصف فيه مؤلِّفه الدّكتور غوستاف لوبون ، حضارتنا العربيَّة الإسلاميَّة إلى حدٍّ بعيد ، ونتيجة طبيعيَّة لهذه النَّظرة الشَّاملة ، يقرِّر الدَّارس أنَّ إنصاف المؤلِّف واضح ملموس ، وحُسْنَ النِّيَّة متوفِّر لا ريب فيه ، وأنَّ الهفوات الَّتي وقع فيها تؤخذ على محمل حسن ، بعيد ـ كلّ البعد ـ عن الحقد والدَّس والافتراء ، لانطلاق (لوبون) من أرضيّة الإعجاب بحضارة غير منتمٍ إليها ، لها دورها الكبير في النهضة المعاصرة ، والتَّقدُّم الحضاري العلمي الحالي ، فأراد إنصافها ، وتقديم روائعها لبني قومه ، ليبدِّد أوهامهم الموروثة حولها .

ونحن إذ ننتقي ـ فيما يلي ـ أهمَّ ماأورده (لوبون) في كتابه : (حضارة العرب)[1] ، فلا يعني ذلك أنَّه لم يورد غيرها ، إنَّنا نورد أبرزَ ماقاله ، وذلك قبل أن نصوِّب بعض ماأخطأ به ، أو نوضِّح نقاطاً خفيت عليه ، أو نجلي أشياء غابت عنه ، أو نفنِّد أُموراً لم يدرك (لوبون) كنهها ، فعثر عندما عالجها ، وجانب الحقيقة عندما أوردها ، من خلال ما وصل إليه علمه .

---

(١) حسب تسلسل ورودها في الكتاب ، وهذا لا يعني أنَّنا لا نجد خلالها بعض العبارات أو الكلمات الَّتي لا نوافقه عليها ، وسنشير إلى ذلك في حينه ، إن لم نتجاوز العبارة .

- ١ -

في نهاية البـاب الأوّل : (مصـادر قوة العرب) ، يتحـدّث (لوبون) عن : (حياة محمّـد ﷺ وأخلاقـه) ، وبعـد عرض جوانب من سيرتـه ﷺ ، يقرِّر أنّـه ممـا لا ريب فيـه أنّ محمّداً ﷺ أصـاب في بلاد العرب مـا لم تُصِب مثلهـا جميـع الـدِّيـانـات الّتي ظهرت قبل الإسلام ، ولـذلـك كان فضـل محمّـد ﷺ على العرب عظيماً ، ثم يقول :

« وإذا ماقِيسَت قيمة الرِّجـال بجليل أعمـالهم ، كان محمّـدٌ من أعظم من عَرَفهم التّاريخ ، وأخذ بعض علماء الغرب يُنْصِفون محمّداً ، مع أنّ التّعصُّب الـدِّينيَّ أعمى بصـائر مؤرِّخيهم عن الاعتراف بفضلـه ، قـال العلاّمـة بـارتلمي سنت هيلر : كان محمّد أكثر عرب زمانه ذكاءً ، وأشدّهم تديُّناً ، وأعظمهم رأفةً ، ونـالَ محمّـد سلطـانـه الكبير بفضل تَفَوُّقه عليهم ، ونَعُدُّ دينه الّذي دعا النّاسَ إلى اعتقـاده جزيلَ النِّعَم على جميع الشُّعوب الّتي اعتنقته » ، [صفحة ١٤٦] .

- ٢ -

وقبل إيراد الآيات الكريمة ، الّتي تقرِّر أن لا إكراه في الدِّين(٢) ، والحوار مع أهل الكتاب بالّتي هي أحسن(٣) ، يقول (لوبون) :

« وكان محمّد كثير المسامحـة لليهود والنّصـارى ، خلافـاً لمـا يُظَن » ، [صفحـة ١٥٥] .

---

(٢) ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ ﴾ ، [البقرة ٢/٢٥٦] .

(٣) ﴿ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت ٢٩/٤٦] .

- ٣ -

وفي الفصل الثَّاني : (القرآن) ، وتحت عنوان : (فلسفة القرآن ـ انتشاره في العالم) ، يذكر أن التَّوحيد المطلق هو أصل أساسي ، فالإله الواحد الَّذي دعا إليه الإسلام مهيمن على كلِّ شيء ، ولا تَحُفُّ به الملائكة والقدِّيسون وغيرهم ممن يُفْرَض تقديسهم ، ويتابع (لوبون) :

« وللإسلام وحده كلُّ الفَخار بأنَّه أوَّلُ دين أدخل إلى العالم التَّوحيد المحض ... وتشتقُّ سهولة الإسلام العظيمة من التَّوحيد المحض ، وفي هذه السُّهولة سِرُّ قوة الإسلام ، والإسلام ، وإدراكه سَهْلٌ ، خالٍ مما نراه في الأديان الأُخرى ويَأْباه الذَّوق السَّليم من المتناقضات والغوامض ، ولا شيء أكثر وضوحاً ، وأقلّ غموضاً من أُصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد ، وبمساواة جميع النَّاس أمام الله ، وببضعة فروض يدخل الجنَّة مَنْ يقوم بها ، ويدخل النَّار من يُعْرِض عنها ، وإنَّك إذا ما اجتمعت بأيِّ مسلم من أيَّة طبقة ، رأيته يَعْرِف ماذا يجب عليه أن يعتقده ، ويَسْرُد لك أُصول الإسلام في بضع كلمات بسهولة ، وهو بذلك على عكس النَّصراني الَّذي لا يستطيع حديثاً عن التثليث والاستحالة وما ماثلها من الغوامض ، من غير أن يكون من علماء اللاَّهوت الواقفين على دقائق الْجَدَل » ، [صفحة ١٥٨] .

« وساعد وضوح الإسلام ، وما أمر به من العدل والإحسان على انتشاره في العالم ، وبتلك المزايا نُفَسِّر سببَ اعتناق كثير من الشُّعوب النصرانيَّة للإسلام ، كالمصريين الَّذين كانوا نصارى أيَّام حكم قياصرة القسطنطينيَّة فأصبحوا مسلمين حين عَرَفوا أُصول الإسلام ، كما نُفَسِّر به السَّبب في عدم تَنَصُّر أيَّة أُمَّة بعد أن رَضِيَت بالإسلام ديناً ، سواء أكانت هذه الأُمَّة غالبة أم مغلوبة » ، [صفحة ١٥٩] .

- ٤ -

وفي معرض حديث (لوبون) عن مدى تأثير القرآن الكريم والإسلام في النّاس ، وما يَصُبُّه في النُّفوس إيماناً ثابتاً لاتزعزعه الشُّبهات ، يتابع قائلاً :

« ولا ريب في أنَّ نفوذ الإسلام السِّياسي والمدني كان عظيماً إلى الغاية ، فقد كانت بلاد العرب قبل محمَّد مؤلَّفة من إمارات مستقلة ، وقبائل متقاتلةٍ على الدَّوام ، فلما ظهر محمَّد ومضى على ظهوره قرنٌ واحد كانت دولة العرب ممتدة من الهند إلى إسبانية ، وكانت الحضارة تسطع بنورها الوَهَّاج في جميع البلدان الَّتي خفقت راية النَّبي فوقها .

والإسلام من أكثر(٤) الديانات ملاءمةً لاكتشافات العلم ، ومن أعظمها تهذيباً للنُّفوس ، وحملاً على العدل والإحسان والتَّسامح ، والبُدَّهِيَّة(٥) ، وإن فاقت جميع الأديان السَّاميَّة فلسفة ، تراها مُضطرَّةً إلى التَّحول لتستمرئها الجموع ، وهي ، لاشكَّ ، دون الإسلام في شكلها الْمُعَدَّل هذا » ، [صفحة ١٥٩] .

---

(٤) بل هو الدِّين الوحيد الملائم لاكتشافات العلم ، قديماً وحديثاً ومستقبلاً : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فُصِّلت ٥٣/٤١] ، والقرآن الكريم ، هو الكتاب المقدَّس الوحيد ، إن لم نجد فيه ما يؤيِّد الاكتشافات العلميَّة ويثبِّتها ، لن نجد فيه ما يعارضها حتماً ، لذلك قال الدكتور أرنست بانيرث (المستشرق النّمساوي المختص بالدِّراسات الإسلاميَّة) : « التَّأثير الدِّيني في الغرب يتعرَّض لهزَّات عنيفة ، كلَّما حقَّق العلم انتصاراته ، أمَّا الإنسان المسلم فإنَّه يظل على إيمانه المؤكَّد برغم اطِّلاعه الدَّائب والمثابر على العلوم الحديثة » ، [مجلة (الفكر المعاصر) ، العدد ٦٨ ، أكتوبر (تشرين الأوَّل) ١٩٧٠ م ، صفحة ١٠٦] .

(٥) البُدَّهِيَّة : ديانة في الهند ، تدعو النَّاس إلى التَّحلِّي بأطيب الأخلاق ، وتقول بتعدُّد الآلهة ، (انظر هامش صفحة ١٥٩ ، حضارة العرب) .

وبعد أن يـذكر (لوبون) قول الفيلسوف (بَـايْل) : « إنَّ من الضَّلال أن يُعْزَى انتشـار الإسلام السَّريع في أنحاء الـدُّنيـا إلى أنَّه يُلْقي عن كاهـل الإنسـان ما شَقَّ من التَّكاليف والأعمال الصَّالحة ، وأنَّه يُبيح لـه البقـاء على سيء الأخلاق ، فقـد دَوَّن (هوتنجر) قـائمـة طويلـة بـالأخلاق الكريمـة ، والآداب الحميـدة عنـد المسلمين ، فأرى ، مع القصد في مدح الإسلام ، أن تلـك القـائمـة تحتوي على أقصى مـا يمكن أن يـؤمَرَ بـه إنسـانٌ من التَّحلي بمكارم الأخـلاق والابتعـاد عن العيـوب والآثام » ، يقول :

« وسيرى القارئ حين نبحث في فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم ، أنَّ القوَّة لم تكن عـاملاً في انتشـار القرآن ، فقـد ترك العرب المغلوبين أحراراً في أديـانهم ، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النَّصرانيَّة الإسلام واتَّخـذوا العربيَّـةَ لغةً لهم ، فذلك لما رَأَوْه من عَدْل العرب الغَالِبين ، مما لم يَرَوْا مثله من سادتهم السَّابقين ، ولما كان عليه الإسلام من السُّهولة الَّتي لم يعرفوها من قبل .

والتَّـاريـخ أثبت أنَّ الأديـان لا تُفْرَض بـالقـوَّة ، فلمـا قهر النَّصـارى عربَ الأندلس ، فَضَّل هؤلاء القتلَ والطَّردَ عن آخرهم على ترك الإسلام .

ولم ينتشر الإسلامُ بالسَّيف ، بل انتشر بالدَّعوة وحدَها ، وبالدَّعوة وحـدهـا اعتنقت الإسـلامَ الشُّعوبُ الَّتي قهرت العرب مـؤخَّراً كالتُّرك والمغـول ، وبلـغ من انتشار الإسلام في الهند الَّتي لم يكن العرب فيهـا غيرَ عـابري سبيل ، أن زاد عـدد المسلمين فيها على خمسين مليون نفس[٦] ، ويزيد عدد مسلمي الهند يومـاً فيومـاً ،

---

(٦) الهند آنذاك تضم الباكستـان وبنغلادش أيضـاً ، وفي الهنـد وحـدهـا اليوم أكثر من مئة وخمسين مليون مسلم ، ناهيك عن أكثر من ٢٥٠ مليون مسلم في باكستان وبنغلادش .

مع أن الانكليز ، الَّذين هم سادة الهند في الوقت الحاضر ، يُجَهِّزون البعثات التَّبشيريَّة ، ويرسلونها تباعاً إلى الهند لتنصير مسلميها على غير جَدْوَى » ، [صفحة ١٦٢] .

- ٦ -

وتعقيباً وشرحاً لنصٍّ تجلَّت فيه سماحةُ الإسلام تجاه الأديان الأُخرى ، وعدلُ المسلمين الغالِبين ، مما لم يُرَ شبيهاً له من قبل ، يقرِّر (لوبون) في حاشية طويلة التَّالي :

« ذكرنا آنفاً أن مسامحة محمَّد لليهود والنَّصارى ، كانت عظيمة إلى الغاية ، مما لم يقل بمثله مؤسِّسو الأديان الَّتي ظهرت قبله كاليهوديَّة والنَّصرانيَّة على الخصوص ، وسنرى كيف سار خلفاؤه على سُنَّته ، وقد اعترف بذلك التَّسامح بعض علماء أُوربة المنصفون القليلون ، الَّذين أنعموا النَّظر في تاريخ العرب ، والعبارات الآتية الَّتي اقتطفها من كتب الكثيرين منهم ، تثبت أن رأينا في هذه المسألة ليس خاصّاً بنا ، قال (روبرتسون) في كتابه : (تاريخ شارلكن)[(٧)] : إن المسلمين وحدهم هم الَّذين جمعوا بين الغيرة لدينهم ، وروح التَّسامح نحو أتباع الأديان الأُخرى ، فهم مع امتشاقهم الحسام نشراً لدينهم ، تركوا مَنْ لم يرغبوا فيه أحراراً في التَّمسُّك بتعاليمهم الدِّينيَّة .

وقال (ميشود) في كتابه (تاريخ الحروب الصَّليبيَّة) : إنَّ الإسلام الَّذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأُخرى ، فقد أعفى البطاركة والرُّهبان ، وخدمهم من الضَّرائب ، وحرَّم محمَّد قتل الرُّهبان على الخصوص ، لعكوفهم على العبادات ، ولم يمسّ عمر بن الخطَّاب النَّصارى بسوء حين فتح القدس ، فذبح الصَّليبيون المسلمين .. بلا رحمة وقتما دخلوها .

(٧) شارلكن (كارل) Charles Quint ، ولد سنة ١٥٠٠ م ، وملك إسبانية : [١٥١٦ - ١٥٥٦ م] ، انزوى في دير يوست ، وتوفي فيه .

وقال الرَّاهب (ميشو) في كتابه : (رحلة دينيَّة في الشَّرق) : ومن المؤسف ألاَّ[8] تقتبس الشُّعوب النَّصرانيَّة من المسلمين التَّسامح الذي هو آية الإحسان بين الأُمم واحترام عقائد الآخرين ، وعدم فرض أي معتقد عليهم بالقوَّة » ، [صفحة ١٦٢] .

- ٧ -

وبعد عرض رفق الفاتحين بالشُّعوب ، وإعطائهم الحريَّة الدِّينيَّة التَّامَّة ، وعدلاً مطلقاً ، واحتراماً للأموال ، وجزية سنويَّة ثابتة بسيطة جدّاً بدلاً من ضرائب الرُّوم الباهظة ، أورد (لوبون) مبالغة العرب في الوقوف عند حدِّ تلك الشُّروط والتَّقيُّد بها ، بعد أن ذاقت الشُّعوب الأمَرَّين من ظلم عمَّال قياصرة القسطنطينيَّة ، فأقبلوا على اعتناق دين المسلمين ولغتهم أيَّما إقبال ، ونتائج مثل تلك ، لاتُنال بالقوَّة ، فلم يظفر بمثلها مَنْ مَلَكَ مصر من الفاتحين قبل العرب ، ثمَّ يقول :

« وللفتوح العربيّة طابع خاصٌّ لاتَجِد مثله لدى الفاتحين الَّذين جاؤوا بعد العرب ، فالبرابرة الَّذين استولَوْا على العالم الرُّوماني والتُّركُ وغيرهم ، وإن استطاعوا أن يقيموا دولاً عظيمة ، لم يؤسِّسوا حضارة ، وكانت غاية جهودهم أن يستفيدوا بمشقَّة من حضارة الأُمم الَّتي قهروها ، وعكسُ ذلك أمر العرب الَّذين أنشؤوا بسرعةٍ حضارةً جديدة كثيرة الاختلاف عن الحضارات الَّتي ظهرت قبلها ، وتمكَّنوا من حمل أُمم كثيرة على انتحال دينهم ولغتهم ، فضلاً عن حضارتهم الجديدة .. » ، [صفحة ١٧١] .

---

(٨) في أصل النَّص : (أن تقتبس) ، وأثبتناها : (ألاَّ تقتبس) ، وإن صحَّ الأصل ، فهو يعني : أن التَّسامح لم ينبع من ذاتها وأهلها ، إنَّه اقتباس ، ويبقى الفضل للمسلمين في ذلك ، على كلا الحالين .

- ٨ -

وفي الباب الثَّالث : (دولة العرب) ، وبعد إيراد رسالة الرَّشيد إلى نقفور : « بسم الله الرَّحمن الرَّحيم . من هارون الرَّشيد أمير المؤمنين إلى نيقفور كلب الرُّوم ، قد قرأتُ كتابكَ يابن الكافرة ، والجوابُ ماتراه لا ماتسمعه » ، يقول (لوبون) : رأى (كلبُ الرُّوم) الجوابَ ، فقد أرغمه الرَّشيد على دفع جزية سنويَّة ، وبقي سلطانه يمثِّل أقصى ماانتهى إليه سلطان العرب ، ثمَّ يقول :

« فالحقُّ أنَّ العرب الشُّجعان الَّذين لَبَّوْا دعوة محمَّد فغدوا أُمَّةً واحدة ، أقاموا في أقلّ من قرنين دولةً بلغت مابلغته دولة الرُّومان من الاتِّساع ، فبدت هذه الدَّولة أكثر دول الأرض هيبة وتمدُّناً » ، [صفحة ٢٢٠] .

- ٩ -

لقد استولى المغول على بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) فخرَّبوها ، وخنقوا الخليفة العبَّاسي الأخير المستعصم بالله بأمر رئيس الغالبين هولاكو ، ونهبوا بغداد ، وأحرقوا كتبها الَّتي جمعها محبُّو العلم ، وألقوها إلى نهر دِجْلَة ، فتألَّف منها جسر كان يمكِّن النَّاس أن يَمُرُّوا عليه ، رجالاً وركباناً ، وأصبح ماؤه أسود من مدادها ، كما روى قطب الدِّين الحنفي[٩] ، أُولئك الوحوش الضَّارية صهرتهم حضارة العرب في نهاية الأمر :

« في المدرسة العربيَّة تمدَّن المغول ، فاعتنقوا دين العرب وحضارتهم ، وشملوا متفنِّني العرب وعلماؤهم برعايتهم ، وأقاموا في بلاد الهند دولة قويَّة عربيَّة

(٩) قطب الدِّين الحنفي : محمَّد بن أحمد بن محمَّد بن قاضي خان محمود النَّهْرَوالي : [ت ٩٨٨ هـ = ١٥٨٠ م] ، مؤرِّخ من أهل مكَّة ، تعلَّم بمصر ، ونُصِّب مفتياً بمكَّة ، من كتبه : الإعلام بأعلام بلد الله الحرام ، و : البرق اليماني في الفتح العثماني ، ومنتخب التَّاريخ ... [الأعلام ٧/٦] .

المناحي ، فأحلُّوا بذلك حضارة العرب محلَّ حضارة الهند القديمة ، فترى سلطان حضارة العرب بادياً في الهند حتَّى اليوم » ، [صفحة ٢٢٣] .

ـ ١٠ ـ

وبعد فتح مصر تجلَّت سماحة الفاتحين ورحمتهم ، وقام عمرو بن العاص بما يكسب به قلوبهم ، فأجابهم إلى مطالبهم ، فأصلح أسدادهم وتُرَعَهم ، وأنفق الأموال الطَّائلة على شؤونهم العامَّة ، ثمَّ ينفي التُّهمة الَّتي وجَّهها المستشرقون المتعصِّبون إلى الفاتحين العرب المسلمين ، والَّتي قالت : إن العرب أحرقوا مكتبة الإسكندريَّة بعد فتحها ، يقول (لوبون) نافياً مفنِّداً :

« وأمَّا حرقُ مكتبة الإسكندريَّة فمن الأعمال الهمجيَّة الَّتي تأباها عادات العرب ، فتجعل المرء يسأل : كيف جازت هذه القصَّة على بعض العلماء الأعلام زمناً طويلاً ، وهذه القِصَّةُ دُحِضَت في زماننا . فلا نرى أن نعود إلى البحث فيها ، ولا شيء أسهل من أن نثبت بما لدينا من الأدلَّة الواضحة أنّ النَّصارى هم الَّذين حَرَقوا كتب المشركين في الإسكندريَّة قبل الفتح العربي بعناية ، كالَّتي هدموا بها التَّماثيل ، فلم يبق منها ما يُحْرَق » ، [صفحة ٢٦٤] .

ويقارن (لوبون) ، وتتجلَّى حقائق التَّاريخ قُبالة ناظريه ، دون تشويه أو ضبابيَّة ، فيقول : يشهد تاريخ الرُّومان أنَّهم هم الَّذين أحرقوا كتب مكتبة الإسكندريَّة :

« فلما أصبحت النَّصرانيَّة دين الدَّولة الرَّسمي ، أمر القيصر النَّصراني ثيودوز(١٠) ، لا الخليفة عمر بن الخطَّاب ، بإبادة معابدها وتماثيلها وكتبها الوثنيَّة كما ذكرنا ذلك آنفاً » ، [صفحة ٢٦٥] .

(١٠) ثيودوسيوس الثَّاني (٤٠٨ ـ ٤٥٠ م] ، مالَ إلى رأي نسطور الَّذي ينكر أُلوهيَّة السَّيِّد المسيح ، فدعا إلى عقد مجمع افسس الأوَّل سنة ٤٣١ م ، يقول ابن البطريق : « تكاثرت النَّسطوريَّة في المشرق والعراق والموصل والفرات والجزيرة » ، [انظر : محاضرات في النَّصرانيَّة لمحمد أبو زهرة ، صفحة ١٣٥ ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٣٨١ هـ = ١٩٦١ م] .

ويتابع (لوبون) في رسمه الصُّورة الصَّحيحة بشأن رقي حضارة العرب ، الَّتي امتازت في الأندلس ، بميل العرب الشَّديد إلى الفنون والآداب والعلوم ، فأنشؤوا في كلِّ ناحيَّة المدارس والمكتبات والمختبرات ، في الوقت الَّذي تفشَّت فيه الأُميَّة في أُوربة ، حيث كانت الكتب نادرة ، حتَّى كتابهم المقدَّس لا يوجد خارج الأديرة ، لقد اقتنى الحكم[11] في قرطبة مكتبة فيها أربع مئة ألف مجلَّد ، ثمَّ يتحسَّر (لوبون) على فعلة (أكزيمينيس) :

« ظَنَّ رئيس الأساقفة الإسباني أكزيمينيس أنَّه بحرقه مؤخَّراً ماقدر على جمعه من كتب أعداء دينه العرب (أي ثمانين ألف كتاب) مَحَا ذكرهم من صفحات التَّاريخ إلى الأبد ، فما دَرَى أن ماتركه العرب من الآثار الَّتي تملأ بلادَ إسبانية يكفي لتخليد اسمهم إلى الأبد » ، [صفحة ٣٣٩] .

- ١١ -

وبعد أن يسخر (لوبون) من المؤرِّخين الَّذين يجسِّمون قيمة انتصار شارل مارتل على المسلمين في بواتيه[12] (بلاط الشُّهداء) ، حيث تقرَّر مصير العالم في تلك المعركة ، فلو غَلِبَ الفرنج ، لكانت الأرض قبضةَ محمَّد ، يقول :

« ولكن لنفرض جَدَلاً أن النَّصارى عجزوا عن دحر العرب ، وأنَّ العرب وجدوا جَوَّ شمال فرنسة غيرَ بارد ، ولا ماطر كجوِّ إسبانية ، فطابت لهم الإقامة الدَّائمة به ، فماذا كان يصيب أُوربة ؟ كان يصيب أُوربة النَّصرانيَّة المتبربرة مثلُ

(١١) الحكَم الثَّاني (المستنصر) : [٣٠٢ ـ ٣٦٦ = ٩١٤ ـ ٩٧٦ م] ، ولد وتوفي في قرطبة ، شجَّع العلوم والآداب ، فغدت قرطبة في عهده مركزاً ثقافيّاً وحضاريّاً .

(١٢) بلاط الشُّهداء ، تور ، بواتيه : أصحُّ الأقوال أن موقعها على مقربة من طريق روماني يصل شاتلرو ببواتيه ، على مسافة نحو عشرين كيلو متراً من بواتيه ، في الموضع الَّذي يسمَّى اليوم Moussais-la Bataille ، وتاريخها تشرين الأوَّل (أكتوبر) سنة ٧٣٢ م ، أوائل شهر رمضان سنة ١١٤ هـ ، وقائدها : عبد الرَّحمن الغافقي .

ماأصاب إسبانية من التَّقدُّم والارتقاء ، والحضارة الزَّاهرة الرَّفيعة تحت راية النَّبيِّ العربيِّ ، وكان لا يحدث في أُوربة الَّتي تكون قد هُذِّبت ماحَدَث فيها من الكبائر ، كالحرب الدِّينيَّة ، وملحمة سان بارتلمي[13] ومظالم محاكم التَّفتيش[14] ، وكلِّ مالم يَعْرِفه المسلمون من الوقائع الَّتي ضَرَّجت أُوربة بالدِّماء عِدَّة قرون .

ويجب أن يكون المرء جاهلاً تاريخ حضارة العرب جهلاً مطبقاً ليوافق على مازعمه ذلك المؤرِّخ العالم (هنري مارتن) في كتابه عن تاريخ فرنسة الشَّعبي من

---

(١٣) (سان بارتلمي) : ملحمة أمر بها سنة ١٥٧٢ م شارلُ التَّاسع وكاترينادوميديسيس ، عندما قتلت كاترينا خمسة من زعماء البروتستانت في باريس ظنَّت أنَّهم يأتمرون بها وبالملك ، ولم يكد ينتشر الخبر في باريْس حتَّى شاع أنَّه شُرِعَ في قتل الخوارج ، فانقضَّ أشراف الكاثوليك والحرس الملوكي والنَّبَّالة والجمهور على البروتستانت ، وقتلوا منهم ألفي نسمة . وقد قلَّد سكان الولايات الفرنسية بعامل العدوى أهل باريس ، فسفكوا دماء ستة إلى ثمانية آلاف نسمة ، ولم ينل حادثة السَّان بارتلمي أيَّام وقوعها شيء من الانتقاد في أُوربة الكاثوليكيَّة ، وقد أوجبت حماساً يفوق الوصف ، فكاد فيليب الثَّاني يصبح مجنوناً لشدَّة فرحه عندما بلغه وقوعها ، وانهالت التَّهاني على ملك فرنسة أكثر من انهيالها عليه لونال نصراً عظيماً في ساحة الوغى .
ومابدا السُّرور على أحد كما بدا على البابا غريغوار الثَّالث عشر ، فقد أمر بضرب أوسمة خاصَّة تخليداً لذكراها ، رسمت على هذه الأوسمة صورة غريغوار الثَّالث عشر ، وبجانبه ملك يضرب بالسَّيف أعناق الخوارج ، ثمَّ هذه الكلمة : « قُتِل الخوارج » ، كما أمر بإيقاد نيران الفرح ، وبضرب المدافع ، وبتكليف الرَّسَّام فازاري أن يصوِّر على جدران الفاتيكان مناظرها ، [انظر : روح الثَّورات ، غوستاف لوبون ، صفحة ٤٤] .

(١٤) انظر : (محاكم التَّفتيش) د . علي مظهر ، مطبعة أنصار السُّنَّة المحمَّديَّة ، ١٣٦٦ هـ ـ ١٩٤٧ م .
ومظالم هذه المحاكم عمَّت أُوربة ، وإسبانية خاصَّةً ، حيث شُكِّلت بمرسوم بابوي في تشرين الثَّاني (نوفمبر) سنة ١٤٧٨ م ، ومن أنواع التَّعذيب الَّذي اتَّبعته هذه المحاكم ، الدَّفن على قيد الحياة ، وعندما احتل نابليون إسبانية ، أصدر مرسوماً سنة ١٨٠٨ م بإلغاء محاكم التَّفتيش فيها ، ولكن رهبان (الجزويت) أصحاب المحاكم الملغاة استمرّوا في القتل والتَّعذيب ، فشمل ذلك الجنود الفرنسيِّين .
وانظر أيضاً : (التَّعصُّب والتَّسامح بين المسيحيَّة والإسلام) لمحمد الغزالي ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٥ م ، صفحة ٣١٦ وما بعدها .

أنّ النّشاط الّذي يحفز النّاس إلى التّقدّم ليس مما تجده في عبقريّة المسلمين ، فمزاعم مثل تلك ، ليست مما يقف أمام سلطان النّقد عندما يُعْلم أنّ التّمدُّن اللاّمع حلّ بالبلاد الّتي خضعت لأتباع الرّسول مَحَلّ الهمجيّة ، وأن النّشاط الّذي يحفز الإنسان إلى التّقدّم ، لم يكن قويّاً في أُمّة مثلَ قُوّته في العرب » ، [صفحة ٣٨٩] .

ويقرِّر (لوبون) ويجزم أن العرب ذوو أثر بالغ في تمدين الأقطار الّتي خضعت لسلطانهم :

« وإن كلّ بلد خفقت فوقه راية الرّسول تحوّل بسرعة ، فازدهرت فيه العلوم والفنون والآداب والصّناعة والزِّراعة أيّما ازدهار » ، [صفحة ٣٩١] .

- ١٢ -

ويصف (لوبون) استيلاء الصّليبيِّين على القدس سنة ١٠٩٩ م متألّماً من وحشية ماجرى ، ومتحسّراً على أخلاق قومه وسلوكهم ، فالهوّة عميقة بين تفكير الرّجل المتمدّن وسلوكه وعواطفه ، وتفكير الرّجل المتوحّش وسلوكه ونزواته .

ثم يورد قول المؤرّخ الرّاهب التّقي (روبرت) : « كان قومنا يجوبون ، كاللّبوءات الّتي خُطِفَت صغارها ، الشّوارعَ والميادين ، وسطوحَ البيوت لِيَرْووا غليلهم من التّقتيل ، فكانوا يذبحون الأولاد والشُّبّان والشّيوخ ، ويقطّعونهم إرْباً إرْباً ، وكانوا لا يستبقون إنساناً ، وكانوا يشنقون أُناساً كثيرين بحبل واحد بُغْيَةَ السُّرعة ، فياللعجب ، ويا للغرابة أن تُذْبَح تلك الجماعة الكبيرةُ المسلّحة بأمضى سلاح من غير أن تقاومِ !

وكان قومنا يقبضون على كلّ شيء يجدونه ، فَيَبْقُرون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعاً ذهبيّة ، فياللشّره وحبّ الذّهب ! وكانت الدِّماء تسيل كالأنهار في طُرُق المدينة المغطّاة بالْجُثَث ، فيالتلك الشُّعوب العُمْي الْمُعَدَّةِ للقتل ! ولم يكن

بين تلك الجماعـة الكبرى واحِـدٌ ليرضى بـالنَّصرانيَّـة دينـاً ، ثمَّ أحضر بوهيمونـد[١٥] جميـع الَّـذين اعتقلهم في برج القصر ، فـأمر بضرب رقـابِ عجـائـزهم وشيـوخهم وضعـافهم ، وبِسَوْق فتيـانهم وكهولهم إلى أنطـاكيـة لكي يبـاعـوا فيهـا » ، [صفحة ٤٠٠] .

ويعقب (لـوبـون) : « وكان سلـوك الصَّليبيِّين حين دخلـوا القـدس غيرَ سلـوك الخليفـة الكريم عمر بن الخطَّـاب نحـو النَّصـارى وقتما دخلهـا منـذ بضعـة قرون » ، ثمَّ يورد قول كاهن لوبري (ريموند داجيل) : « حـدثِ مـا هو عجيب بين العرب (!) عندمـا استولى قومنـا على أسوار القـدس وبروجهـا ، فقـد قُطِعَت رؤوس بعضهم ، فكان هـذا أقـلَّ مـا يمكن أن يصيبهم (!) وبُقرت بطـون بعضهم فكانوا يُضْطرُّون إلى القذف بـأنفسهم من أعلى الأسوار ، وحُرِق بعضهم في النَّـار ، فكان ذلك بعد عـذاب طويل ، وكان لا يُرَى في شوارع القـدس وميـادينهـا سوى أكداس من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم ، فلا يَمَرُّ المرء إلاَّ على جثث قتلاهم ، ولكن كلَّ هذا لم يكن سوى بعض مانالوه » ، [صفحة ٤٠١] .

ويتابع (لوبون) تعليقه على صورة جثث القتلى ، الَّتي تعوم في السَّـاحـات هنا وهنالك قائلاً : « لم يكتف الفرسان الصَّليبيُّون الأتقياء بذلك ، فعقدوا مؤتمراً أجمعوا فيه على إبـادة جميع سكان القـدس من المسلمين .. الَّـذين كان عـددهم ستين ألفـاً ، فـأفْنَوْهم على بَكْرَةِ أبيهم في ثمـانيـة أيَّـام ، ولم يستثنوا منهم امرأة ولا ولـداً ولا شيخاً .

وأراد الصَّليبيُّـون أن يستريحـوا من عنـاء تـذبيـح أهـالي القـدس قـاطبــةً ، فـانهمكـوا في كلِّ مـا يستقـذره الإنسـان من ضروب السُّكر والعربـدة ، فـاغتـاظ

---

(١٥) بوهيموند النّورماني : Bohemond ، أكبر أبناء روبرت جويسكارد ، وأحـد قوّاد الحملـة الصّليبيّـة الأولى ، أقام للنّورمان إمارة في أنطاكية .

مؤرِّخو النَّصارى أنفسهم من سلوك حماة النَّصرانيَّة الشَّائن . مع اتِّصاف أولئك المؤرِّخين بروح الإغضاء والتَّساهل ، فنعتهم برنارد الخازنَ بالسُّعْرى المجانين ، وشبَّههم بودان ، الَّذي كان رئيس أساقفة دُولَ ، بالفُرُوس الَّتي تتمرَّغ في الأقذار »[١٦] ، [صفحة ٤٠٣] .

- ١٣ -

وفي معرض حديثه عن المجتمع العربي ، يقول (لوبون) :

« وإليك ماقاله الفيكونت فوغيه ، عندما تكلَّم عن تزاور أفقر طبقات العرب : لا يسعني سوى الإعجاب بما يسود اجتماعات أُولئك القرويين الفقراء من الوَقار والأدب ، فما أعظم الفرق بين اتِّزان أقوالهم ، ونُبْل أوضاعهم ، ولَغَط بني قومنا ووقاحتهم » ، [صفحة ٤٣٩] .

- ١٤ -

وبعد حديث (لوبون) عن نظام القضاء والمرافعات عن المسلمين ، الَّذي كان بسيطاً للغاية ، والَّذي لا يضيع وقت المتقاضين الثَّمين ، ولا تثقلهم بالنَّفقات القضائيَّة ، وتكون الأحكام عادلة على العموم ، فروح العدل والإنصاف نامية كثيراً في العرب ، فالعدل أساس الحياة في تلك المجتمعات الَّتي لا تزال على الفطرة ، ويختم بقوله :

« نختم قولنا في نظم العرب الاجتماعيَّة بأن نذكر أن العرب يتَّصفون بروح المساواة المطلقة ، وفقاً لنظمهم السِّياسيَّة ، فمبدأ المساواة الَّذي أُعلن في أُوربة قولاً ، لا فعلاً ، راسخ في طبائع الشَّرق رسوخاً تامّاً ، فلا عهد للمسلمين بتلك

---

(١٦) انظر : (الحركة الصَّليبيَّة : صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى) ، د . سعيد عبد الفتّاح عاشور .

الطَّبقات الاجتماعيَّة الَّتي أدَّى وجودها إلى أعنف الثَّورات في الغرب ، ولا يزال يؤدِّي ، وليس من الصَّعب أن ترى في الشَّرق خادماً زوجاً لابنة سيِّده ، وأن ترى أُجراء منهم ، قد أصبحوا من الأعيان » ، [صفحة ٤٧٦] .

- ١٥ -

وبعد أن يذكر (لوبون) أن مبدأ تعدُّد الزَّوجات ليس خاصّاً بالإسلام ، فقد عرفته أُمم الشَّرق قبل الإسلام[١٧] ، لذلك لم تَرَ فيه هذه الأُمم غُنْماً جديداً ، ويذكر (لوبون) أيضاً الغرب ، الَّذي لم يكن مبدأ الاقتصار على زوجة واحدة في غير القوانين ، لا في الطَّبائع حيث يَنْدُر ، ثمَّ يقول :

« ولا أرى سبباً لجعل مبدأ تعدُّد الزَّوجات الشَّرعي عند الشَّرقيين أدنى مرتبة من مبدأ تعدُّد الزَّوجات السِّرِّي عند الأُوربيِّين ، مع أنني أُبصر بالعكس ما يجعله أسنى منه ، وبهذا ندرك مغزى تعجُّب الشَّرقيين الَّذين يزورون مدننا الكبيرة ، من احتجاجنا عليهم ، ونظرهم إلى هذا الاحتجاج شَزْراً »[١٨] ، [صفحة ٤٨٣] .

- ١٦ -

وفي صدد حديثه عن : (تأثير الإسلام في أحوال النِّساء في الشَّرق) ، حيث كان لهنّ من الشَّأن ما اتَّفق لأخواتهنّ حديثاً في أُوربة ، وذلك حين انتشار فروسيَّة عرب الأندلس وظَرْفِهم ، يقول (لوبون) :

---

(١٧) إنَّه مقرَّر في التَّوراة ، لقد كان عند داود مئة زوجة ، وعند سليمان ألف ؟! وعرف تعدُّد الزَّوجات عند الفرس وعرب الجاهليَّة أيضاً .

(١٨) يقول لوبون ، صفحة ٤٩٦ : « إنَّ الخيانة الزَّوجيَّة في الأُمم القائلة بالاقتصار على زوجة واحدة تزيد باطِّراد ، فقد دلَّت الإحصاءات الرَّسميَّة الَّتي نُشِرَت حديثاً على أن عدد قضايا الزِّناء في فرنسة في سنة ١٨٨٠ م ، أصبح تسعة أمثال ما كان عليه في سنة ١٨٢٦ م » ، فما بالنا ونحن في العقد الأخير من القرن العشرين ؟!

« إنَّ الأُوربيين أخذوا عن العرب مبادئ الفروسيَّة ، وما اقتضته من احترام المرأة ، فالإسلام ، إذن ، لاالنَّصرانيَّة ، هو الَّذي رفع المرأة من الدرك الأسفل الَّذي كانت فيه ، وذلك خلافاً للاعتقاد الشَّائع ، فإذا نظرتَ إلى أُمراء النَّصارى الإقطاعيين في القرون الوسطى ، رأيتهم لم يحملوا شيئاً من الْحُرْمة للنِّساء ... » ، [صفحة ٤٨٨] .

« ومن الأدلّة على أهميَّة النِّساء أيَّام نضارة حضارة العرب ، كثرة من اشتهر منهن بمعارفهن العلميّة والأدبيّة ، فقد ذاع صيت عدد غير قليل منهن في العصر العبَّاسي في الشَّرق ، والعصر الأُموي في إسبانية .. » ، [صفحة ٤٨٩] .

ويلاحظ (لوبون) أن الحضارة العربيَّة السَّاطعة خبت في عهد وارثي العرب ، ولا سيا في عهد التُّرك ، فنقص شأن النِّساء كثيراً :

« وما تقدَّم يثبت أن نقصان شأنهنّ حدث خلافاً للقرآن ، لا بسبب القرآن على كلِّ حال ، لم يقتصر فضل الإسلام على رفع شأن المرأة ، بل نُضيف إلى هذا ، أنَّه أوّل دين فعل ذلك ، ويسهل إثبات هذا ببياننا أن جميع الأديان ، والأُمم الَّتي جاءت قبل العرب ، أساءت إلى المرأة ، وهذا ماأوضحناه في كتابنا الأخير ، فلا نرى غير تكرار ماذكرناه فيه لإقناع القارئ »(١٩) ، [صفحة ٤٩٠] .

---

(١٩) من الأمثلة : كان الإغريق على العموم يَعُدُّون النِّساء من المخلوقات المنحطَّة الَّتي لاتنفع لغير دوام النَّسل وتدبير المنزل ، وكانت المرأة الولود تؤخذ من زوجها بطريق العارية لِتَلِد للوطن أولاداً من رجل آخر ، ولم ينل في دور ازدهار الحضارة اليونانيَّة الْحُظْوَةَ من نساء الإغريق سوى بنات الهوى .

وجاء في شرائع الهندوس : ليس المصير المقدَّر والرِّيح والموت والجحيم والسُّم والأفاعي والنَّار أسوأ من المرأة .

وفي التَّوراة : « المرأة أمرُّ من الموت » وأن « الصالح أمام الله ينجو منها ... » ، [حضارة العرب ٤٩٢/٤٩٣] .

ويختم فقرة (الحريم في الشّرق) قائلاً : كلمة الحريم لفظ يدلّ عند العرب على كلّ ماهو مقدّس ، وينسج الأوربيّون على العموم ، أفسد الآراء حول دوائر الحريم في الشّرق ، ثمّ يقول (لوبون) :

« إنّ الإسلام حسّن حال المرأة كثيراً ، وأنّه أوّل دين رفع شأنها ، وأن المرأة في الشّرق أكثر احتراماً وثقافةً وسعادةً منها في أوربة على العموم »[٢٠] ، [صفحة ٥٠٣] .

- ١٧ -

ومع بداية فصل (الدّين والأخلاق) ، جعل (لوبون) الفقرة الأولى تحت عنوان : (تأثير الدّين في المسلمين) :

« تأثير دين محمّد في النّفوس أعظم من تأثير أيّ دين آخر ، فلا تزال العروق[٢١] المختلفة الّتي اتّخذت القرآن مرشداً لها ، تعمل بأحكامه ، كما كانت تفعل منذ ثلاثة عشر قرناً .. » ، [صفحة ٥٠٤] .

- ١٨ -

لقد أخذ العرب المسلمون من معارف اليونان ، شأنهم في ذلك شأن الطّلاب

---

(٢٠) وهذا ماأكّدته القاضية السّويديّة (بريجيدا أولف هامر) الّتي كُلّفت من قبل الأمم المتحدة بدراسة أحوال المرأة العربيّة ، مقارنة بالمرأة الغربيّة ، بمناسبة عام المرأة الدّولي ١٩٧٥ م ، لقد درست (بريجيدا) المرأة في الشّرق ، من أعماق المرأة الصّعيديّة في (أبي طشت) في صعيد مصر ، إلى أعماق المرأة التّونسيّة في (سيدي تمراز) في تونس ، إلى عمق أعماق المرأة اللّيبيّة في مصراته ، إلى عمق أعماق المرأة العراقيّة في السّليمانيّة ، ثمّ قدّمت دراستها التي قالت فيها : المرأة الشّرقيّة في قطاعات كثيرة وبارزة من البلاد العربيّة الّتي زارتها أكثر حرّيّة من المرأة السّويديّة ، المرأة المسلمة تمارس وضعاً ينتمي إلى القداسة لاإلى العبوديّة .

(٢١) يستخدم كلمة عِرْق بمعنى النّوع ، جاء في صفحة ٧٨ : « ويمكن تعريف العِرْق ، أو النّوع البشري ، بأنّه يَدُلُّ على جماعات ذات أخلاق مشتركة تنتقل إليها بالوراثة المنتظمة » .

الّـذين يتلقَـوْن في المـدرسـة مـا ورثـه الإنسـان من علـوم الأوَّلين ، ولكن العرب المفطورين على قوّة الإبداع والنَّشـاط ، لم يكتفوا بحـال الطّلب الّـذي اكتفت بـه أُوربة في القرون الوسطى ، فلم يلبثوا أن تحرَّروا من ذلك الـدَّور الأوَّل ، ويقول (لوبون) بعد هذا :

« والإنسانُ يقضي العجب من الهِمَّة الّتي أقـدم بها العرب على البحث ، فـإذا كانت هنالك أُمم قـد تسـاوت هي والعرب في ذلـك ، فـإنّـك لاتجِـد أُمَّـة فـاقت العرب على مايحتمل .. » ، [صفحة ٥٢٦] .

ـ ١٩ ـ

لقد كان منهاج العرب العلمي قائماً على التَّجربة والتَّرصُّد والمراقبة ، ومنهـاج أُوربـة في الـوقت ذاتـه ، كان درس الكتب ، والاقتصـار على تكرار رأي المعلم ، وهذا ماسارت عليه أُوربة طوال القرون الوسطى ، والفرق بين النَّهجين أساسي ، ولا يمكن تقدير قيمة العرب العلميّة إلاَّ بتحقيق هذا الفرق :

« إذن ، اختبر العرب الأُمور وجرَّبـوهـا ، فكانـوا أوَّل من أدرك أهميَّـة هـذا المنهج في العالم ، فظلُّوا عاملين وحدهم زمناً طويلاً ، قال (دولانبر) في كتـاب : (تـاريخ علم الفلـك) : إذا استطعت أن تعـدّ بين الإغريق راصِـدَيْن أو ثلاثـة ، رأيتَ بين العرب عـدداً كبيراً من الرُّصّـاد ، وأمـا في الكيميـاء ، فـلا تجـد مجرِّبـاً يونانياً ، مع أنّ المجرّبين من العرب فيها يُعَدُّون بالمئات » ، [صفحة ٥٢٩] .

« ونشـأ عن منهـاج العرب التَّجريبيِّ وصولُهم إلى اكتشـافـات مُهمّـة ، فسترى من مبـاحثنـا في أعمـال العرب العلميّـة ، أنّهم بـالحقيقـة أنجزوا في ثـلاثـة قرون ، أو أربعة قرون ، من الاكتشافات ما يزيـد على مـاحقّقـه الإغريق في زمن أطولَ من ذلـك كثيراً ، وكان تراث الإغريـق العلميُّ قـد انتقـل إلى البيزنطيين ، فلم

يستفيدوا منه منذ زمن طويل ، فلمّا آلَ إلى العرب حَوَّلوه إلى غير ما كان عليه ، فتلقّاه ورثتهم مخلوقاً خَلْقاً آخر .

ولم يقتصر شأن العرب على ترقية العلوم بما اكتشفوه ، فالعرب قد نشروها ، كذلك ، بما أقاموه من الجامعات ، وما ألَّفوه من الكتب ، فكان لهم الأثر البالغ في أُوربة من هذه النَّاحية ، وسترى في الفصل الَّذي ندرس فيه هذا التَّأثير أن العرب وحدهم كانوا أساتذة الأُمم النَّصرانيَّة عدّة قرون ، وأنَّنا لم نطَّلع على علوم قدماء اليونان والرُّومان إلاّ بفضل العرب ، وأنّ التَّعليم في جامعاتنا لم يَسْتَغْنِ عما نُقِلَ إلى لغاتنا من مؤلَّفات العرب إلاّ في الأزمنة الحاضرة » ، [صفحة ٥٢٩] .

ـ ٢٠ ـ

وكان حُبُّ العرب للعلوم من القوَّة بحيث لم تمنعهم الحروب والفتن الأهليَّة ، وغارات الأجنبي ، من الاهتمام بها ، فأثَّر العربُ بِسعة معارفهم تأثيراً كبيراً في قاهريهم ، الَّذين لم يلبثوا أن اتَّخذوهم حماةً لهم :

« ولا شيء يُورِث العجب أكثر من حضارة العرب على همجيَّة جميع الغزاة ، ومِنْ تخرّجِ هؤلاء الغزاة ، من فورهم ، على مدرسة العرب المغلوبين ، فقد دام عمل العرب في حقل الحضارة إلى ما بعد زوال سلطانهم السِّياسي .. » ، [٥٥٤] .

ـ ٢١ ـ

ولقد وصل العرب إلى اكتشافات مهمّة في علم الكيمياء ، على الرَّغم أنَّها بدأت مشوبة بالسِّيمياء[٢٢] :

(٢٢) السِّيمياء : « الصَّنعة » ، أي تحويل المعادن الخسيسة مثل النّحاس والحديد ، إلى معادن ثمينة هي الذَّهب والفضَّة ، وقال العالم الكبير عبد اللَّطيف البغدادي : إنَّها باطلةٌ ، وقال عن تجاربها : إنَّها تجاربُ الضَّلال الفارغة .

« إنَّ المعارف الَّتي انتقلت من اليونان إلى العرب في الكيمياء ضعيفة ، فلم يكن لليونان علم بما اكتشفه العرب من المركَّبات المهمَّة ، كالكحول ، وزيت الزَّاج (الحامض الكبريتي) ، وماء الفضَّة (الحامض النتري) ، وماء الذَّهب وما إلى ذلك ، كما أن العرب اكتشفوا أهمَّ أُسس الكيمياء ، كالتَّقطير .

قال بعض المؤلِّفين : إنَّ لافوازيه هو واضع علم الكيمياء ، فنسوا أننا لا عهد لنا بعلم من العلوم ، ومنها علم الكيمياء ، صار ابتداعه دفعة واحدة ، وأنه كان عند العرب من المختبرات ما وصلوا به إلى اكتشافاتٍ لولاها ما استطاع لافوازيه أن ينتهيَ إلى اكتشافاته » ، [صفحة ٥٧٣] .

- ٢٢ -

ويشرح (لوبون) علم الصحة عند العرب ، الَّذين لم يجهلوا في حياتهم أهمِّيَّة حفظ الصّحة ، مع الوقاية من الأمراض قبل الوقوع فيها ، ثُمَّ يقول :

« وليس فيما نُسِبَ إلى النَّبيِّ من الوصايا الصِّحيَّة(٢٣) ما يُنْتَقَد » ، [صفحة ٥٩٢] .

- ٢٣ -

وفي فصل : (فنّ عمارة العرب) ، وهو فصل غنيٌّ بالصُّور ، تحدَّث (لوبون) عن المتدلِّيات (المقرنصات)(٢٤) ، الَّتي امتاز به الفنُّ العربي ، والنُّقوش العربيَّة ، ودقائق الزُّخْرُف ، والخطّ العربي الكوفي ومشتقَّاته ، وختم : (مباني بلاد الأندلس) : جامع قرطبة ، قصر إشبيلية ، قصر الحمراء في غَرْناطة ... ثُمَّ يقول :

(٢٣) جمعت وصاياه ﷺ في كتاب ابن قيِّم الجوزيَّة : « الطِّب النَّبوي » .

(٢٤) القَرانِيصُ خرز في أعلى الخف ، ويقال : قَرْنَصْت البازي إذا ربطته ليسقط ريشُه ، فهو مُقَرْنص ، [اللِّسان : قرنص] .

« وبلغ خِصْب الفنِّ العربيِّ الأندلسيِّ غايتَه في قصر الحمراء الَّذي أُنشئ في القرن الثَّالث عشر من الميلاد ، وعلى ما فيه من غُلُوٍّ في الزُّخرف ، ترى هذا الغُلُوَّ وليد ذوق رفيع ، لا يتجلَّى في آثار دور مُنْحط » ، [صفحة ٦٥٠] .

ـ ٢٤ ـ

وما عجز الإغريق والفُرْس والرُّومان عنه في الشَّرق ، قدر عليه العرب بسرعة ، ومن غير إكراه ، لقد وُفِّق العرب في كلِّ بلد خفقت فوقه رايتهم ، كإفريقية ، وسورية ، والرَّافدين ، وفارس ... وبلغ نفوذهم بلاد الصِّين ، وجنوب شرقي آسية ، الَّتي لم يزوروها إلاَّ تُجَّاراً ، يقول (لوبون) :

« ولا نرى في التَّاريخ أُمَّةً ذاتَ تأثير بارز كالعرب ، فجميع الأُمم الَّتي اتَّصل العرب بهم ، اعتنقت حضارتهم ولو حيناً من الزَّمن ، فلما غاب العرب عن مسرح التَّاريخ ، انتحل قاهروهم ، كالتُّرك والمغول إلخ ، تقاليدهم ، وبَدَوْا للعالم ناشرينَ لنفوذهم ، أجل ، لقد ماتت حضارة العرب منذ قرون[٢٥] ، ولكن العالم لا يعرف اليوم في البلاد الممتدَّة من المحيط الأطلنطي إلى السِّند ، ومن البحر المتوسط إلى الصَّحراء ، غير دين أتباع النَّبيِّ ولغتهم » ، [صفحة ٦٧٢] .

ـ ٢٥ ـ

ويقول (لوبون) منصفاً مُقِرّاً :

« إن أُوربة مدينة للعرب بحضارتها » ، [صفحة ٦٧٥] .

ولا يمكن إدراك أهمِّيَّة شأن العرب في الغرب إلا بتصوُّر حال أُوربة ، حينما أدخل العرب الحضارة إليها :

(٢٥) الحضارات لا تموت ، بل تنتقل ، وهي متواصلة العطاء ، إنَّها بساط نسجته وتنسجه أيدي أُمم كثيرة ، يقول المرحوم مالك بن نبي : « الحضارة تسير كما تسير الشَّمس ، فكأنَّها تدور حول الأرض مشرقة في أُفق هذا الشَّعب ، ثمَّ متحوِّلة إلى أُفق شعب آخر » .

« فـإذا رجعنـا إلى القرن التّـاسـع ، والقرن العـاشر من الميـلاد ، حين كانت الحضارة الإسلاميَّة في إسبانية ، ساطعة جداً ، رأينـا أن مراكز الثَّقـافـة في الغرب كانت أبراجـاً يسكنهـا أُمراء إقطـاعيُّون متوحِّشون ، يفخرون بـأنَّهم لا يقرؤون ، وأن أكثر رجال النَّصرانيَّـة معرفـةً هم الرُّهبـان المسـاكين الجـاهلون ، الَّـذين كانوا يقضـون أوقـاتهم في أديـارهم ، ليكْشِطـوا[٢٦] بخشـوعٍ كتبَ الأقـدمين النَّفيسـةَ ، فيكون عندهم من الرُّقوق ما هو ضروريٌّ لنسخ كتب العبادة » ، [صفحة ٦٧٥] .

« وظلَّت همجيَّة أُوربـة طـويلَ زمنٍ عظيمـةً جـدّاً من غير أن تشعر بهـا ، ولم يَبْـدُ فيهـا بعض الميل إلى العلم إلاَّ في القرن الحـادي عشر ، وفي القرن الثَّـاني عشر من الميـلاد على الخصـوص ، فلمـا ظهر فيهـا أُنـاس رَأوْا أن يرفعـوا أكفـانَ الجهـل الثَّقيـل عنهم ، وَلَّـوْا وجـوههم شَطْرَ العرب الَّـذين كانـوا أئمَّـةً وحـدهم » ، [صفحة ٦٧٦] .

- ٢٦ -

وبعـد ذكر القنوات الَّتي عبرت من خلالهـا الحضـارة العربيَّـة الإسلاميَّـة إلى أُوربة : (الأندلس ، صِقِلِّيَّة ، إيطاليـة) ، يقول (لوبون) : فـالحقُّ أن القرون الـوسطى لم تعرف كتب العـالم اليـونـاني القـديم إلاَّ من ترجمتهـا إلى لغـة أتبـاع محمّد ﷺ ، وبفضل هذه التَّرجمة اطَّلعنـا على محتويـات كتب اليونـان الَّتي ضـاع أصلها :

« فإذا كانت هنالك أُمَّة نُقِرُّ بأننا مدينون لهـا بمعرفتنـا لعـالم الزَّمن القـديم ، فالعربُ هم تلك الأُمَّة ، لا رهبـانُ القرون الوسطى الَّـذين كانوا يجهلون حتَّى اسم

(٢٦) كشط الغطاء عن الشيء ، والْجلد عن الجزور ، والْجُلَّ عن ظهر الفَرَس يكشطه كشطـاً : قلعه ونزعه وكشط عنـه ، ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴾ : نُزِعت فطويت ، [اللِّسـان : كشط] ، ولعلَّ المعنى المراد هنا : النَّسخ .

اليـونـان ، فعلى العـالم أن يعترف للعرب بجميـل صنعهم في إنقـاذ تلــك الكنـوز الثَّمينة اعترافاً أبديّـاً ، قـال مسيو ليبري : لولم يظهر العربُ على مسرح التَّـاريخ لتأخَّرت نهضة أُوربة في الآداب[٢٧] عِدَّة قرون » ، [صفحة ٦٧٧] .

فلم يكن في العالم ، في القرن العاشر من الميلاد ، بلاد يمكن الدَّرس فيهـا غير الأندلس العربيَّة ، وذلك خلا الشَّرقَ الإسلاميَّ طبعاً :

« إلى بلاد الأندلس كان يذهب أُولئك النَّصـارى القليلون ، لطلب العلوم في الحقيقة ، ونـذكر منهم ، على حسب بعض الرِّوايـات الَّتي هي موضوع جـدال من غير أن يَثْبُت عدم صِحَّتها[٢٨] ، جربرتَ الَّـذي صـار بـابـا في سنـة ٩٩٩ م بـاسم سلفستر الثَّاني ، فلما أراد هذا البابا أن ينشر في أُوربة ماتعلَّمه عَدَّ النَّاسُ ذلك من الخوارق ، فاتَّهموه بأنَّه باع روحه من الشَّيطان .

ولم يظهر في أُوربـة قبل القرن الخـامس عشر من الميـلاد عـالِمٌ لم يقتصر على استنسـاخ مـا في كتب العرب ، فعلى كتب العرب وحـدَهـا عَـوَّل روجر بيكن ، وليونـارد البيزي ، وأرنود الفيلنـوفي ، وريمـون لـول ، وسـان تـومـا[٢٩] ، وألبرت الكبير ، والأذفـونش العـاشر القشتـالي إلخ ، قـال مسيـو رينـان : إنَّ ألبرت

(٢٧) والأخلاق والعلوم والفلسفة أيضاً ، وهذا مااعترف به (لوبون) في الصَّفحات التَّالية من كتـابـه موضوع دراستنا هذه ، وصفحة ٦٧٨ خصوصاً .

(٢٨) انظر : (شمس العرب تسطع على الغرب : أثر الحضارة العربيَّة في أُوربـة) لزيغريـد هونكـه ، المستشرقـة الألمـانيَّـة ، فصل : (البـابـا يحسب بـالعربيَّـة) : « واستمع جربرت في إسبـانيـة إلى الأساتذة العرب ، وتعلَّم أشياء لم يكن أحد في أُوربة ليحلم أن يسمع بها ، وكان من أهمّ ماتعلَّمـه جربرت نظـام الأرقـام والأعـداد العربيَّـة » ، صفحـة ٨١/٨٠ ، الطَّبعـة الأولى أذار ١٩٦٤ م ، المكتب التِّجاري ـ بيروت .

(٢٩) توما الإكويني : [١٢٢٥ ـ ١٢٧٤ م] ، ولد بإيطـاليـة ، وتعلَّم في جـامعـة بـاريس ، اطَّلع على آراء ابن سينا والغزالي وابن رشد عن طريق التَّرجمات اللاَّتينيَّة ، واقتبس منها الكثير .
فبرهانه على وجود الله مثلاً ، هو البرهـان نفسـه الَّـذي عرضه الفـارابي في كتـابـه : (آراء أهل المدينة الفاضلة) ، وعرضه ابن سينا في كتابيه : (النَّجاة) ، و (الشِّفاء) ، كذلك أخـذ فكرة =

الكبير[٣٠] مدين لابن سينا ، وسان توما مدينٌ في فلسفته لابن رشد » ، [صفحة ٦٧٨] .

ولم يكن نفوذ العرب في جامعات إيطالية ، ولا سيا جامعة بادوا[٣١] ، أقلّ منه في فرنسة ، فقد كان للعرب فيها شأن :

« ويمكن للقارئ أن يتمثّل سعة نفوذ العرب من الاحتجاج الصّاخب الآتي الّذي قاله الشّاعر الكبير بترارك[٣٢] : ياعجباً ، استطاع سيسرون[٣٣] أن يكون خطيباً بعد ديموستين[٣٤] ، واستطاع فيرجيل[٣٥] أن يكون شاعراً بعد

= ضرورة الوحي الإلهي عن الفلاسفة المسلمين . وعن ابن رشد أخذ توما مذهبه في النّقل والعقل ، أي بين العقل والوحي . [دور العرب في تكوين الفكر الأوربي ، د . عبد الرّحمن بدوي ، الطّبعة الثّالثة ١٩٧٩ م ، ص ٣٣/٣٤ ، وكالة المطبوعات الكويت ، ودار القلم بيروت] .

(٣٠) ألبرتُس الكبير : [١٢٠٧ - ١٢٨٠ م] راهب ألماني ، معلّم القدّيس توما الإكويني ، يقول الدكتور بدوي في المرجع الوارد في الحاشية السّابقة ، صفحة ٣٢ : « درس - ألبرتس - ما ترجم إلى اللاّتينيّة من مؤلّفات الفلاسفة العرب دراسة عميقة ، وكاد أن ينقل عنهم كُلّ نظرياته الرّئيسيّة في الفلسفة ، وإن لم يستطع أحياناً الجهر بذلك خوفاً من السّلطات الدّينيّة ... وفضلاً عن ذلك فإنّه في إدراكه وفهمه للفلسفة الأرسطيّة ، إنّما اعتمد كلّ الاعتماد على الفارابي وابن سينا وابن رشد » .

(٣١) بادوا Padova : مدينة في شمالي إيطالية ، غربي مدينة البندقيّة (ڤينيسيا) .

(٣٢) بترارك Petrarca : [١٣٠٤ - ١٣٧٤ م] شاعر إيطالي من روّاد النّهضة الأُوربيّة ، اشتهر بديوانه : (الانتصارات) .

(٣٣) سيسرون (أوشيشرون) Cicéron : [١٠٦ - ١٣ ق . م] ، أكبر خطيب وكاتب ومفكّر عرفته رومة .

(٣٤) ديموستين Demosthenés : [٣٨٤ - ٣٢٢ ق . م] ، سياسي وخطيب ، يوناني قضى حياته ينظّم المقاومة في أثينة والمدن الأُخرى ضدّ فيليب المقدوني والاسكندر ، وكان يحرّض مواطنيه على المقاومة بخطب شهيرة عرفت بالفيليبيك .

(٣٥) ڤيرجيل : [٧٠ - ١٩ ق . م] أعظم شعراء الرّومان ، أهمّ ما يميّزه إيمانه بالأفكار الّتي تجول بخاطره ، وإتقانه صنعة الشّعر ، وتمكّنه من اللّغة ، وبراعته في استخدام الأوزان .

أُوميرس[٣٦] ، فهل قُدِّر علينا ألاَّ نكتب بعد العرب ؟ لقد تساوينا ، في الغالب ، نحن والإغريق وجميعُ الشُّعوب وسبقناها في بعض الأحيان ، خَلا العربَ ، فيا للحماقة ! ويا للضَّلال ! ويا لعبقرية إيطالية النَّاعسة أو الخامدة ! » ، [صفحة ٦٧٩] .

- ٢٧ -

وليس الإسلام مصدر عدم التَّسامح ، بل بعض الأشخاص ، فالعرق العربيّ كان من التَّهذيب والسَّماحة ما لا يحيد معه عن ذلك التَّسامح الَّذي أقام الدَّليل عليه في كلّ مكان حلَّ فيه منذ بدء فتوحه ، ثمَّ يقول (لوبون) :

« ويمكن القول إنَّ التَّسامح الدِّينيَّ كان مطلقاً في دور ازدهار حضارة العرب » ، [صفحة ٦٨١] .

- ٢٨ -

وتحت عنوان : (تأثير العرب في الطَّبائع) ، وبعد أن يقرر (لوبون) أنَّ الدَّم الشَّرقيَّ يشاهد في إسبانية بسهولة ، فمن الممكن أن تباد أُمَّة ، وأن تحرق كتبها ، وأن تهدم آثارها ، ولكن ما لها من التَّأثير أقوى من القُلُزّ في الغالب[٣٧] ، فلا يستطيع إنسان محوه ، ولا تكاد العصور تقدر عليه ، يقول :

« لا نعود إلى ما فصَّلناه في فصل سابق عن تأثير العرب الْخُلُقيّ في أُوربة ، وإنَّما نذكر أننا أثبتنا فيه الفرق العظيم بين أُمراء النَّصارى الإقطاعيين ، وأشياع النَّبيّ في ذلك الزَّمن ، وأنَّ النَّصارى تخلَّصوا من همجيَّتهم بفضل اتّصالهم بالعرب ،

(٣٦) هوميروس Homeros : ولد في آسية الصُّغرى في القرن ٩ ق . م ، شاعر ملحمي يوناني ، نسبت إليه الإلياذة والأُديسَّة ، والأغاني الهوميريَّة ، الَّتي أثَّرت تأثيراً عميقاً على مستقبل الشِّعر اليوناني .

(٣٧) القُلُزّ من النّحاس الَّذي لا يعمل فيه الحديد ، [اللّسان : قلز] .

واقتباسهم منهم مبادئ فروسيَّتهم ، وما تؤدِّي إليه هذه المبادئ من الالتزامات ، كمراعاة النِّساء والشُّيوخ والأولاد واحترام العهود إلخ ، ونذكر أنَّنا بيَّنَّا في فصلنا عن الحروب الصَّليبيَّة أنَّ أوربة النَّصرانيَّة كانت دون الشَّرق الإسلامي أخلاقاً بمراحل ، فإذا كان للدِّيانات ما يُسْنَد إليها من التَّأثير في الطَّبائع على العموم ، فنجادلُ فيه ، أمكنت المقابلة بين الإسلام والأديان الأُخرى ، الَّتي تَزْعُم أنَّها أفضل منه على الخصوص » ، [صفحة ٦٨٧] .

« تكلمنا في ذلك الفصل بدرجة الكفاية عن تأثير العرب الْخُلُقيِّ في أُوربة ، فنحيل القارئ عليه ، وإنَّما نُذَكِّر القارئ بالنَّتيجة الَّتي تَوَصَّل إليها أيضاً العلاَّمة الْمُتَدَيِّن مسيو بارتلمي سنت هيلر[٣٨] في كتابه عن القرآن ، حيث يقول :

أسفرت تجارة العرب وتقليدهم عن تهذيب طبائع أُمرائنا الإقطاعيين الغليظة في القرون الوسطى ، وتعلَّمَ فرساننا أرقَّ العواطف وأنبَلَها وأرحمها من غير أن يفقدوا شيئاً من شجاعتهم ، فأشكُّ في أن تكون النَّصرانيَّة وحدها قد أوحت إليهم بذلك ، مهما بُولِغَ في كرمها .

وقد يسأل القارئ بعدما تقدَّم : لماذا يُنْكِرُ تأثيرَ العرب علماءُ الوقت الحاضر ، الَّذين يضعون مبدأ حرِّيَّة الفكر فوقَ كلِّ اعتبار ديني كما يلوح ؟ لا أرى غير جواب واحد عن هذا السؤال الَّذي أسأل نفسي به أيضاً ، وهو : أنَّ استغلالنا الفكريَّ لم يكن في غير الظَّواهر بالحقيقة ، وأنَّنا لسنا من أحرار الفكر في بعض الموضوعات كما نريد » ، [صفحة ٦٨٨] .

« لقد تراكمت أوهامنا الموروثة ضدّ الإسلام والمسلمين في قرون كثيرة ، فصارت جزءاً من مزاجنا ، فأضحت طبيعة متأصِّلة فينا ، تأصَّلَ حِقد اليهود على النَّصارى الخفي أحياناً ، والعميق دوماً .

---

(٣٨) لعلَّه هيلر Hilar : [١٨٠٥ ـ ١٨٩٥ م] ، مستشرق فرنسي ، درس أديان الشَّرق ، له : (بوذا الهندي) ، و (محمَّد والقرآن) .

فإذا أضفنا إلى أوهامنا الموروثـة ضـدَّ المسلمين وَهْمَنـا الموروث الّـذي زاد مع القرون بفضل ثقافتنا المدرسيَّة البغيضة القائلة : إنَّ اليونان واللاَّتين وحـدهم منبعُ العلوم والآداب في الزَّمن الماضي ، أدركنا بسهولةٍ سِرَّ جحودنا العـامِّ لتـأثير العرب العظيم في تاريخ حضارة أُوربـة ، ويتراءى لبعض الفضلاء أنَّ من العـار أن يُفَكَّر في أنَّ أُوربة النَّصرانيَّة مدينـةٌ في خروجهـا من دور التَّوحُّش لأُولئـك الكافرين ، فعارٌ ظاهر كهذا لا يُقْبَل إلاَّ بصعوبة » ، [صفحة ٦٨٩] .

- ٢٩ -

وفي معرض حديث (لوبون) عن : (ورثة العرب في الأندلس) ، أي بعـد أن غاب العرب المسلمون عن أرضها :

« لم يفكِّر النَّصـارى ، بعـد أن استردّوا غَرْنـاطـة ، الَّتي كانت معقل الإسـلام الأخير في أُوربـة ، في السَّير على سُنَّـة العرب في التَّسـامـح الَّـذي رأوْه منهم عِـدَّة قرون ، بـل أخـذوا يضطهـدون العرب بقسـوة عظيمـة على الرغم من العهـود » ، [صفحة ٦٩٤] .

- ٣٠ -

وماذا جرى في إسبانية بعد سقوط حكم العرب المسلمين ؟

لقد عاش فيهـا جِيلان أحـدهمـا من النَّصـارى القـابضين على زمـام السُّلطـة العسكريَّة ، والأُخرى من العرب القابضين على ناحيـة الحضـارة المـاديَّـة : « كان وجود ذَيْنك الجيلَيْن أمراً ضرورياً ، فإذا كانت السُّلطة العسكريَّة كافيـة لإقـامـة دولة ، فإنَّها تَعْجِز وحـدهـا عن إدامتهـا ، فلن يكون ازدهـارهـا إلاَّ بتوافر بعض عناصر الحضارة ، ولن تبقى طويلاً إلاَّ ببقاء هذه العناصر .

هذا هو عين ما أصاب إسبانية بعـد طرد العرب ، فقـد حلَّ الانحطـاط فيهـا

محلَّ العظمة ، وقد زاد انحطاطها سرعةً ما عَطِلَت من قادة عِظام حربيين ، كالَّذين ظهروا في قرن واحد ، وهي حين خَسِرت سلطانها الحربيَّ وحُرِمَت الحضارةَ ، أضاعت كلَّ شيء .

وكان من سرعة الانحطاط الَّذي عَقَبَ إجلاءَ العرب وقتلَهم ما يمكننا أن نقول معه إنَّ التَّاريخ لم يَرْوِ خبر أُمَّة كالإسبان ، هبطت إلى دَرَكة عميقة في وقت قصير جداً ، فقد توارت العلوم والفنون والزِّراعة والصِّناعة ، وكلُّ ما هو ضروريٌّ لعظمة الأُمم عند بلاد إسبانية على عَجَل ، فأُغلقت أبواب مصانعها الكبرى ، وأُهملت زراعة أراضيها ، وصارت أريافها بلاقع ، والمدن إذ كانت لا تزدهر بغير صناعة ولا زراعة ، خَلَت المدن الإسبانيَّة من السُّكان على شكل سريع مخيف ... » ، [صفحة ٦٩٥] .

- ٣١ -

وحاولت إسبانية النُّهوض بعد طرد العرب المسلمين ، ولكن من غير جدوى ، وحَقّاً أن العرب زالوا ، وقضت محاكم التَّفتيش على كلِّ من يزيد ذكاؤه قليلاً على المستوى المتوسِّط ، فَصِرْت ترى فيها سُكَّاناً ، لا رجالاً ، ويتابع (لوبون) قائلاً :

« أجمع كُتَّاب العصر الَّذين زاروا بلاد إسبانية على الاعتراف بضعف مستوى الإسبان الثَّقافيِّ ، فكان هذا الضَّعف عميقاً عامّاً في أواخر القرن السَّابع عشر من الميلاد ، فبدت تلك البلاد الَّتي أضاءت العالم أيَّام سلطان العرب خاليةً من أيَّة مدرسة لتعليم الفيزياء والرِّياضيَّات والطَّبيعيَّات ، فَصِرْت لا ترى فيها كلِّها حتَّى سنة ١٧٧٦ م كيماوياً قادراً على صنع أبسط التَّراكيب الكيماويَّة ، ولا شخصاً قادراً على إنشاء مركب أو سفينة شراعيَّة ، وذلك كما قال الكاتب الإسباني (كانبومانيس) مؤكِّداً .

ولا مِراءَ في نجاح محاكم التَّفتيش المرهوبة في أعمالها[٣٩] ، فأضحت جميع بلاد إسبانية لا تعرف غير كتب العبادة ، ولا عملاً غير الأمور الدِّينيَّة » ، [صفحة ٦٩٧/٦٩٨] .

- ٣٢ -

وتحت عنوان : (أسباب عظمة العرب) ، بدأ (لوبون) بقوله :

« ونذكر على رأس هذه العوامل الَّتي ندرسها ، ذلك العاملَ الَّذي توحَّدت بفضله جميعُ القبائل العربيَّة المنقسمة ، وهو الدِّين الَّذي جاء به محمَّد ، فقد منح هذا الدِّين ما كانت تحتاج إليه أممٌ من المثل الأعلى الَّذي اكتسبوا به من الْحَمِيَّة ما استعدُّوا به للتَّضحية بأنفسهم في سبيله » ، [صفحة ٧١٨] .

- ٣٣ -

ولقد أتمَّ العرب نصرهم على الرُّوم لاستعداد كلِّ جنديٍّ عربيٍّ لبذل نفسه في سبيل دينه :

« كان يمكن أن تُعْمي فتوحُ العرب الأُولى أبصارَهم ، فيقترفوا من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادةً ، ويسيئوا معاملة المغلوب ، ويُكْرِهوهم على اعتناق دينهم الَّذي كان يرغبون في نشره في العالم ، فلو فعلوا ذلك لتألَّبت عليهم جميع الأُمم الَّتي كانت ، بَعْدُ ، غيرَ خاضعة لهم ، ولأصابهم مثل ما أصاب الصَّليبيِّين عندما دخلوا بلاد سوريَّة مؤخَّراً ، ولكن العرب اجتنبوا ذلك ، فقد أدرك الخلفاء السَّابقون ، الَّذين كان عندهم من العبقريَّة ما نَدَر وجوده في دُعاة الدِّيانات الجديدة ، أن النُّظم والأديان ليست مما يُفْرَض قسراً ، فعاملوا ، كما

(٣٩) بسبب المرسوم البابوي الصادر سنة ١٤٧٨ م ، وغياب روح التَّسامح كلِّيّاً ، وسيطرة الحقد والتَّعصُّب الأعمى .

رأينـا ، أهلَ سوريَّـة ومصرَ وإسبـانيـة ، وكلّ قطر استولَـوْا عليـه بلطف عظيم ، تـاركين لهم قـوانينهم ونُظُمهم ومعتقـداتهم ، غير فـارضين عليهم سـوى جِزْيَـة زهيدة ، في الغالب ، إذا ماقيست بما كانوا يـدفعونـه فيما مضى ، في مقـابل حفـظ الأمن بينهم ، فـالحـقُّ أن الأُمم لم تَعْرِف فـاتحين راحمين متسـامحين مثـل العرب ، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم » ، [صفحة ٧١٩] .

« ومـا جَهِلـه المـؤرِّخـون من رحمـة العرب الفـاتحين وتسـامحهم ، كان من الأسباب السَّريعة في اتِّساع فتوحهم ، وفي سهولـة اعتنـاق كثير من الأُمم لـدينهم ونُظُمهم ولغتهم الَّتي رَسَخَت وقـاومت جميـع الغـارات ، وبقيت قـائمـة حتَّى بعـد تواري سلطان العرب عن مسرح العـالم ، ونَعُـدُّ أمرَ مصرَ واضحـاً على الخصوص ، فلم يستطع الفُرْس والإغريق والرُّومـان الَّـذين استولَوْا عليهـا أن يقلبوا الحضـارةَ الفرعونيَّة القديمة فيها ، وأن يقيموا حضارتهم مقامها » ، [صفحة ٧٢٠] .

ـ ٣٤ ـ

وتحت فقرة : (حـال الإسلام الحـاضرة) ، يعتبر (لوبـون) : ثَقُلت قرونٌ على أعفـار العرب[٤٠] ، ودخلت حضـارتهم في ذمَّـة التَّـاريخ منـذ زمن طويـل ، ولا نقول مع ذلك : إنَّهم ماتوا تماماً[٤١] :

« نرى الآن ديانتهم ولغتهم اللَّتين أدخلوهما إلى العالم أكثرَ انتشـاراً ممـا كانتـا عليه في أنضر أدوارهم ، فالعربيَّةُ هي اللُّغة العامَّة من مَرَّاكُش إلى الهند ، ولا يزال الإسلام جادّاً في تقدُّمه .

(٤٠) العَفْرُ والعَفَرُ : ظاهر التُّراب ، والجمع أعفار ، [اللِّسان : عفر] .

(٤١) حضارة العرب بجانبها العقائدي قائمة بـاقيـة ، ولئن تقـدَّم الجـانب العلميّ عنـد الغربيِّين ، فهم اليوم أحوج مايكون للجانب الرُّوحي والخلقي في حضارتنا العربيَّة الإسلاميَّة ، وهذا مـاقـامت به السُّويد ، عندما جعلت عام ١٩٨٥ م (عام الإسلام) ، علَّهـا تسـدّ الفراغ الرُّوحي الهـائل في حياتها الاجتماعيَّة .

والسُّهولةُ العجيبةُ الَّتي ينتشر بها القرآن في العالم شاملةٌ للنَّظر تماماً ، فالمسلم أينما مَرَّ تَرَك خلفه دينَه ، فبلغ عدد أشياع النَّبيِّ ملايينَ كثيرةً في البلاد الَّتي دخلها العرب بقصد التِّجارة ، لا فاتحين ، كبعض أجزاء الصِّين ، وإفريقية الوسطى وروسية ، وتمَّ اعتناق هذه الملايين الإسلام طوْعاً ، لا كَرْهاً ، ولم يُسْمَع أن الضَّرورة قضت بإرسال جيوش مع هؤلاء التُّجَّار المبشِّرين العرب لمساعدتهم ، ويتَّسع نطاق الإسلام بعد أن يقيمه هؤلاء في أيِّ مكان .

ولقد أصاب مسيو دوڤال حيث قال : من فضل الإسلام ، زوالُ الأصنام والأنصاب عن الدُّنيا ، وتحريمُ القرابين البشريَّة ، وأكلُ لحوم الإنسان ، وحفظُ حقوق المرأة ، وتقييدُ مبدأ تعدُّد الزّوجات وتنظيمه .. وتوطيدُ أواصر الأُسرة ، وجعلُ الرَّقيق عضواً فيها ، وفتحُ أبوابٍ كثيرة سهلة لتحريره ، وتهذيبُ الطَّبائع العامَّة ، ورفعُ مستواها بالصَّلاة والزَّكاة ، وإيواءُ الغرباء ، وتثقيفُ المشاعر بالعدل والإحسان ، وتعليمُ أولياء الأُمور أنَّ عليهم من الواجبات ما على الرَّعيَّة ، وإقامةُ المجتمع على أُسُس منظَّمة ، فإذا حدث أن كان هنالك جَوْرٌ في الغالب ، كما في أيِّ مكان آخر ، وُجِد في العدل الإلهي ما يُخَفِّف وطأته ، وذلك أن في رجاء الحياة الآخرة ، حيث السَّعادة وحسن الثَّواب ، سَنَدٌ لضحايا الدَّهر أو الظُّلم ، تلك هي بعض المحاسن الَّتي تدلُّ في كلِّ مكان على انتشار الإسلام بين المجتمعات غيرِ المتمدِّنة .

وفي الصِّين ، على الخصوص ، يتقدَّم الإسلام تقدُّماً يقضي بالعجب ، ففي الصِّين ، حيث اضْطُرَّ المبشِّرون الأُوربيُّون إلى الاعتراف بفشلهم ، يُكْتَبُ للإسلام أسطعُ فوز ، وقد رأينا أن عدد أتباع محمَّد في الصِّين عشرون(٤٢) مليوناً ، وأن في مدينة بكِّين وحدَها مئة ألف مسلم » ، [صفحة ٧٣٤/٧٣٥] .

---

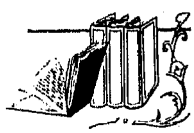
(٤٢) حالياً أكثر من أربعين مليون مسلم .

- ٣٥ -

ويختم (لوبون) سِفْرَه القيِّم ، بالفقرة التَّالية :

« لقد تمَّ الكتاب ، فنلخِّصه في بضع كلمـات ، فنقول : إنَّ الأُمم الَّتي فـاقت العرب تمدُّنـاً قليلـة إلى الغـايـة ، وإنَّنـا لانـذكر أُمَّـةً ، كالعرب ، حَقَّقت من المبتكرات العظيمـة في وقت قصير مثل مـاحقَّقوه ، وإنَّ العرب أقـامـوا دينـاً من أقوى الأديان الَّتي سادت العالم(٤٣) ، أقاموا ديناً لا يزال تأثيره أشدَّ حَيَويَّة مما لأيِّ دين آخر(٤٤) ، وإنَّهم أنشؤوا من النَّـاحيـة السِّيـاسيَّـة دولـةً من أعظم الـدُّول الَّتي عَرَفها التَّاريخ ، وإنَّهم مَدَّنوا أُوربة ثقافـةً وأخلاقـاً ، فـالعُرُوق(٤٥) الَّتي سمت سُمُوّ العرب وهبطت هبوطَهم نادرةٌ ، كالعرب ، عِرْقٌ يَصْلُح ليكون مثالاً بارزاً لتـأثير العوامل الَّتي تُهَيْمِنُ على قيام الدُّول وعظمتها وانحطاطها » ، [صفحة ٧٣٦] .

☆ ☆ ☆



(٤٣) لم يقم العربُ ديناً من أقوى الأديان الَّتي سادت العـالم ، الله أنزلـه وحيـاً على قلب نبيِّـه الكريم محمد بن عبد الله ﷺ ، ونشره العرب دعوةً وجهاداً .

(٤٤) وهو ما يزال أكثر الأديان انتشاراً في العالم ، حسب إحصاءات مكتب انتشار الأديان والعقائد في سويسرا ، لذلك يسمِّيـه الأُوربيُّون : (الـدِّين الزَّاحف) ، على الرَّغم من الجهود الهـائلـة ـ مـالاً ورجالاً ودولاً ـ الَّتي يبذلها التَّبشير في العالم للوقوف في وجه الإسلام وأهله .

(٤٥) أي : النَّوع ، انظر إلى الحاشية رقم : ٢١ في هذا الفصل .

كِتَابُ
حَضَارَةُ العرب
وَصْفٌ وَعَرْضٌ

☆ « ولم يقتصر فضـل العرب في ميـــدان الحضـارة على أنفسهم ، فقـد كان لهم الأثرُ البـالـغ في الشَّرق والغرب ، والمشرقُ والمغرب مدينان لهم في تمـدُّنها ، ولم يتَّفِق لأُمَّة فيهما ما للعرب من النُّفوذ » .

[حضارة العرب ، ص ٢٩] .

ألَّف العلاَّمة الدكتور غوستاف لوبون كتابه القيِّم سنة ١٨٨٤ م ، وترجمه عن الفرنسيَّة الأُستاذ الفاضل عادل زعيتر سنة ١٩٤٥ م .

والكتاب في طبعته العربيَّة (الطَّبعة الثَّالثة[١] : ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩ م) يقع في سبع مئة وأربع وثمانين صفحة من القطع العادي ، ويضمّ مئتين وخمس صور[٢] ، وثلاث خرائط .

---

(١) الطَّبعة الأُولى : ١٣٦٤ هـ ـ ١٩٤٥ م .
الطَّبعة الثَّانية : ١٣٦٧ هـ ـ ١٩٤٨ م .
الطَّبعة الثَّالثة : ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م ، وهي من أجود الطَّبعات ..دار إحياء التُّراث العربي ـ بيروت .

(٢) يذكر لوبون في مقدّمته (الصَّفحة ٥١ من الطَّبعة الثَّالثة ـ العربيَّة) أنَّ في الكتاب ٣٦٠ صورة ، ولعل الأُستاذ زعيتر اختار منها ٢٠٥ صور فقط وزيَّنا هذا الكتاب ببعضها .

مقدِّمة المترجم للطَّبعة الثَّانية من الصَّفحة ٣ إلى الصَّفحة ١٠ ، ومما جاء فيها :

« يظهر هذا الكتاب للعالَم بِدْعاً في درس حضارة العرب درساً شاملاً ، ويبدو خير كتاب عن هذه الحضارة ، وذلك في بابه وروحه ومناحيه ، وقوّة التَّحليل فيه ، ووصول لوبون إلى ما نَشَده فيه من الأهداف الاجتماعيَّة والأدبيَّة والسِّياسيَّة » .

« جاء فيما نُشِرَ في مجلَّة (الرِّسالة) المصريَّة : ظهر كتاب حضارة العرب ، والشَّبيبة العربيَّة حائرة لضعفٍ في إيمانها وعِوَجٍ في تربيتها ، ووهنٍ في ثقافتها ، وعُجْمة في لغتها ، ويأْس من أُمَّتها ، وخجل من ماضيها ، وغموض في حاضرها ، وخوف من مستقبلها ، أجَل ، ظهر هذا الكتاب النَّفيس ليقول بلسان الأجنبي ، لضعيف الإيمان : هذا هو الصَّخر من عَظَمة الأجداد فابْنِ عليه إيمانَك الوطنيَّ الضَّاوي الهزيل ، ويقول لليائس : من كان لأُمَّته مثلُ هذا الماضي المشرق اللاَّمع ، لا يمكن أن يَتَسَرَّب اليأس في قلبه ، إلاَّ إذا كانت قد حقَّت عليه اللَّعنة ، ويقول لِلْخَجِل من أُمَّته الَّذي لا يُحَدِّثك إلاَّ وهو يَخْلِط العربيَّة بألفاظ من لغات متعدِّدة : إنَّك من شعب لم تَعْرِف البشريَّة أنبل منه ولا أشرف ، وليقول للوَجِل من الحاضر والخائف من المستقبل : إنَّ الخوف هو لعنة الحياة ، وإنَّ الشَّكَّ في الانتصار هو الهزيمة العابسة النَّكراء » .

« وجاء فيما نُشِرَ في مجلَّة (اليقظة) الشَّاميَّة : إننا إذا قلنا إن لوبون قد أنصف العرب فلا نكون قد أنصفنا لوبونَ نفسَه ، وأجدر بنا أن نقول : إنَّه الْمِدْرَه[٣] البليغ الَّذي رافع عنهم أمام محكمة التَّاريخ ، والفارس الْمُجَلِّي في حَلْبة

(٣) الْمِدْرَه : الْمُقَدَّم في اللِّسان واليد عند الخصومة والقتال ، المدافعُ الخطيب المتكلِّم ، (اللِّسان : مدر) .

إذاعة فضائلهم ، ففي كلّ فصل من فصول الكتاب ترى لوبون الذّائد الْمُنَافِح الصَّوّال الْجَوّال ... » .

أمّا (مقدّمة المترجم) في الطّبعة الأُولى ، فتقع على الصّفحات من ١١ إلى ٣٦ ، وهي عرض لمضمون الكتاب ومنهجه ، جاء في بدايتها :

« كان من نتائج اصطراع الشّرق والغرب منذ قرون مضت ، وإلقاء العرب الرّعب في قلوب الأوربيين ، أن صار الأوربيّون يشعرون بمذلّة الخضوع للحضارة العربيّة الّتي لم يتحرّروا من سلطانها إلا منذ زمن قريب ، فأخذوا يُنكِرون فضل العرب على أُوربة وتمدينَهم لها ، وأصبح هذا الإنكار من تقاليد مؤرّخي أُوربة وكُتّابها الّذين لم يُقِرُّوا لغير الإغريق والرُّومان بتمدينها ، وساعدهم على ذلك ما عليه العرب والمسلمون من التّأخُّر في الزّمن الأخير ، فلم يشاؤوا أن يَرَوْا للعرب رُقِيّاً تاريخيّاً أعظم مما هم عليه الآن ، غيرَ ناظرين إلى أن نَجْم حضارة العرب أفَل منذ أجيال ، وأنه لا يَصِحُّ اتّخاذ الحال دليلاً على الماضي .

ولم تَخْلُ أُوربة ، مع ذلك ، من مؤرّخين أبصروا ما للعرب من فضل في تمدين أُوربة ، فألّفوا كُتُباً اعترفوا فيها للعرب بما ليس فيه الكفاية .

رَاعَ ذلك الجحودُ العلامةَ الفرنسيَّ الكبير غوستاف لوبون ، وهو الّذي هدته رحلاته في العالم الإسلاميّ ، ومباحثُه الاجتماعيّة إلى أن العرب هم الّذين مَدَّنوا أُوربة ، فرأى أن يبعث عصر العرب الذّهبيّ من مَرْقَده ، وأن يُبْدِيه في صورته الحقيقيّة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، فأخرج في سنة ١٨٨٤ كتابَه (حضارة العرب) ، الّذي نَعْرِض ترجمته على النّاطقين بالضّاد » .

ثمّ عرض الأُستاذ عادل زعيتر فصولَ الكتاب بإسهاب ، وأهمّ النّقاط الّتي أنصف لوبون بها العرب وحضارتهم ، ويختم قائلاً :

« فمن درس كتاب (حضارة العرب) وإنعام النّظر فيه يَتَبيَّن للقارئ أن

العلامة غوستاف لوبون سلك في تأليفه طريقاً جديداً لم يَسْبقه إليه أحد ، وأنه حاول فيه بعث حضارة العرب ، من مَرْقَدها وإظهارَها للملأ على وجهها الصَّحيح .

ولم يَأْلُ العلامة لوبون جهداً في درس حضارة العرب مستنداً إلى أهمّ المؤلّفات التّاريخيّة ، وإلى مشاهداته الشّخصيّة ، فجاء كتابه جامعاً للكثير مما في تاريخ حضارة العرب من العِظات والعِبَر ، وقد أكثر بعض كُتّابنا من الاستشهاد بجُمَل منه عند بحثهم في تاريخ الحضارة ، فصار من الضّروريّ نقلُه بِأَسْره إلى اللُّغة العربيّة .

وهذا الكتاب صحيح المناحي والغايات في مجموعِهِ ، وهو ، كغيره من الكتب المهمة ، لا يخلو من هَفَوات لا تخفى على القارئ ، ولكن هذه الهفوات لا تَحُطُّ من قيمته العظيمة ، وقد أشرت إلى أهمها في هذه المقدّمة » .

لقد أشار الأُستاذ زعيتر إلى نقطتين اثنتين فقط ، وهما :

« لا نعتقد أنّ لوبون أصاب حين ظَنّ أنّ من أُصول الإسلام النّظام الأساسيّ القائِلَ بِجَمْع جميع السُّلطات في يد سَيِّد مطلق ، وحين عزا انحطاط العرب إلى هذا النِّظام الّذي حُمِل به النّاس ، كما ادّعى ، على التّمسُّك بأحكام الماضي الإسلاميّة غيرِ المطابقة لاحتياجاتهم المتحوّلة ، فبعد أن أوضح لوبون أنّ نظام العرب ديمقراطي ، وأن مبدأ المساواة التّامة سادَ الجميع بفضله ، وأن الفقهاء ساروا على المبدأ (لا يُنْكَر تَغَيُّر الأحكام بتغيُّر الأمكنة والأزمان) ، وأن المسلمين في عصر خلفاء بغداد وقرطبة الزّاهر كانوا يعلمون ، بما يأتونه من ضروب الاجتهاد ، كيف يُوَفِّقون بين تلك الأحكام واحتياجات الأُمم الّتي انتحلتها ، كان من الخطأ ذهابه إلى أن نظام الحكم المطلق هو من أُصول الإسلام » [صفحة ١٩] .

والنُّقطة الثّانية الّتي أشار إليها الأُستاذ المترجم ، هي :

« واعترف لـوبـون للعرب بظهــور رجــال عظماء منهم كما تشهـد بـذلـك اكتشافاتهم ، ولكنه أبدى ارتيابه في ظهور عبـاقرة منهم كنيوتن ولايبنتز ، فنَعُـدّ ذلك هَفْوَةً من العلامة لوبون الّذي ذكر في غير موضع أن لافوازيـه مـدين لعلماء العرب في علم الكيمياء ، وأن كيبلر وكوبرنيك مدينان لعلماء العرب في علم الفلك مثلاً ... فإذا كانت الحضارة العامة سلسلةَ حلقات ، وكانت حضارة العرب من أهمِّ تلك الحلقـات ، كان من المتعـذّر ظهورُ نيوتن ولايبنتز وغيرِهمـا من أركان حلقـة الحضارة الحديثة بدونها ، والفضلُ للمتقدِّم » ، [صفحة ٣٤] .

لقـد أحصينـا أكثر من خمسين هَفْوَة وخطـأ في : (حضـارة العرب) ، وهي ذات أهمِّيَّة كبيرة ، خصوصاً فيما تعلَّق منها بـالقرآن الكريم والعقيـدة ، كنّـا نتمنَّى من الأُستاذ زعيتر ، وهو عـالم فـاضل واسع الاطِّلاع ، ولا تفوتـه معرفـة الهفوات والأخطـاء ، أن ينبِّه إليها ، ويحذِّر منها ، فضلاً عن تفنيدهـا ورفضهـا في هوامش الكتـاب .

أمَّـا مقـدِّمــة المـؤلِّف ، فهي على الصَّفحــات من ٣٧ إلى ٥٢ : « وبــالعرب بدأْتُ ، وسبب ذلـك أنَّ حضـارتهم من الحضـارات الَّتي اطَّلَعْتُ عليهـا في رِحلاتي الكثيرة أحسنَ ممـا اطَّلعت على غيرهـا ، وهي من الحضــارات الَّتي كَمُـل دَوْرُهــا وتَجَلَّى فيهـا مختلف العـوامـل الَّتي أوضحنـا سِرَّهـا في ذلـك الكتــاب ، وهي من الحضارات الَّتي نرى الاطِّلاع على تـاريخها مفيـداً إلى الغـايـة وقـد جَهِلـه النَّـاس تقريباً ..

كلَّما أمعنَّـا في درس حضـارة العرب وكتبهم العلميَّـة واختراعــاتهم وفنـونهم ، ظهرت لنا حقائق جديدة وآفاقٌ واسعة ، ولسُرْعـان مـا رأينـا أنَّ العرب أصحـابُ الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين ، وأنَّ جامعات الغرب لم تَعْرِف لها ، مدة خمسة قرون ، مورداً علميـاً سوى مؤلَّفـاتهم ، وأنَّهم الَّـذين مَـدَّنوا أُوربـة

مادّةً وعقلاً وأخلاقاً ، وأنَّ التَّاريخ لم يَعْرِف أُمَّة أنتجت ماأنتجوه في وقت قصير ، وأنَّه لم يَفُقْهم قوم في الابتداع الفنِّي .

وتأثير العرب عظيم في الغرب ، وهو في الشَّرق أشدّ وأقوى ، ولم يَتَّفِق لأُمَّة ماااتَّفق للعرب من النُّفوذ .. الغربُ وليد الشَّرق ، ولا يزال مفتاحُ ماضي الحوادث في الشَّرق ، فعلى العلماء أن يبحثوا عن هذا المفتاح فيه » .

« ونحن إذ نختم هذه المقدِّمة نُلَخِّص بما يأتي المنهاجَ الَّذي اتَّبَعْناه في وضع هذا الكتاب ، والَّذي نتَّبِعه فيما نؤلِّفه من تواريخ الحضارات ، فنقول :

من المبادئ العامَّة : الوجوبُ في وقوع الحوادث التَّاريخيَّة ، والصِّلة الوثيقة بين الحوادث الحاضرة وحوادث الماضي .

ومن موادِّ التَّأليف : آثارُ الشُّعوب الَّتي هي موضوع الدَّرس وتصويرُها تصويراً صادقاً ، ووصفُ العِرْق جسماً وعقلاً ، والبيئةُ الَّتي نشأ فيها العِرْق ، والعواملُ الَّتي خضع لها ، وتحليلٌ لعناصر الحضارة ، أي للنُّظم والمعتقدات والعلوم والآداب والفنون والصِّناعات ، وتاريخٌ لتكوين كلِّ واحد من هذه العناصر .

وإذا أصابنا التَّوفيق في عَرْض صورة واضحة عن العصر الَّذي نرغب في بعثه ، مستعينين بتلك الموادِّ والمبادئ ، فإنَّنا نكون قد نلنا مانتمنى » .

ثمَّ تبدأ مادَّة الكتاب العلميَّة ، وهي ضمن ستَّة أبواب :

☆ الباب الأوَّل : (**البيئة والعرق**) ، من الصَّفحة ٥٣ إلى ١٢٥ ، ويضمُّ هذا الباب ثلاثة فصول :

١ ـ بلاد العرب .
٢ ـ العرب .
٣ ـ العرب قبل ظهور محمد ـ ﷺ ـ

☆ البـاب الثّـاني : (**مصـادر قـوّة العرب**) ، من الصَّفحـة ١٢٧ إلى ١٨٢ ، ويضمُّ هذا الباب ثلاثة فصول أيضاً :

١ ـ محمد ـ ﷺ ـ نشوء الدّولة العربيّة .

٢ ـ القرآن [الكريم] .

وفي هـذين الفَصْلَيْن أكثر الهفَوات والأخطـاء الّتي وقـع فيهـا الـدكتـور لوبون .

٣ ـ فتوح العرب .

☆ الباب الثّالث : (**دولة العرب**) ، من الصَّفحة ١٨٣ إلى ٤١٧ ، ويضمُّ هذا الباب ثمانية فصول :

١ ـ العرب في سورية .

٢ ـ العرب في بغداد .

٣ ـ العرب في بلاد فارس والهند .

٤ ـ حال مصر حين الفتح العربي .

٥ ـ إفريقية الشّماليّة قبل الفتح العربي .

٦ ـ العرب في إسبانية .

٧ ـ العرب في صِقِلّيّة وإيطالية وفرنسة .

٨ ـ اصطراع النّصرانيّة والإسلام ـ الحروب الصّليبيّة .

☆ الباب الرّابع : (**طبائع العرب ونظمهم**) ، من الصَّفحـة ٤١٩ إلى ٥٢١ ، ويضمُّ هذا الباب خمسة فصول :

١ ـ أهل البدو ، وأهل الأرياف من العرب .

٢ ـ عرب المدن ، طبائعهم وعاداتهم .

٣ ـ نظم العرب السّياسيّة والاجتماعيّة .

٤ ـ المرأة في الشَّرق .
٥ ـ الدِّين والأخلاق .

☆ الباب الخامس : (**حضارة العرب**) ، من الصَّفحة ٥٢٣ إلى ٦٩٠ ، ويضمُّ هذا الباب عشرة فصول :

١ ـ مصادر معارف العرب وتعليمهم ومناهجهم .
٢ ـ اللُّغة والفلسفة والآداب والتَّاريخ .
٣ ـ الرِّياضيَّات وعلم الفَلَك .
٤ ـ العلوم الجغرافيّة .
٥ ـ الفيزياء وتطبيقاتها .
٦ ـ العلوم الطَّبيعيَّة والطِّبيَّة .
٧ـ الفنون العربيَّة ، الرَّسم والحفر والفنون الصِّناعيَّة .
٨ ـ فَنُّ عمارة العرب .
٩ ـ تجارة العرب ، صلاتهم بمختلف الأُمم .
١٠ ـ تمدين العرب لأوربة ، تأثيرهم في الشَّرق والغرب .

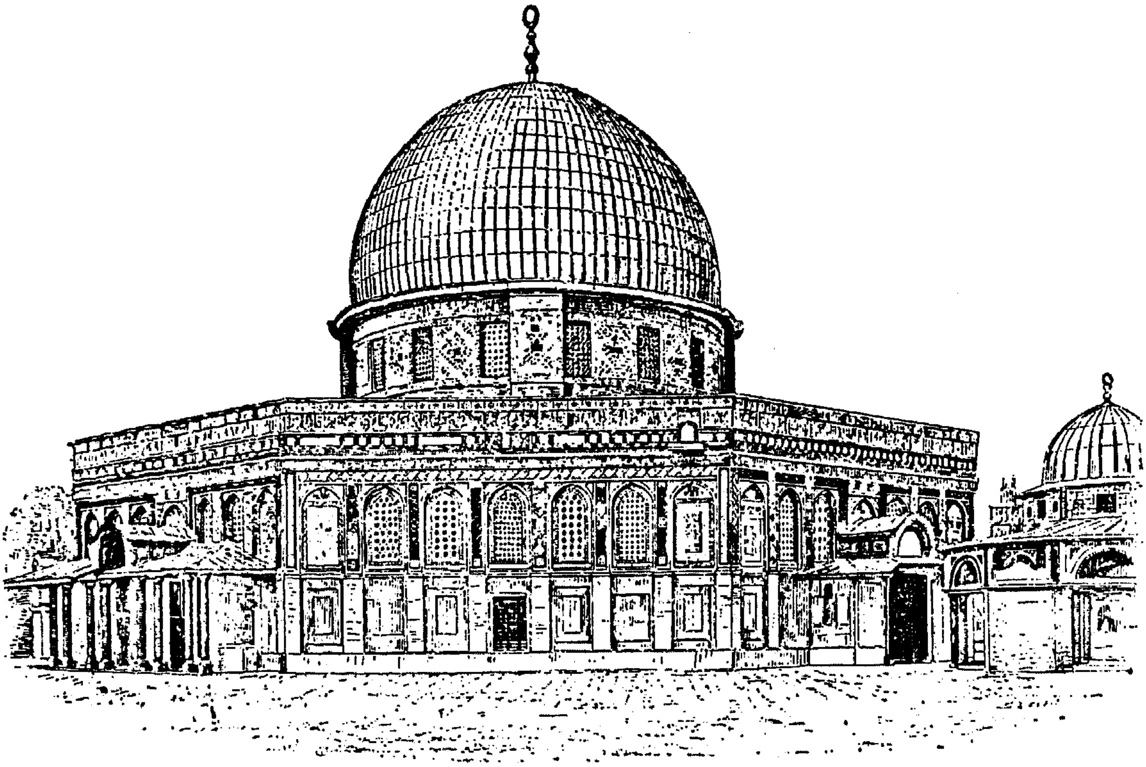
وهذا الفصل العاشر من أجود ماكتب الدكتور لوبون في كتابه : (حضارة العرب) .

☆ البـاب السَّادس : (**انحطاط حضارة العرب**) ، من الصَّفحة ٦٩١ إلى ٧٣٦ ، ويضمُّ هذا الباب فصلين فقط :

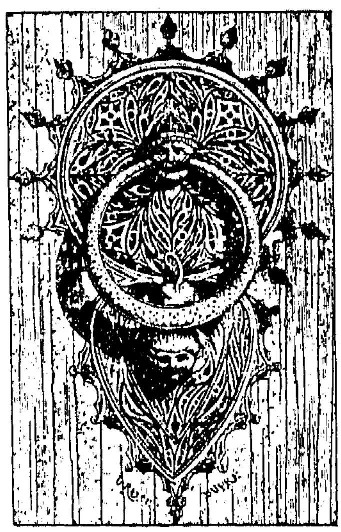
١ ـ ورثة العرب ، تأثير الأُوربيين في الشَّرق .
٢ ـ أسباب عظمة العرب وانحطاطهم (حال الإسلام الحاضرة) .

☆ ثمَّ المصادر والفهارس ، من الصَّفحة ٧٣٧ إلى ٧٨٤

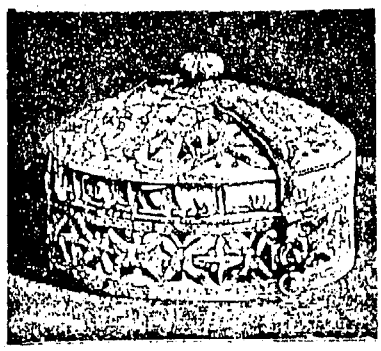
☆ ☆ ☆



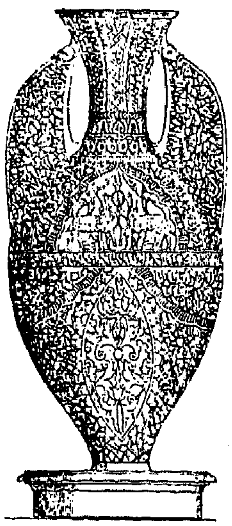
مسجد عمر في القدس (من صورة التقطها المؤلف)



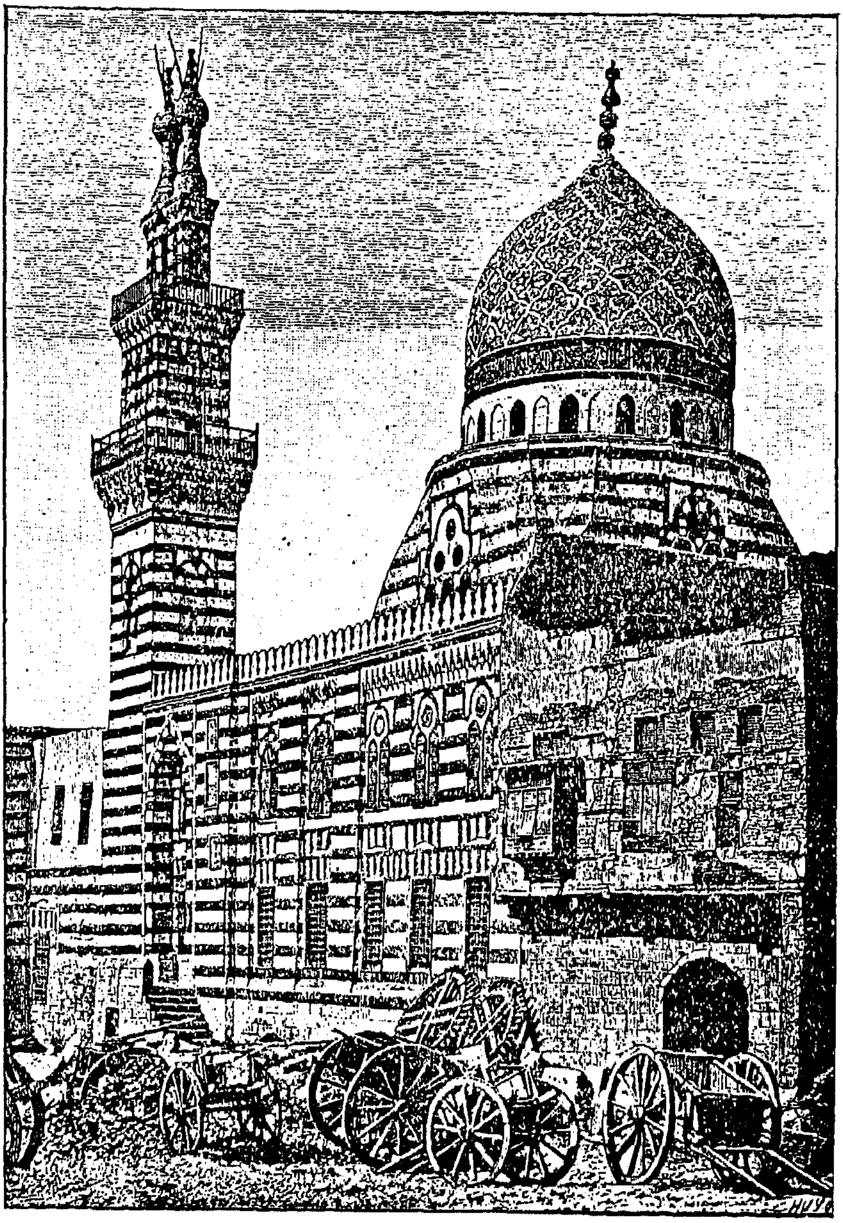
مدق باب كتدرائية طركونة
(طراز إسباني عربي)



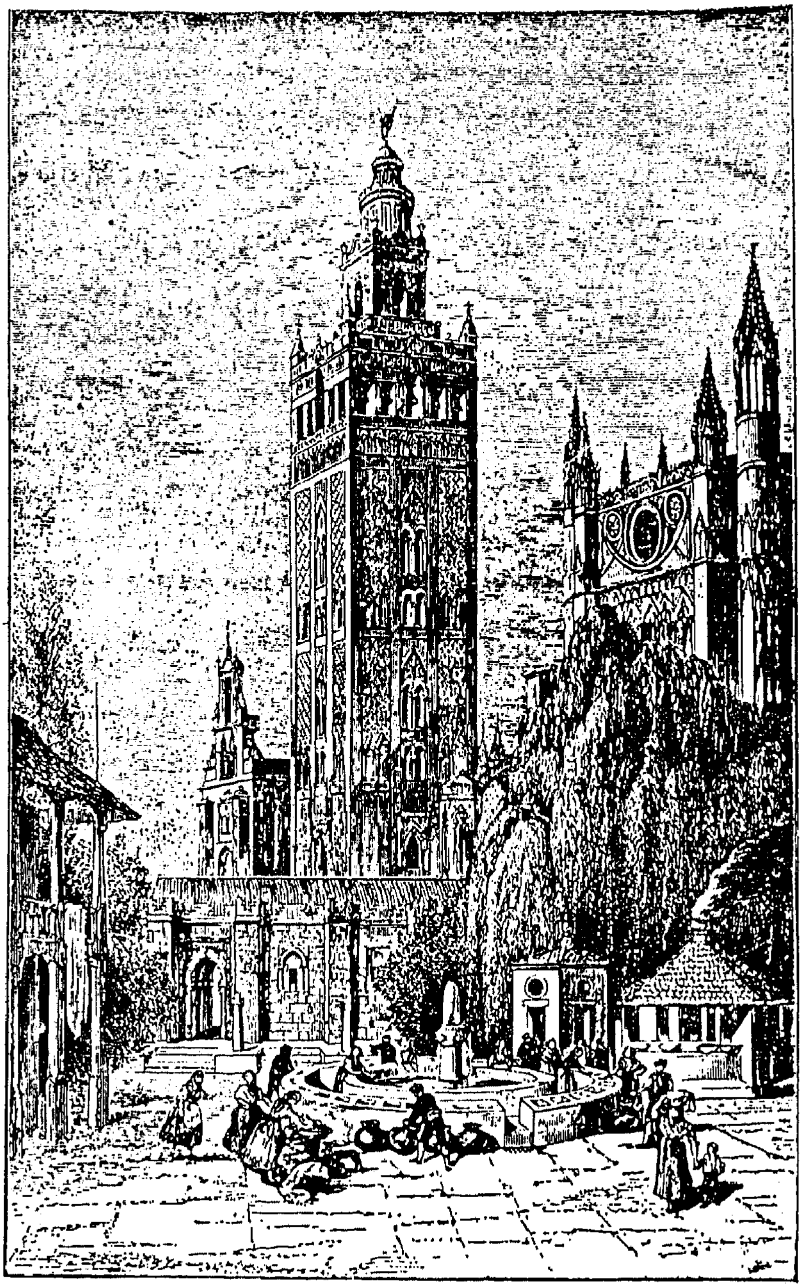
صنـدوق صغير مصنـوع في قرطبـة من العـاج
المرصع ، وذلـك في القرن العـاشر من الميـلاد
(متحف كنسينغتن)
(من صورة فوتوغرافية التقطها شارل رلقا)



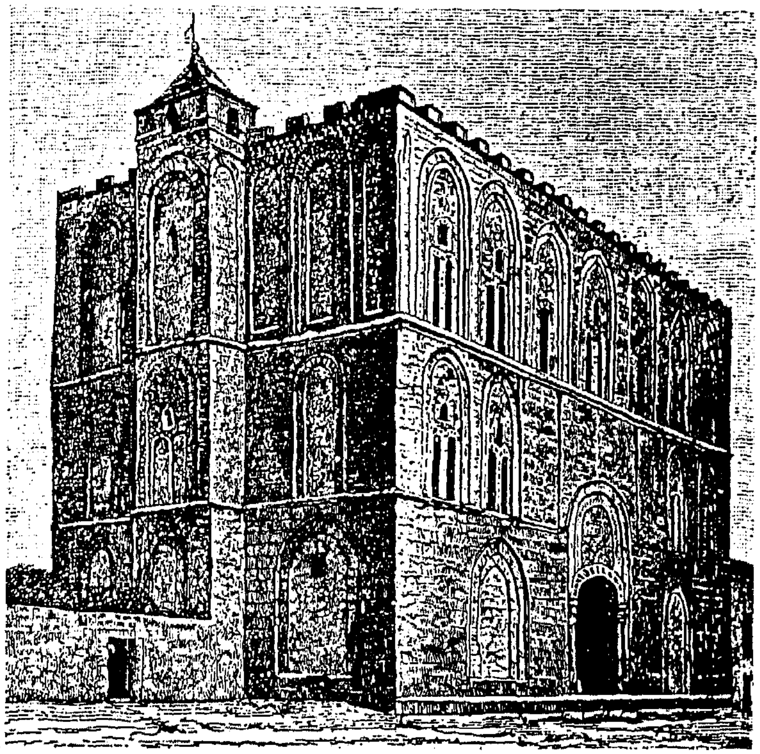
إناء عربي مأخوذ من قصر الحمراء
(كما جاء في صورة قديمة)



مسجد آخور في القاهرة (من صورة فوتوغرافية)



برج لاجيرالده (برج لعبة الهواء) في إشبيلية (من تصوير دوپرانجيه)



مقدم قصر العزيزة العربي في صقلية (من صورة فوتوغرافية)



أبراج عدة كنائس في طليطلة أقيمت تقليداً لمآذن عربية قديمة

الأخْطاءُ والهَفَواتُ

☆ إنَّ حُبَّ غـوسـتــاف لـوبـون للعرب وحضـارتهم مشهـود معروف ، لـذلـك كانت الأخطاء والهفوات الَّتي وقع فيها في كتابه (حضـارة العرب) ناتجة عن حُسْنِ نِيَّـةٍ ، ويبقى كتابه كتـابـاً نفيسـاً رائعـاً ، ذا قيمـة فريدة في موضوعه .

مواقف الدكتور غوستاف لوبون في كتـابـه النَّفيس : (حضـارة العرب) ، لا شكَّ بعيدة عن التَّعصُّب والتَّشنُّج ، وبعيدة عن الحقد والكراهية ، وبعيدة جـدّاً عن الشَّتائم والسُّباب .

وهو من حقِّه أن يقول ما يعتقـد ، ويقرِّر مـا أوصلـه إليـه عِلْمُـه ، ونحن من حقِّنا تنـاول أقوالـه ومـا قرَّره بـالتَّحليل والنَّقـد والـدِّراسـة والتَّعليق والتَّصويب والرَّد ، لأنَّ سكوتنا عن الأخطاء والهفوات والهنات يعني تسليماً ضمنيّـاً بهـا ، وإلاَّ أين تفنيدها إن كانت باطلة ، وأين تصويبها إن كانت خاطئة ؟!

ونحن في هذا الفصل الأهم من هذا الكتاب : (غوستاف لوبون في الميزان) ، سنفصل أخطاء هفوات الدكتور لوبون ، مع تأكيدنا على أنَّـه مـا قـدَّمهـا عن سوء نيّـة ، وبـالتَّـالي لم تصـدر عن خبث طويَّـة ، ولا عن انفعـال أو ضغـط كنسيٍّ ، فحبُّ الرَّجل لحضارتنـا كبير عظيم ، ودفـاعـه عن العرب معروف معلوم ، فحسن النيَّة وصفاؤها وراء عمله النَّفيس : (حضارة العرب) .

ومعظم أخطاء الرَّجل وهفواته مردُّها عدم استيعابه لظاهرة الوحي ، مع عدم إدراكه لبعض الأُمور المتعلِّقة بالعقيدة الإسلاميَّة ، ومع ذلك يبقى كتابه : (حضارة العرب) كتاباً ممتازاً رائعاً في موضوعه .

وبعد ، هذه أخطاء (حضارة العرب) وهفواته ، لاحسب موضوعاتها ، بل حسب تسلسل ورودها على صفحات الكتاب[1] :

- ١ -

يقول الدكتور لوبون عن نبيِّنا الكريم ﷺ :

« حقّاً أنَّ من أعاجيب التَّاريخ أن يُلبِّيَ نداء ذلك **الْمُتَهَوِّس الشَّهير** شعب جامح شديد الشَّكيمة لم يَقْدِر على قهره فاتح ، وأن تنهار أمام اسمه أقوى الدُّول وألاَّ يزال يُمْسِك ، وهو في جَدَثه ، ملايينَ من النَّاس تحت لواء شرعه .

ويجب احترام أعاظم مؤسِّسي الأديان والدُّول ، وإن وَصَفهم العلم الحديث **بذوي الهَوَس** ، وحُقَّ له ذلك ، ففيهم تتجلَّى روح الزَّمن وعبقريَّة القوم ، وبلسانهم تنطق أجيال من الأجداد راقدةٌ في ثنايا العصور ، والخيالاتُ ، وإن كانت كلَّ ما يأتي به هؤلاء المبدعون ، هي الَّتي أوجدت كياننا الحاضر ، ولا تقوم بغيرها حضارة ، ولم يكن التَّاريخ سوى قَصَص للحوادث الَّتي أقام بها الإنسان خيالاً فعبده ثمَّ هدمه » ، [صفحة ٣٩ و ٤٠] .

« **ويجب عَدُّ محمَّد من فصيلة المتهوِّسين** من النَّاحية العلميَّة كأكثر مؤسِّسي الدِّيانات ، ولا كبير أهميَّة لذلك ، فلم يكن ذوو المزاج البارد من المفكِّرين هم الَّذين يُنْشِئون الدِّيانات ويقودون النَّاس ، وإنَّما أُولو الهَوَسِ الَّذين مَثَّلوا هذا الدَّور ، فمتى يُبْحث في عمل المفتونين في العالم يُعْتَرف بأنه عظيم ، فهم الَّذين

(١) إلا إذا كانت مكرَّرة متشابهة ، فإنَّها ترد مع ورودها في المرَّة الأُولى .

أقاموا الأديان ، وهدموا الدُّول ، وأثـاروا الجموع وقـادوا البشر ، ولو كان العقل ، لاالهَوَسُ ، هو الَّذي يسود العالم لكان للتَّاريخ مجرىً آخر » ، [صفحة ١٤٥] .

« وكانت هنالـك أخطـار أُخرى أعظمُ من تلـك تُهَـدِّدُ بخنـق عمـل محمَّـد في مَهْدِه ، فقد ظهر **متهوِّسون** كثيرون هزَّهم ما ناله محمَّد من التَّوفيق فَرَأَوْا أن يَدَّعوا النُّبـوَّةَ أيضـاً ، فـاستطـاع أحـدهم أن يجعـل سكان نصف اليمن من أتبـاعـه[٢] ، ولولا قتلُ بعض المؤمنين[٣] إياه لَخَسِر الإسلام أحسنَ ولايـاتـه ، واقتصر **متهوِّسٌ** آخر على إضـافـة بعض السُّور إلى القرآن[٤] ، وبلغ من النُّفوذ مـا يَقْرُب من نفـوذ الخلفاء الأوَّلين لزمن معين ... » ، [صفحة ١٧٣] .

يستعمل الـدكتور لوبون كلمـات كنّـا نتمنّى ليبقى في مكانـة العـالم المنصف بعيـداً عن استعمالهـا ، من ذلـك كلمـة الهَـوَس[٥] ، وخصـوصـاً حين يتحـدَّث عن الرَّسول العظيم ﷺ ، وذلك أن محمَّـداً ﷺ كان يجـد في إيمـانـه وفي عقيـدتـه وفي رسالتـه ، مـا يحفزه على اقتحـام كلِّ عـائق ، ولم يكن يجـد ذلـك فيما سمّـاه لوبون (هَوَسه) ، ومثل هذه الكلمة تُقال لمن تدور في نفسه وأفكاره أُمور غير واضحـة ، وتظهر بانفعالات مختلفة ، أمَّـا رسول الله ﷺ فمـا عرف في حيـاتـه قبل البعثـة وبعدها إلاَّ باتِّزان ، وحُسْن تفكير ، وبُعْدِ نظر ، ثمَّ جاءه الوحيُ السَّماوي ، فقـام

(٢) يعني الأسود العَنْسِي .

(٣) قتله فيروز الدَّيْلَمي ، قال ﷺ : « إنَّ الله قد قتل الأسود العنسي ، قتله رجل مبارك من أهل بيت مبـاركين ، قتلـه بيـد رجل من إخـوانكم ، وقـوم أسلمـوا وصـدقـوا » ، قيـل : ومن هـو ؟ قال ﷺ : « فيروز ، فـاز فيروز » ، [الطَّبري ٣/٢٣٦ ، الكامل في التَّاريخ ٢/٢٣٠ ، البدايـة والنِّهـايـة ٦/٣١٠] .

(٤) مسيلمة الكذَّاب في اليمامة ، لم يضف شيئاً إلى القرآن مطلقاً ، بل حـاكاه ، فكانت مهزلـة ، سخر منها المسلم وغير المسلم ، [الكامل في التَّاريخ ٢/٢٤٤ ، البداية والنِّهـايـة ٦/٣٢٦ ، الطَّبري ٣/٢٨٤ ، الاكتفـاء ٢/١٦] .

(٥) انظر هَوَس في اللِّسان : طرف من الجنون ، وكذلك القاموس المحيط ، ومختار الصِّحاح ، وأساس البلاغة .

بتأدية رسالته كما أرادها الله تعالى أن تؤدّى ، وامتلأ قلبه تصديقاً بها ، وإيماناً وإخلاصاً في تنفيذها حسب أمر الله له ، فهل يصحّ أو يليق لمؤرّخ منصف أن يكتب عن محمد ﷺ ، صاحب الأثر العميق في أُمّته والبشريّة جمعاء ، كما يكتب عن أُناس دفعتهم أنانيّاتهم وعصبيّاتهم ومطامعهم إلى ادّعاء نبوّة كاذبة ، مثل الأسود العَنَسي ، أو طليحة بن خويلد الأسدي ، أو مسلمة الكذّاب ؟!

إنّ بعض المستشرقين يتحدَّث عن محمد ﷺ وكأنّه يتحدَّث عن بطل مصلح ، أو قائد فاتح ، أو مبدع موهوب ، ويغفلون أو يتغافلون عن (الظاهرة القرآنيَّة) أو عن (الوحي والنبوَّة) ، وعندما يجدون أنفسهم قُبالها يقولون : القرآن تخيُّلات في نوبات صرع[6] ، مع أن المصروعين حافظتهم معطَّلة في نوبات صرعهم ، ومحمَّد ﷺ حافظته أجود ماتكون عند هبوط الوحي ، وهم لا ينكرون الوحي ظاهرةً ، لقد اعترفوا به للأنبياء .

فلا هَوَسٌ ، ولا صَرْعٌ .. ولو نزل القرآن العظيم اليوم ، بعد اكتشافات العلم المذهلة ، مع سبر أغوار الأرض والمحيطات ، والتَّحليق في أعماق الكون ، لما اختلفت نظراته إلى الكون ، أو الحياة ، أو الإنسان ، والمكابرة في هذه الحقيقة ، هي مكابرة في المحسوس الملموس ليس غير .

- ٢ -

ويقول الدكتور لوبون :

« ولا تُفَضَّل مكَّة على المدن العربيَّة الأُخرى بغير نظامها الكبير » ، [صفحة ٦٩] .

« ويقع المعبد الصَّغير ، الكعبة ، في باحة الحرم المكّي » ، [صفحة ٧٠] .

« ولا نعلم نُصُباً كرَّمه النَّاس زمناً طويلاً كالحجر الأسود » ، [صفحة ٧١] .

(٦) وهذا ماادَّعاه : لامانس ، ونولدكه أيضاً .

أوّلاً : عـالم كبير ، نستغرب أن يقع بهذا الخطـأ ، والتّصوُّر الخـاطئ لوضع مكّة ، فلا يرى بأنّها تفضل غيرها من المدن العربيّـة بغير نظـامهـا الكبير ، وربّما كان سبب ذلك أنّه بعيد عن حياة مكّـة الـدِّينيّـة ومكانتهـا بين العرب حتّى قبل الإسلام ، فنسي أنها تفضل أيّة مدينة أُخرى بما عرفته منـذ نشـأتهـا من قيـام أوّل بيت وضع للنّاس لعبادة الله ، وقـد أقـام إبراهيم وإسماعيل قواعـد بيت الله الحرام ـ الكعبـة المشرَّفـة ـ فبقيت ، ومـا تزال ، عبر تـاريخهـا الطّويـل مركـزاً لعبـادة الواحـد ، أي مركزاً للتّـوحيـد ، ثمّ أصبحت قِبْلـة للمسلمين ، ومحجّـاً لهم ، إحيـاءً لعقيـدة التّوحيـد الّتي دعـا إليهـا إبراهيم عليـه الصّلاة والسّلام ، وجـاء محمّـد ﷺ ليؤكّد هذا المعنى ، وهذا الدّور العظيم لمكّة المكرّمة .

ثانياً : ليست الكعبـة معبـداً ، وإنمـا هي بنـاء حجري في وسـط حَرَم ، هو بيت الله الحرام ، أو البيت العتيق ، ولم تكن الكعبـة إلا مركـزاً لـذلـك المعبـد ، يرمز إلى وحدانيّة الله ، يطوف بها المؤمنون لا عبادة لها ، ولا تقديساً لحجارتهـا ، وما نظنُّ عـاقلاً يمكن أن يـدور في خلـده أنَّ الله سبحـانـه وتعـالى أراد تقـديس البيت الحرام لحجارته وجدرانه ، إنّما القدسيّة للأمر الإلهي وحده .

ثالثاً : الحجر الأسود ليس نُصُباً كما تصوَّره لوبون .

النُّصُب : كل ما عُبِدَ من دون الله تعالى ، والجمع أنصـاب ، والنُّصُب : الآلهـة الّتي كانت تعبد من أحجار ، والأنصاب : حجارة كانت حول الكعبة تنصب فَيُهَلُّ عليها ، ويذبح لغير الله تعالى ، [اللّسان : نصب] .

ومن المعلـوم المعروف أنَّ العرب اتّخـذوا آلهتهم في الجـاهليّـة من أشيـاء لا تُحْصى ، ومع ذلـك لم يروا مطلقاً أن الحجر الأسود كان ضمن آلهتهم ، بل كانت له مكانة خاصّة محترمة ، لأنّه من بقايا بناء إبراهيم للكعبة .

فالحجر الأسود ، حجر عادي ، يختلف بلونه عن بقيّة حجارة الكعبة ، لأنّـه

من أُسسها ، جُعِل بداية للطَّواف حولها ، ليستطيع الحاجّ الطَّائف معرفة عدد مرّات الطَّواف ، فتميَّز الحجر الأسود عن بقيَّة حجارة الكعبة ، واعتبر مركزاً لتنظيم الطَّواف ، وبقي الحجر الوحيد الَّذي لم يتغيَّر مكانه كلما أُعيد بناء الكعبة أو إصلاحها .

وقف عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه يوماً أمام الحجر الأسود ، وقال : « إنِّي أعلم أنَّك حجر لا تضرُّ ولا تنفع ، ولولا أنَّني رأيت رسول الله ﷺ يقبِّلك ماقبَّلتك » .

فاستلام الحجر الأسود في الحجِّ لا يرجع إلى تقديس الحجر ذاته ، إنَّما يرجع إلى اعتبار رمزي تاريخي .

- ٣ -

« وكان من دواعي الفخر عند العرب تزيين الكعبة الَّتي كان اليهود شديدي التَّعظيم لها أيضاً » ، [صفحة ١٢٤][٧] .

لا ندري من أيِّ المصادر اقتبس مؤرِّخنا (غوستاف لوبون) خبر تعظيم اليهود للكعبة ، وما عرفنا مطلقاً في تاريخ اليهود ، وفي تاريخ الكعبة ، أيَّة صلة ، أو علاقة بينهما ، ولم يكن لليهود عبر تاريخ ديانتهم أيَّة عبادة أو تقديس أو تعظيم للكعبة ، حتّى توراتهم[٨] عندما ذكرت إبراهيم وهاجر وإسماعيل ، لم تذكر أيَّ كلمة عن الكعبة أو تقديسها .

---

(٧) ويذكر في هذه الصَّفحة ذاتها [١٢٤] ، أنَّ إبراهيم ذبح ابنه إسحاق ، والصَّواب : إسماعيل ، كما جاء في القرآن الكريم ، الَّذي ثبت علميًا أنَّ كلّ مافيه ، أحداث وظواهر ، حقيقة لا يدنو منها شكٌّ أو ريب مطلقا .

(٨) سفر التّكوين ، الفصل ١١ وما بعده .

لقد اقتصر تاريخ الكعبة على علاقة بينها وبين إبراهيم عليه السَّلام : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ☆ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ☆ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ، [البقرة ١٢٧/٢ ـ ١٢٩] .

ثمَّ جدَّد هذه العلاقة القائمة على عبادة الله وتوحيده ، النَّبيُّ محمَّد ﷺ ، وليس لليهود أيَّة حيلة من قريب أو من بعيد بالكعبة .

أمَّا إن كان لوبون يشير بقوله : « الَّتي كان اليهود شديدي التَّعظيم لها أيضاً » ، إلى جمعٍ من رجالاتهم ، منهم سيِّدهم حُيَيّ بن أَخْطَب النَّضري ، وعظيمهم سلام بن مشكم ، ورئيسهم كنانة بن أبي الْحُقَيْق ، وهَوْذَة بن قيس الوائلي .. حين قدموا مكَّة على قريش ، يدعونهم ويحرِّضونهم على حرب رسول الله ﷺ ، وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتَّى نستأصله .

فقال أبو سفيان : مرحباً وأهلاً ، وأحبُّ النَّاس إلينا من أعاننا على عداوة محمَّد ، وقال : لكن لا نأمنكم إلا إن سجدتم لآلهتنا حتَّى نطمئنَّ إليكم ، ففعلوا(٩) .

إذا كان لوبون يشير إلى هذه الحادثة ، فقد أخطأ الدَّلالة ، فالحادثة تدلّ على سجود وفد اليهود ـ وهذا يخالف عقيدتهم كُلِّيّاً ـ للأصنام ، لا اعتقاداً بها ، ولا تعظيماً للكعبة حيث هذه الأصنام ، بل حقداً على الإسلام وأهله ، ورجاء أن يحقِّقوا ما جاؤوا من أجله ، ألا وهو تأليب قريش والقبائل العربيَّة على النَّبي ﷺ ، والسَّير إلى المدينة المنوَّرة لاستئصاله كما زعموا .

(٩) كانت هذه الحادثة عندما جاء اليهود يحرِّضون قريشاً على قتال النَّبيِّ ﷺ ، ونجحوا في جمع القبائل (الأحزاب) سنة ٥ هـ الَّتي أطبقت على المدينة المنوَّرة تريد استئصال الإسلام والمسلمين .

- ٤ -

« والحقُّ أن وقت جمع العرب على دين واحد كان قد حان ، وهـذا مـاعرفـه محمَّد ، وفي الوجه الَّذي عرفه فيه سِرُّ قوَّته ، وهو الَّذي لم يفكِّر قطّ في إقـامـة دين جديد خلافاً لما يقال أحياناً ، وهو الَّذي أنبأ النَّاس بأنَّ الإله الواحد هو إله بـاني الكعبة ، أي إله إبراهيم ، الَّذي كان العرب يُجِلُّونه ويعظِّمونه .

وعلائم اتِّجاه العرب أيَّام ظهور محمَّد إلى الوحدة السِّياسيَّة والـدِّينيَّـة كثيرة ، فما حـدث من الثَّوْرِ بـالأوثـان في عهـد قيـاصرة الرُّومـان ، حـدث مثلـه في بلاد العرب ، حيث ضعفت المعتقدات القديمة ، وفقدت الأصنام نفوذهـا ، ودبَّ الهرم في آلهتها ، والآلهة مما يجب أن يهرم » ، [صفحة ١٢٤] .

إنَّ سِرَّ قوَّة محمَّد ﷺ ليس في معرفتـه بـأن وقت جمع العرب على دين واحـد كان قد حان ، وإنَّما سِرُّ قوَّته في إيمانه بصدق ماأُوحي إليه مستمـدّاً تلـك القوّة من الله ، الَّذي امتلأ قلب محمَّد ﷺ إيماناً به ، وتسليماً لإرادته ، وتنفيذاً لتعاليمه .

وإن الدِّين الجديد لم يفكِّر محمَّد - ﷺ - بإقامته أو إقامة غيره ، بل مـافكَّر أثناء تحنُّثه في غار حراء إلاَّ بأن تلك الأوثان والأصنام ، ماهي إلاَّ حجارة لاتضرُّ ولا تنفـع ، لاتضرُّ إن تُرِكَت ، ولا تنفـع إن عُبِـدت ، في غـار حراء « كان محمَّـد - ﷺ - في حالة بُحْران ، فكان ينشد السُّكون في تلـك الجبـال الَّتي كان يـذهب فيخلو فيها بنفسه متأمِّلاً في السَّماء ذات الكواكب ، مُنصتاً إلى مـا كان يسمعـه من أعمق أعماق قلبه ، وهو الرَّجل الأُمِّي الفطري الصَّادق ، وذلـك الصَّوت هو صوت الحقيقة الأبديَّة ، الخارج من قلب الأشياء نفسها ، إنَّه كان يرى تلـك الأشيـاء في عصره على غير استقامة ، وقـد كان هو لا يطيق غير الحقّ ، والحقّ الَّـذي لاجـدال فيه ، وكان لا يقدر أن يعيش إلاَّ في علم الحقيقة ، وكان يرى أن كلَّ مـا حولـه من الأحوال لم يكن بحق ، فالحياة الَّتي عليها قريش لم تكن حيـاة صحيحـة : متموِّلين

يبعثون بقوافل للتِّجارة ، ويربحون أرباحاً فاحشة ، وبوادٍ يشنُّون الغارات ، ولا يعرفون إلاَّ الفوضى ، وأفَّاقون يفعلون كلَّ ما يخطر ببالهم ، وكلٌّ هؤلاء لا يحيون حياة صحيحة ، وينسون أن الأصنام المصفوفة في الكعبة ، ليست إلاَّ معبودات باطلة ، وإن الهُبَل ذا اللِّحية الكبيرة لم يكن إلاَّ باطلاً »(١٠) ، ثمَّ جاءه ﷺ الوحيُ يحمل إليه رسالة الله الواحد ، تلك العقيدة الَّتي كان قد دعا إليها أبو الأنبياء إبراهيم عليه السَّلام .

أمَّا ما يذكره لوبون ، من أن العرب اتَّجهوا قبل ظهور محمَّد ﷺ إلى وحدة سياسيَّة ودينيَّة ، وثورة منهم على الأوثان ، وأن الأصنام فقدت نفوذها ، فربَّما كان العكس هو الأصح ، فقد كان العرب في حال من التَّجزئة السِّياسيَّة والقبليَّة يندر مثيلها ، كما كانت الكثرة منهم على تمسُّك بأصنامهم وأوثانهم ، ومن كان على شيء من الوعي قال عنها : ﴿ ألا لله الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إلى اللهِ زُلْفَى إنَّ الله يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ في مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إنَّ الله لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزُّمر ٣/٣٩] .

فأين لَمَسَ لوبون بوادر الوحدة السِّياسيَّة والدِّينيَّة ؟

وأين رأى أو قرأ بوادر الكفر بالأصنام والأوثان لدى عامَّة عرب الجزيرة ، وقد قامت قريش ـ والقبائل معها ـ تقاتل محمَّداً ﷺ بكلِّ قواها ، وبكلِّ ما يمكن من تعبئته وحشده ، لأنَّه سفَّه أحلامهم الَّتي تعبد أصناماً ، وتركع أمام أنصاب ، وتذبح لأوثان ؟

لقد وصل الأمر ببعض قبائلهم إلى الإيمان بنبوَّة محمَّد ﷺ ، ودعوته الجديدة ، على أن يترك لهم صنماً يعبدونه ، أو وثناً يقدِّسونه .

---

(١٠) حاضر العالم الإسلامي ٤٧/١

« وتقول القصَّة إن محمَّداً سافر مرَّة مع عمِّه إلى سوريَّة ، فتعرَّف في بُصْرى براهب نسطوري في دير نصراني ، فتلقَّى منه علم التَّوراة » ، [صفحة ١٣٠] .

« وتهيَّأ له - ﷺ - بذلك السَّفر إلى سوريَّة والاجتماع مرَّة ثانية بالرَّاهب الَّذي أطلعه سابقاً على علم التَّوراة ... » ، [صفحة ١٣٠ أيضاً] .

ليت الكاتب الكبير غوستاف لوبون ، لم ينزلق إلى مهاوي المستشرقين الَّذين لم يحكِّموا المنطق والعقل والتَّاريخ عندما ألَّفوا - أو لفَّقوا - هذه الشُّبهة ، ليته تحرَّى الحقيقة قبل أن يسجِّل تلك العبارات الَّتي تقول بأنَّ محمَّداً ﷺ تعرَّف في بُصْرى على راهب نصراني ، وتلقَّى منه علم التَّوراة .

ونحنُ نتمنَّى له ذلك ليبقى في مستوىً علميٍّ رفيع ، ولكي لا يهبط إلى مستوى المستشرقين المبشِّرين الَّذين لم يتجرَّدوا عن عواطفهم وبيئتهم ونزعاتهم المختلفة ، ولم يتخلَّوا عن الأفكار المسبقة ، والَّذين أُصيبوا - عن قصد وتصميم - بداء الأحكام المسبقة ، هذا الدَّاء الَّذي استعصى شفاؤه على كبار النَّطاسيين الحكماء ، رغم جهودهم العلميَّة المضنية .

فلو تحرَّى (لوبون) الحقيقة ، لعرف أنَّ محمَّداً ﷺ حين رافق عمَّه أبا طالب ، كان ولداً صغيراً لاتسمح سِنُّه بتلقِّي كتاب سماوي كبير هو التَّوراة ، ولم يكن هذا اللِّقاء إلاَّ لقاءً عابراً ، والقصَّة كانت بين الرَّاهب بَحيرى وأبي طالب ، وبوجود رجال القافلة القرشيِّين ، وما دام (لوبون) يتحدَّث عن القصَّة ويقرُّ بها ، فعليه أن يؤمن بنبوَّة محمَّد بن عبد الله بن عبد المطَّلب - ﷺ -، لأنَّ تلك الرِّواية تقول إن الرَّاهب بَحيرى عرف في ذلك الولد الصَّغير - محمَّد ﷺ - علامات النُّبوَّة ، وحذَّر عمَّه من كيد يهود ، فهل نأخذ جزءاً من الرِّواية ، ونترك جزءاً آخر ؟

وتقول القصّة هنا : إنّه - ﷺ - تلقّى منـه علم التّوراة ، فلماذا لم يتلقّ منه الإنجيل ، خصوصاً وأنّ الرّاهب نَصراني نسطوري[11] ؟ فلماذا قصرت الرّواية قولها على التّوراة ؟

والأمر الآخر ، لوأنّه ﷺ تلقّى علم التّوراة من بَحِيرى في بُصْرى ، لجاء في القرآن الكريم الكثير الكثير مما يخالف العلم الحديث ، كما هي الحال بالنّسبة للتّوراة ، حسب الدّراسات الحديثة المستفيضة ، ومنها مانجده في كتاب الدكتور موريس بوكاي : (دراسة الكتب المقدّسة في ضوء المعارف الحديثة) ، علماً بأنّ الكشوف العلميّة الحديثة تكشف كلّ فترة وأُخرى عن صحّة اللّفتات العلميّة الكونيّة والطّبيّة .. الّتي وردت في القرآن الكريم ، كلّ ذلك يدلّ على أنّ القرآن الكريم كتابُ الله الْمُنْزَل على محمّد ﷺ ، وليس من عند بَشَر .

(فتلقّى منه علم التّوراة) ، تزييف يدلّ على ماكان لليهود من يدٍ في اختلاقه ، وصياغته ، بالشّكل الّذي يناسب مصالحهم ، ويحقّق أغراضهم ، ويظهر هذا التّزييف اليهودي أكثر في اللّعب بروايات التّاريخ في العبارة التّالية ، الّتي أوردها (لوبون) في الصّفحة ذاتها ، والّتي تقول : إنّ محمّداً ﷺ تهيّأ له لقاء الرّاهب مرّة أُخرى في سفره إلى سوريّة ، وهذه دسيسة أُخرى ، حيث تجمع روايات التّاريخ الّتي جاءت على ذكر تفاصيل سيرة محمّد ﷺ ، على أنّه لم يقم بزيارة إلى بلاد الشّام بعد زيارته الأُولى وهو صغير مع عمّه ، إلاّ بزيارة واحدة فقط ، وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، بتجارة للسّيّدة خديجة بنت خويلد ، وكان يرافقه فيها (ميسرة) أحد غلمانها ، ولم يذكر في هذه الرّحلة الّتي

---

(١١) النّساطرة : ينسبون إلى نِسطور Nestorius [نحو ٣٨٠ - ٤٥١ م] ، بطريرك القسطنطينيّة سنة ٤٢٨ م ، قال بأُقنومَيْن في السّيّد المسيح ، وأنكر على مريم لقب أم الله ، حرمه مجمع افسوس سنة ٤٣١ م ، يقيم النّساطرة في العراق ومنهم طائفة تقيم في الهند وإيران ، [محاضرات في النّصرانيّة ، ص ١٥٦] .

استغرقت أيّاماً ، أيّ شيء عن لقاء جديد مع هذا الرّاهب ، لأنّه لقي وجه ربّه منذ سنوات ، وأضحت عظامه في الثّرى رمياً .

ولنفرض جدلاً ـ لا حقيقة ـ أنّه لقيه لساعات ، فهل أعطاه خلالها رسالة أكثر مما عنده ؟ وهل بقيت تلك الرّسالة ، أو العلوم ، كامنة خمسة عشر عاماً ، لتظهر بعد ذلك على شكل رسالة جديدة ، تختلف اختلافاً كبيراً بتشريعاتها الدّينيّة والاجتماعيّة والسّياسيّة والاقتصاديّة ، عن تلك الّتي كان يدعو لها ذلك الرّاهب النّسطوري وأمثاله ؟

وأين نجد اللّقاء بين ما كان عند بَحيرى وأمثاله من خلافات حول طبيعة المسيح عليه السّلام ، وبين ما جاء في رسالة محمّد ﷺ عن المسيح عليه السّلام ، وعن كونه عبد الله ورسوله ؟ وأين هي تعاليم الإسلام وتشريعاته في جوانب الحياة المختلفة ممّا كان عند أصحاب التّوراة والإنجيل ؟

يقول (كارادوفو)[١٢] عن قصّة بَحيرى الرّاهب : خرافة ، وكيف لا تكون خرافة القصّةُ الّتي تجعل بحيرى الرّاهب الأعجميَّ ينطق بمثل القرآن ـ الكريم ـ الّذي عجزت عنه مصاقع[١٣] خطباء العرب ، وفحول شعرائهم أفصح وأبلغ ما كانوا .

ومما يثبت خرافة : فتلقّى محمّد ﷺ من بَحيرى الرّاهب علم التّوراة ، النّقاط المختصرة التّالية[١٤] :

---

(١٢) مفكّرو الإسلام ، [حاضر العالم الإسلامي ٤٠/١] .

(١٣) المِصْقَعُ : البليغ الماهر في خطبته ، والصَّقعُ : البلاغة في الكلام والوقوع على المعاني ، [اللّسان : صقع] .

(١٤) لأنا عالجنا الأمر بشكل مفصّل في كتاب : (الإسلام في قفص الاتّهام) .

١ ـ لماذا لم يجمع بحيرى قومه الرُّوم من حوله ، بعد أن يَدَّعي هذه العلوم الَّتي قدَّمها لمحمَّد ﷺ ، فيغلب من سواهم ؟

٢ ـ وهل بَحِيرى رئيس أكاديميَّة لتخريج أنبياء ، وكتب معجزة ؟

٣ ـ ولماذا لم يخرِّج عشرات الأنبياء ، واكتفى بواحد فقط ؟

٤ ـ زمن الزيارة قصير جداً ، وحجم القرآن الكريم كبير ، فلو اختار بحيرى شاباً قارئاً متعلِّماً لتسهل المهمة المزعومة !!

٥ ـ وما العلاقة بين محمَّد ﷺ وبحيرى ؟ ما نوعها ؟ ومتى بدأت ؟ ولِمَ اختار بحيرى غلاماً من مكَّة ؟

٦ ـ لقد كان رجالات القافلة القرشيُّون خلال اللِّقاء ، فلو أعطاه (علم التَّوراة) ، لقالوا ذلك لقريش خاصَّة ، والعرب عامَّة ، عندما أعلن ﷺ نبوَّته !!

٧ ـ وأحداث ما بعد الهجرة ، هذا السَّيل المزدحم من الأحداث ، أين بحيرى منها ؟

٨ ـ والإعجاز الغيبي والعلمي الَّذي نراه في القرآن الكريم ، فوق طاقة البشر وقدرتهم .

٩ ـ ومن أين لأعجمي كبحيرى هذا الإعجاز اللُّغوي ؟

١٠ ـ والتَّحدي قائم لكلِّ البشر ، وفي كلِّ زمان ومكان ، والباحث عن (هويَّة النَّص القرآني) ، علمياً وفكرياً ، وبتجرُّد وموضوعيَّة ، بعيداً عن : (داء الأحكام المسبقة) ، يجد نفسه أمام نصٍّ موحى ، إلهيٍّ سماويٍّ ، نزل على قلب المصطفى محمَّد بن عبد الله ﷺ .

ويجد الباحث في هذه القصّة ، أن بحيرى هو المستفيد الأوّل والأخير من لقائه بحمّد ﷺ ، فلولا هذا اللّقاء ، لاندثر اسمه كما اندثرت أسماء ألوف الرُّهبان من قبله ، ومن بعده .

هذا ... وإرجاع القرآن الكريم إلى عناصر يهوديّة أو نصرانيّة أمر قديم جديد ، قاله كثيرون من المستشرقين ، وردّده كلّ المبشّرين .

قاله جولدتسهير : « فتبشير النّبي العربي ليس إلاّ مزيجاً منتخباً من معارف وآراء دينيّة ، عرفها بفضل اتّصاله بالعناصر اليهوديّة والمسيحيّة الّتي تأثّر بها تأثُّراً عميقاً .. »(١٥) .

وتكلّم بلاشير عن التّشابه مع القصص اليهودي والمسيحي(١٦) .

وقرّره فيليب أرلنجي : كان محمّد في المدينة تلميذاً لليهود ، وهم الّذين كوّنوه(١٧) ..

وقاله يوليوس فلهاوزن ، والأب لامانس ، والدكتور بروز أستاذ الفقه الإنجيلي في جامعة بيل ، وسيديو : « أُلهِمَ محمّد المبادئ اليهوديّة والنّصرانيّة فأقام ديناً بعيداً عن الخوارق .. »(١٨) .

أمّا شاخت في كتابه : (أُصول الشّريعة المحمديّة) The Origins of Muhammdom Jurisprudence فقد صاغ نظريّة عن أُصول الشّريعة (المحمديّة) ، حاول خلاله أن يقتلع جذور الشّريعة الإسلاميّة ، ويقضي على تاريخ التّشريع الإسلامي قضاءً تاماً ، وظنّ المستشرقون أنّ شاخت جاء

---

(١٥) مناهج المستشرقين ٣١/١

(١٦) المرجع السّابق ٣١/١ أيضاً .

(١٧) المرجع السّابق ٣٢/١

(١٨) تاريخ العرب ٥٨ ، ط٢ ، سنة ١٩٦٩ م .

بما لا يأتيه الباطل ، وأنّه قدّم نظريّة غير قابلة للدّحض في إطارها الواسع(١٩) ، حتّى إنّهم لم يسمحوا لطالب في جامعة لندن ، ولا في جامعة كمبردج ، اللّتين ترفعان لواء الحريّة والتّجرّد في البحث العلمي ، أن يجعل موضوع أطروحته دراسة نقديّة لكتاب شاخت : (أصول الشّريعة المحمّديّة)(٢٠) !!

ومن المضحكات في هذا الصّدد :

اكتشاف كليمان هوار(٢١) مصدراً جديداً للقرآن الكريم ، إنّه شِعْرُ أُميّة بن أبي الصّلت(٢٢) !؟! الّذي عاش في صدر الإسلام ، وتوفي بعد الهجرة متأثّراً بما سمع من القرآن الكريم .

وصدور كتاب عن جامعة كمبردج ، تحت عنوان : (الهاجِريّة ، وتكوين العالم الإسلامي) : [Hagariem , The Making of the Islamic World] ، بقلم باتريشيا كرون ، وميكل كول ، ومما جاء فيه :

---

(١٩) وصف (جوزيف شاخت) علماء المسلمين كافة في كتابه المذكور ، وخلال القرون الثلاثة الأولى من الهجرة ، بأنّهم كانوا كذّابين ملفّقين غير أمناء .

(٢٠) مناهج المستشرقين ٦٨/١

(٢١) المرجع السّابق ٣٢/١

(٢٢) أُميّة بن عبد الله أبي الصّلت بن أبي ربيعة بن عوف الثّقفي [ت ٥ هـ = ٦٢٦ م] شاعر جاهلي حكيم ، من أهل الطّائف ، كان مطّلعاً على الكتب القديمة ، يلبس المسوح تعبُّداً ، وهو ممّن حرّموا على أنفسهم الخمر ونبذوا عبادة الأوثان في الجاهليّة ، ورحل إلى البحرين فأقام ثماني سنين ظهر في أثنائها الإسلام ، وعاد إلى الطّائف ، فسأل عن خبر محمّد بن عبد الله ﷺ فقيل له : يزعم أنّه نبيٌّ ، فخرج حتّى قدم عليه بمكّة وسمع منه آيات من القرآن الكريم ، وانصرف عنه ، فتبعته قريش تسأله عن رأيه فيه ، فقال : أشهد أنّه على الحقّ ، قالوا : فهل تتّبعه ؟ فقال : حتّى أنظر في أمره ، وخرج إلى الشّام ، وهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وحدثت وقعة بدر الكبرى ، وعاد أميّة من الشّام يريد الإسلام ، فعلم بمقتل أهل بدر وفيهم ابنا خال له ، فامتنع ، وأقام في الطّائف إلى أن مات .

وهو أوّل من جعل في أوّل الكتب : بأسمك اللّهم ، فكتبتها قريش ، [الأعلام ٢٣/٢] .

الإسلام دين وضعي ، أُسِّست قواعده في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان[٢٣] ، أمَّا ما كان قبل ذلك ، فقد كان شيئاً اسمه (الهاجريَّة) ، الهاجريَّة هي عبارة عن كلام كتبه ذيبوس(!) يقول فيه إنّ النَّبيَّ محمَّد بشَّر بدين يُعَدُّ استكمالاً للدِّيانة الهاجريَّة ، وأنَّ هذا الاسم ينسب إلى السَّيِّدة هاجر زوجة إبراهيم ، وأُمِّ إسماعيل .

ويصل التَّضليل والافتراء ، بل والكذب والدَّجل ، بالكاتِبَيْن إلى حَدِّ التَّشكيك بلاسندٍ أو دليل ، في حدوث الهجرة النَّبويَّة ، ويقولان : إنَّ اسم هاجر هذا تمَّ تحريره بعد ذلك ، في القرن الثَّامن الميلادي ، ليعطي معنى الهجرة من مكَّة إلى المدينة ، وهي واقعة يُشكِّك فيها الباحثان (العظيمان) ، ويحاولان الادِّعاء بأنَّ الهجرة النَّبويَّة إلى يثرب لم تحدث قط .

ويقولان : إنَّ مصادرنا ليست مصادر يهوديَّة ، وهذا النَّفي وحده يكفينا ، يكاد المريب أن يقول خذوني ، ويقولان : مصادرنا قِبْطِيَّة وأرمنيَّة وسُرْيانيَّة مجهولة ، أهملها المؤرِّخون .

وليس أدلُّ على ضلال هذه الوجهة وكذبها ، من أنَّ هذه المصادر لو كانت موجودة فعلاً ، لنشروها ، وقد نشروا ما هو أتفه منها ، ألم نقل إنَّها من المضحكات !!

إنَّ حديث المستشرقين عن إسلام مسيحي أو يهودي ، أمر ينقضه البحث المجرَّد ، ويردُّه الَّذين أسلموا من الطَّرفين ، فلو لم يَرَ هؤلاء أنَّ الإسلام دين

---

(٢٣) عبد الملك بن مروان [٢٦ ـ ٨٦ هـ = ٦٤٦ ـ ٧٠٥ م] ، انتقلت إليه الخلافة بموت أبيه سنة ٦٥ هـ ، فكان شديداً على معانديه ، قويَّ الهيبة ، نُقِلَت في أيَّامه الدَّواوين من الفارسيَّة والرُّوميَّة إلى العربيَّة ، وضبطت الحروف بالنِّقاط والحركات ، وهو أوَّل من صكَّ الدَّنانير في الإسلام ، [الأعلام ١٦٥/٤] .

جديد ، نظرته إلى الكون والحياة والإنسان تختلف عن نظرة المسيحيَّة واليهوديَّة لما اعتنقوه(٢٤) ، وهم من الذين شهد لهم النَّاس برجاحة عقلهم ، وعمق فلسفتهم .

فلئن كان هدف موسى عليه السَّلام حرِّيَّة قوم ، دون الالتفات إلى البشريَّة(٢٥) .

وهدف عيسى عليه السَّلام إلقاء المواعظ في المحبَّة .

فإنَّ هدف محمَّد ﷺ شيء آخر ، لا تستقيم الحرِّيَّة بدونه ، ولا تتمُّ المحبَّة ، ولا أي خلق كريم آخر من غيره ، لقد كان هدف المصطفى ﷺ إطلاق العقل من عقاله ، وتنمية سلطانه ، حتَّى يبلغ حدّ الكمال في حبِّه للحقيقة ، وفي بحثه عنها ، وفي اتِّباعه لها ، وفي نشره إيَّاها ، بما يحقِّق السَّعادة والطمأنينة للإنسانيَّة جمعاء ، وإن فتَّش الإسلام عن قاضٍ ليحكم بمصدره الإلهي ، فإلى العقل مرجعه ، وإذا حاجَّ فبحكم العقل ، وإذا سخط فعلى معطِّلي العقل ، وإذا رضي فعن أُولي العقل .

- ٦ -

« ولم يخبرنا التَّاريخ عن مسيرة محمَّد في السَّنوات الخمس عشرة ، الَّتي انقضت بعد زواجه بخديجة ، ويفترض ، وإن لم يقم دليل على ذلك أنَّه كان يفكِّر في أثنائها في مبادئ دينه الَّذي سيكون زعيمه ، ولم يَبْدُ منه في تلك السَّنوات أيُّ نفور من عبادات العرب مع ذلك ، كما أنَّه لم يقع فيها ما يدلُّ على تفكيره في قلب تلك العبادات رأساً على عَقِب » ، [صفحة ١٣١] .

---

(٢٤) الحوادث التَّاريخيَّة يجب أن تكون خطوطها الرَّئيسة متشابهة ، كخلق آدم ، وخروج بني إسرائيل ..

(٢٥) حتَّى إلههم (يهوه) إله محلِّي خاص باليهود فقط ، وهم الصَّفوة ، والعالم كلُّه مسخَّر لهم .

إنّ تناقضاً واضحاً وقع به (لوبون) في المقطع السَّابق ، حيث يقول : إنَّ محمَّداً ﷺ كان يفكِّر في أثنائها ، أثناء السَّنوات الخمس عشرة الَّتي انقضت بعد زواجه من خديجة ، في مبادئ دينه الَّذي سيكون زعيمه ، ثمَّ يقول : إنَّه لم يقم فيها ما يدلُّ على تفكير في قلب تلك العبادات رأساً على عقب .

فإن افترضنا قبول ما يقول ، فكيف يفكِّر محمَّد ﷺ في إقامة دين على أُسس الوحدانيَّة ، وعدم الشِّرك بالله تعالى ، ثمَّ نقبل أنَّ هذا التَّفكير لا يقلب عبادات مجتمعة رأْساً على عقب ، فالوحدانيَّة لله الخالق العظيم ، لا تتَّفق أبداً مع عبادة الأصنام والأوثان ، الَّتي كان عليها عرب ما قبل الإسلام .

وليس صحيحاً أنَّ الأخبار عن سيرة محمَّد ﷺ في السَّنوات الخمس عشرة الَّتي انقضت بعد زواجه من خديجة غير متوفِّرة ، فلو عاد (لوبون) إلى المصادر الَّتي أخذ منها أخبار محمَّد ﷺ قبل هذه الفترة وبعدها ، لوجد فيها أخباره ﷺ دون انقطاع ، وكان على (لوبون) ألاَّ ينسى أنّ النَّبيَّ ﷺ بعد زواجه من خديجة ، تهيَّأ من مالها ما جعله أكثر تفرُّغاً للتَّحنُّث في غار حراء ، بعيداً عن صخب مكة ، هذه المدينة الصَّاخبة دينيّاً وتجاريّاً ، وفي غار حراء كانت العناية الإلهيَّة تهيئ محمَّداً ﷺ لحمله رسالة السَّماء إلى النَّاس كافَّة ، كما حمل قبله موسى عليه السَّلام رسالة السَّماء إلى قومه ، وكما حمل عيسى عليه السَّلام أيضاً رسالة السَّماء إلى قومه ، فهل نقول إن العناية والقدرة الإلهيَّة تجلَّت لموسى وعيسى عليهما السَّلام ، ونؤمن بذلك ، ثمَّ نرفض ما يشبه ذلك لمحمَّد ﷺ ؟!

ألا يكفي دليلاً على تفكير محمَّد ﷺ بخطأ عبادات قومه ، وإنكاره لها ، أنَّه ما سجد قبل بعثته لصنمٍ أو وثن ؟

لقد اتَّفقت الأخبار على أنَّ محمَّداً ﷺ كان في الدَّرجة العُلْيا من شرف النَّفس ، وكان يلقَّب (بالأمين) ، أي الرَّجل الثِّقة المعتمد عليه إلى أقصى درجات الثِّقة ، أي إنَّه المثل الأعلى في الاستقامة .

وفي مكّــة استمرّ الأمين ﷺ بتجــارتـــه مــع شركاء منهم السّـــائب بن أبي السّائب[٢٦] .

ولم ينقطع ﷺ عن قومه في أعمالهم الجماعيّة ، وكان يحضر دار النّـدوة ، جـاء وفد من اليمن ، ورأى فيه كبارهم ـ بدار النّدوة ـ نظرات قويّة أحياناً ، وهـادئـة مستبشرة أحياناً أُخرى ، فقـال أحـدهم : مـالي أرى هـذا الغلام تـارة ينظر إليكم بعيني لبؤة ، وأُخرى بعيني عذراء خفرة[٢٧] ، والله لوأنّ نظرته الأُولى كانت سهاماً لانتظمت أفئـدتكم فـؤاداً فـؤاداً ، ولـو أنّ نظرتـه الثّـانيـة كانت نسيـاً لأنشرت أمواتكم .

لقـد عـاش ﷺ أحـداث قومـه وبيئتـه كلّهـا ، ولم يكن (الأمين) نكرة في مجتمعه الّـذي وُلـد وشبّ فيـه ، وأخبـاره في كتب السّيرة متوفّرة للبـاحث عنهـا ، ومـا درست سيرة رجل في العـالم كما درست سيرتـه ﷺ ، حتّى في دقـائق الأُمور وتفاصيلها ، من الولادة إلى الوفاة .

ـ ٧ ـ

« كان محمّـد يقـابل ضروب الأذى والتّعـذيب بـالصّبر وسعـة الصّـدر ، وكان يجتذب ببلاغته في كلّ يوم أصحاباً آخرين » ، [صفحة ١٣٣] .

لم يكن محمّد ﷺ يجتـذب ببلاغتـه النّـاس ، بل كان يجتـذب ببلاغـة القرآن الكريم ، وسحر بيان القرآن الكريم ، وفصاحة آيات القرآن الكريم ، وروعتها .

---

(٢٦) السّـائب بن أبي السّـائب ، شريـك النّبيّ ﷺ قبل المبعث بمكّـة ، قـال عنـه ﷺ : « نعم الشّريك ، كان لا يُشَاري ولا يُمَاري » ، أسلم وحَسُنَ إسلامه ، [أُسد الغابة ٣١٥/٢] ، والمشـاراة : اللّجاج والمجادلة بالباطل .

(٢٧) الخفر : شدّة الحياء ، [اللّسان : خفر] .

ولو كان الأمر « اجتذاب ببلاغة بَشَر » لقدر عليه الكثير من فصحاء العرب وخطبائهم ، لكن التَّحدِّي جاء من قبل من لا يستطيع أحد من مخلوقاته أن يقف أمام تحدِّيه ، إنَّه الله قيُّوم السَّموات والأرض ، الَّذي بعث محمَّداً بالحقِّ ، وأنطقة بآيات القرآن الكريم ، فكان وما يزال ، المعجزة الخالدة لنبوَّة محمد بن عبد الله ﷺ :

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ☆ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا - وَلَنْ تَفْعَلُوا - فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ، [البقرة ٢/٢٣ - ٢٤] .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ ☆ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ ، [الطُّور ٥٢/٣٣ - ٣٤] .

وأين بلاغته ﷺ قبل البعثة ؟ ولماذا لم يجتذب بها أهل مكّة ؟

إنَّه اجتذب العربَ بالقرآن الكريم ، ولو كان القرآن من كلام محمَّد ﷺ لكان أُسلوبه وأُسلوب الأحاديث سواء ، ومن المُسَلَّم به لدى أهل البصر الأدبي ، والباع الطَّويل في اللُّغة ، أنَّه من المتعذِّر على الشَّخص الواحد أن يكون له في بيانه أُسلوبان يختلف أحدهما عن الآخر اختلافاً جذرياً .

وكان كبراء قريش يجذبهم القرآن الكريم لاستماعه ، وإن لم يؤمنوا ، لقد سمعه الوليد بن المغيرة(٢٨) ، فقال لقريش في وصفه : إنَّ له لحلاوة ، وإنّ عليه

(٢٨) الوليد بن المغيرة [٩٥ ق . هـ - ١ هـ = ٥٣٠ - ٦٢٢ م] : من قضاة العرب في الجاهليَّة ، ومن زعماء قريش . يُقال له (العدل) لأنَّه كان عدل قريش كلّها ، كانت قريش تكسو البيت جميعها ، والوليد يكسوه وحده ، وكان ممن حرّم الخمر في الجاهليَّة ، أدرك الإسلام وهو شيخ هرم ، فعاداه وقاوم دعوته ، قال ابن الأثير : وهو الّذي جمع قريشاً وقال : إنَّ النَّاس يأتونكم أيَّام الحجِّ ، فيسألونكم عن محمَّد ، فتختلف أقوالكم فيه ، فيقول هذا : كاهن ، ويقول هذا : =

لطلاوة ، وإنّ أعلاه لمثمر ، وإنّ أسفله لمغدق[٢٩] ، وإنّه ليعلو ولا يعلى عليه ، ما يقول هذا بَشَر ، وهو الّذي جمع قريشاً وقال : إنّ النّاس يأتونكم أيّام الحج ، فيسألونكم عن محمّد ، فتختلف أقوالكم فيه ، فيقول هذا : كاهن ، ويقول هذا : شاعر ، ويقول هذا : مجنون ، وليس يشبه واحداً مما يقولون ، ولكن أصلح ماقيل فيه : « ساحر » ، لأنّه يفرّق بين المرء وأخيه ، والزّوج وزوجته[٣٠] .

لقد نفى الوليد بن المغيرة أن يكون القرآن شعراً ، ودفعته لجاجته في الإنكار إلى أن يقول إنه سحر ، وإن لم يرضَ بذلك الوصف للقرآن ابتداءً .

وضِمَاد بن ثعلبة الأزديّ . كان رجلاً يتطبَّب ويَرْقي ، سمع سفهاء من أهل مكّة يقولون : إنّ محمّداً مجنون ، فقال : لو رأيتُ هذا الرّجل لعلّ الله أن يشفيه على يَدَيَّ ، فلقيه فقال : يامحمّد ، إنّي أرقي من هذه الرّيح ، وإن الله يشفي على يدي من شاء ، فهل لكَ ؟

فقال النّبيُّ ﷺ : إنّ الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ومن يَهْدِ الله فلا مُضِلَّ له ، ومن يُضْلِل فلا هاديَ له ، وأشهد أن لاإله إلا الله ، وحدَه لاشريك له ، وأنّ محمّداً عبده ورسوله ، أما بعد .. فقال : أعِدْ عليَّ كلماتك هؤلاء ، فأعادَهُنَّ النّبيُّ ﷺ ثلاثاً ، فقال ضماد : والله لقد سمعت قول الكهنة ، وسمعت قول السَّحرة ، وسمعت قول الشُّعراء ، فما سمعت مثلَ هولاء الكلمات ، والله لقد بلغت

= شاعر ، ويقول هذا : مجنون ، وليس يشبه واحداً ممّا يقولون ، ولكن أصلح ماقيل فيه : « ساحر » ، لأنّه يفرّق بين المرء وأخيه ، والزّوج وزوجته ، مات بعد الهجرة بثلاثة أشهر ، ودفن بالحجون ، وهو والد سيف الله خالد بن الوليد .

(٢٩) بغدق : الغَدَق : المطر الكثير العام ، وغَدِقت الأرض غَدَقاً وأغْدَقَت : أخصبت ، [اللّسان : غدق] .

(٣٠) ابن الأثير ٢٦/٢ ، اليعقوبي ٢١٥/١

فَاعُوس[٣١] البحر ، فَمُدَّ يدك أُبايعك على الإسلام ، فَمَدَّ النَّبيُّ ﷺ يده فبايعه ، فقال النَّبيُّ ﷺ : وعلى قومك ؟ فقال : وعلى قومي[٣٢] .

لقد كان ضِمَاد بن ثعلبة الأزدي يعرف محمَّداً ﷺ ، وسمع منه الكثير قبل النُّبوَّة ، ولكنه لم يقل : « فمدّ يدك أُبايعك » ، ولكنّه عندما ضمَّن ﷺ في حديثه لضِمَاد جزءاً من آية من كتاب الله : ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ... ﴾ ، [الإسراء ٩٧/١٧] ، قال لمحمد ﷺ : « فمدّ يدكَ أُبايعك على الإسلام » ، وهو الَّذي سمع قول الكهنة ، وسمع قول السَّحرة ، وسمع قول الشُّعراء .

لقد سمع ضِمَاد بلاغة القرآن الكريم وإعجازه اللُّغوي الفريد .

- ٨ -

« اغتنم محمَّد موسم الحجِّ فدعا إلى دينه أُناساً من اليمن ، كانوا ينظرون إلى مكة بعين الغَيْرة ، فينتظرون ، كما كان شائعاً بينهم ، ظهور نبي ، فاستهواهم حديث النَّبيِّ فاعتقدوا هو النَّبي المنتظر ، فحدَّثوا بذلك أهل يثرب الَّتي كانت تأكلها الغَيْرة من مكَّة أيضاً ... » ، [صفحة ١٣٤] .

نعم كان محمَّد ﷺ يغتنم مواسم الحجّ ، لدعوة النَّاس إلى دينه ، والإيمان بنبوَّته ، والتَّسليم بوجود إله واحد لا إله غيره ، وكان يدعو إلى ذلك كلَّ من يصادفه من حجَّاج جزيرة العرب ، الَّذين يقصدون مكَّة ، من أهل اليمن أو من غيرهم ، لكن الَّذين لقيهم فاستهواهم حديثه لم يكونوا أُناساً من اليمن ، إنَّما هم من أهل يثرب ، الَّذين تعود أُصولهم البعيدة إلى اليمن ، إلاَّ أنَّهم كانوا في تلك الفترة من قبائل يثرب ، أي من الأوس والخزرج .

(٣١) فاعوس البحر : وسطه .

(٣٢) أسد الغابة ٥٦/٣

نعم لقد وقف ﷺ على منـازل العرب في موسم الحج ، ودعـاهم إلى الإسلام ، وعرضَ نفسه لكلِّ قادم إلى مكَّة ، يتصدَّى له ، ويدعو إلى الله تعالى .

ونتسـاءل : لمـاذا لم يجـد (لـوبـون) سبباً لإقبـال أهـل يثرب على اعتنـاق الإسلام ، إلاَّ غيرتهم من مكَّة ؟! ألا يمكن أن يردَّ عليه : بأنَّ هـذا السَّبب وحـده كان يومئذٍ كافياً لعدم إيمانهم بمحمد ﷺ . لِمَا كان للعصبيَّة القبليَّة من آثار عميقة في نفوسهم ، فكيف يقبلون أن يزعِّمـوا ويملِّكـوا عليهم رجـلاً من قبيلـة يحقـدون عليها ، ويغارون منها ؟

ولو بحثنـا عن الأسبـاب الحقيقيَّـة ، والَّتي دعت أهل يثرب إلى بيعـة العقبـة الأُولى والثَّانية ، وإلى الإيمان بنبوَّة محَّد ﷺ وصدق دعوته ، لوجـدنـا أنَّهم أبنـاء مدينة سمعوا فيها الكثير عن ديانات سماويَّة ، وعن الله الَّذي يبعثُ أنبيـاءً ورسلاً لهداية النَّاس ، بل وسمعوا من أصحاب تلك الدِّيانات وكتبها عن قرب ظهور نبيٍّ آخر الزَّمان .

لقـد كان أهل يثرب أهل شرك ، وكان اليهود معهم في بلادهم أهـل كتـاب ، وكان اليهود يقولون لأهل المدينة إذا كان بينهم شيء : إنَّ نبيّاً مبعوث الآن ، قـد أظلَّ زمانه ، فنتَّبعه فنقتلكم معه قتل عـاد وإرم[٣٣] ، فلمَّـا كلَّم ﷺ أهل يثرب ، ودعاهم إلى الله ، قال بعضهم لبعض : ياقوم ، تعلمون والله إنَّه النَّبيُّ الَّـذي توعَّـدكم به يهود ، فلا تسبقنّكم إليه ، فأجابوه فيما دعـاهم إليـه ، بـأن صـدَّقوا ، وقبلوا منـه ما عرض عليهم من الإسلام .

كما وجد أهل يثرب ، فيما دعاهم إليه محَّد ﷺ ، مـا يوحِّـد صفوفهم ، وينهي خلافاً طويلاً بينهم ، وغير ذلك من عوامل الهداية والإيمان .

---

(٣٣) عيون الأثر ١٥٥/٢ ، ابن هشام ٥٤/٢ ، الكامل في التَّاريخ ٦٧/٢ ، الطَّبري ٣٥٥/٢

وبالمناسبة : أرسل ﷺ مصعب بن عمير إلى يثرب ، نتيجة لبيعة العقبة الأولى[٣٤] ، فجمع الأوس والخزرج بنفسه ، فكانت العقبة الثّانية[٣٥] في الموسم التّالي لبيعة العقبة الأُولى ، وهي أخطر بيعة في تاريخ الدَّعوة الإسلاميَّة ، لقد فاجأت قريشاً ، فعلمت أنَّ الأمر أُفلت من يدها ، بعد أن بايع الأنصارُ النَّبيَّ ﷺ : « أنا منكم وأنتم منّي ، أُحاربُ من حاربتم ، وأُسالم من سالمتم » .

فَلِمَ كانت هذه الاستجابة الرَّائعة والسَّريعة من أهل يثرب ؟

ولِمَ أسلم في يثرب خلال عامين أكثر ممَّا أسلم في مكَّة خلال ثلاث عشرة سنة ؟

١ ـ اختلاف البيئة والمناخ بين مكَّة ويثرب ، تركا أثراً كبيراً واضحاً ـ آنذاك ـ على طبائع السُّكان في كلتا المدينتين ، فعُرِفَ أهلُ مكَّة بالشِّدَّة والصَّلابة في طبائعهم ، وبالقسوة والجفاف في معاملاتهم ، في حين عُرِفَ أهل يثرب بلين الجانب ؛ وحسن المعاملة .

كما أنَّ قريشاً جنت فوائد ماليَّة ومعنويَّة عظيمة ، بسبب وجود أصنام العرب حول الكعبة ، فظنَّت أن مكانتها ستزول إن زالت الأصنام وحلَّ التَّوحيد في ربوع مكَّة وما حولها .

٢ ـ وعقليَّة الأوس والخزرج كانت مهيّأة لظهور نبيٍّ آخر الزَّمان .

٣ ـ ووجد الأوس والخزرج في شخص محمَّد ﷺ بغيتهم المنشودة في القضاء على التَّنازع فيما بينهم ، خصوصاً وأُمُّه ﷺ من بني النجّار أحد بطون الخزرج .

---

(٣٤) وهي بيعة النِّساء ، كان فيها ١٢ رجلاً ، سُمِّيت ببيعة النِّساء لوجود عفراء بنت عبيد بن ثعلبة بها ، وهي أوَّل امرأة بايعت .

(٣٥) وهي بيعة الحرب ، كان فيها ٧٢ رجلاً وامرأتان : نسيبة بنت كعب ، وأسماء بنت عمرو بن عدي .

« توالت الوقائع بين محمّد وجيرانه ، وكانت كلُّ مصيبة تصيبه يعقبها انتصار له في الغالب ، وكان يبدو رابط الجأش إذا ماهُزِمَ ، ومعتدلاً إذا مانُصِر ، وهو لم يَقْسُ على أعدائه إلاَّ مرَّة واحدة ، حين أمر بأن تُضْرَب رقابُ سبع مئة يهودي خانوه » ، [صفحة ١٣٥] .

من أين أتى (لوبون) بهذا الحكم : « وكانت كلُّ مصيبة تصيبه يعقبها انتصار له في الغالب » ؟ فهل كانت الأُمور مرتَّبة إلى هذا الحدّ ؟

لقد عدت بذاكرتي إلى أحداث السِّيرة الشَّريفة ، فلم أجد أثراً لهذا الحكم الَّذي يشوِّه الحقائق ، ولا يسيء ، إنْ صحَّ ، إلى الرَّسول الكريم ﷺ .

ولا نجد غير هزيمة المسلمين في غزوة أُحُد ، إذا اعتبرناها هزيمة[٣٦] ، مصيبة أو هزيمة ، وكلُّ ماعداها نجاح وانتصار ، نتيجة لسياسةٍ كان محمَّد ﷺ يشرف على وضع خطوطها ، وتنفيذ مراحلها ، ترافقه عناية إلهيَّة تؤكِّد صدق نبوَّته ، وقوَّة إيمانه .

ولو استعرضنا غزوات الرَّسول ﷺ ، ومواقفه المهمّة ابتداءً من غزوة بدر الكبرى ، حتَّى غزوة تبوك ، لما وجدنا إلاَّ سلسلة من الانتصارات تتلاحق ، لم يرافقها لدى صاحبها ﷺ أي غرور .

أمَّا قول (لوبون) بأنَّ محمَّداً ﷺ لم يقسُ على أعدائه إلاَّ مرَّة واحدة حين أمر بقتل سبع مئة من اليهود خانوه ، ويقصد بهم يهود بني قريظة ، فهو قول مرفوض ، فرسول الله ﷺ لم يكن قاسياً حتَّى في موقفه هذا .

(٣٦) لم تحقِّق قريش ماأرادت في أُحُد ، لم تفتح طريق تجارتها إلى الشَّام ، ولم تنه دعوة الإسلام ، إلاَّ أنَّها ثأرت لقتلاها في بدر .

غزوة بني قريظة قصاص عادل لخيانة علنيَّة ، مع نقض معاهدة موقَّعة تعهَّدوا بموجبها دعم المسلمين ، إذا داهمهم عدو : « وإنَّ بينهم النَّصر على من حارب أهل هذه الصَّحيفة ، وإن بينهم النُّصح والنَّصيحة ، والبرّ دون الإثم .. »[٣٧] ، فانحازوا إلى جانب العدو ، عندما رأوْا عشرة آلاف مقاتل حول المدينة المنوَّرة ، فظنُّوا أنَّ الأمر قد انتهى ، واستؤصل المسلمون عن آخرهم .

فقصاص بني قريظة ، يتناسب مع ضخامة الْجُرْم ، وعندما حاصرهم ﷺ في صياصيهم[٣٨] ، وحَكَمَ فيهم سعدُ بن معاذ رضي الله عنه لم يسأل بنو قريظة رسولَ الله والمسلمين : لماذا هذا الحصار ؟ ولماذا هذه الحرب ؟ وبالتَّالي : لماذا هذا القصاص ، وهذا العقاب ؟

والجواب على هذا التَّساؤل في عبارة واحدة موجزة قصيرة : إنَّهم أدرى بما صنعوا[٣٩] !؟ فأيُّ قسوة يتحدَّث عنها (لوبون) ؟!

- ١٠ -

« عَظُم شأن محمَّد في عدَّة سنوات ، وأصبح لابُدَّ له من فتح مكَّة حتَّى يَعُمّ نفوذه ، فرأى أنْ يفاوض قبل امتشاق الحسام وصولاً إلى هذا الغرض ، فجاء إلى البلد المقدَّس ومعه ألف وأربع مئة من أصحابه ، فلم يُكْتَب له دخوله » ، [صفحة ١٣٥] .

---

(٣٧) ابن هشام ١٠٧/٢

(٣٨) الحصون وكلُّ شيء امتنع به ، وتحصَّن به فهو صيصة ، [اللِّسان : صاص] .

(٣٩) ونحن هنا لن نعود إلى حكم التَّوراة (العجيب) عندما يمتلك اليهود مدينة أو قوماً ، ولكن على سبيل المثال ، جاء في سفر التَّثنية ١٥/١٣ و ١٦ : « .. فضرباً تضربُ سكَّان تلك المدينة بحدّ السَّيف ، وتُحرِّقُها بكلِّ مافيها مع بهائمها بحدّ السَّيف ، تجمع كلّ أمتعتها إلى وسط ساحتها وتُحرق بالنَّار الدينة وكلّ أمتعتها كاملة للرَّبِّ إلهك فتكون تلاًّ إلى الأبد لاتُبْنَى بَعْدُ .. » .

النَّبيُّ الكريم ﷺ لا يسعى إلى مدِّ نفوذه ، وليس غرضه أن يكون له نفوذ شخصي .

ولو عدنا إلى الحوادث التَّاريخيَّة الَّتي سبقت فتح مكَّة ، لتأكَّد لنا ذلك بوضوح ، فالفتح بالقوَّة ، واستعمال السِّلاح ، كان آخر ما يلجأ إليه رسول الله ﷺ ، وعودة بنا إلى صلح الْحُدَيْبيَة ، ودراسة بنوده ، توضِّح لنا ذلك ، كما تثبت لنا حكمة محمَّد ﷺ ، ونجاح سياسته القائمة على فتح القلوب ، قبل فتح الحصون والأسوار والمدن .

في جوِّ الحروب ، وسقوط الضَّحايا ، لاتنتشر المبادئ ، لتنافر القلوب ، وتعصُّب النُّفوس ، وتشنُّجها ، أمام هذا الواقع ، سعى ﷺ إلى تهيئة الجوِّ المناسب لنشر الإسلام ، فمدّ يده ﷺ إلى قريش مظهراً منتهى الحنكة السِّياسيَّة ، مع منتهى المرونة والتَّسامح ، وكسب ﷺ الرَّأي العام ، عندما خرج باتِّجاه مكَّة ، وقد ساق الهَدْي ، ليثبت للعرب كافَّة تعظيمه للبيت الحرام ، مؤكِّداً لهم أنَّ مكَّة ستبقى على مكانتها الَّتي نالتها من وجود الكعبة المشرَّفة فيها .

لقد سار ﷺ ومن معه يريد مكَّة للعمرة ، وقريش هنا أمام خيارَيْن لاثالث لهما : إمَّا أن تمنعهم ، وإمَّا أن تسمح لهم بدخول مكَّة ، فإن منعت قريشُ رسولَ الله ﷺ من دخول مكَّة ، كشف النَّبيُّ ﷺ موقفها العدائي ، مثبتاً أنّ جوَّ الحرب ليس من صنعه ﷺ ، بل هو من صنع قريش ومن معها .

وإن دخلها ﷺ ، فإنَّه سيلتقي بأهل مكَّة ، وسيحادثهم المسلمون المعتَمِرون ، مما سيبدِّد جوَّ التَّوتُّر ويزيله بين الفريقين ، ودخول مكَّة يعني أيضاً تحقيق انتصار سياسي كبير ، فدخوله ﷺ مكَّة يعني عودته إلى حيث أُخْرِج على الرَّغم من قريش .

وفي كلا الحالين ، سيكسب ﷺ الجولة على قريش ، فلا بُدَّ من الحيلولة

بينــه وبين دخــول مكّــة بــأيٍّ ثمن ، ولــو كانت الحرب في الأشهر الْحُرُم[٤٠] ، ولو تحرَّج موقفها أمام القبائل بصدِّها عن البيت العتيق مَنْ جاءه معظِّماً محترماً .

أرسلت قريش سهيل بن عمرو رئيساً لوفدها المفاوض ، وكانت تعليماتها إليـه واضحة : ائتِ محمَّداً وصالِحْهُ ، يرجع عنَّا عامه هـذا ، وإنَّـه إذا كان عـام قـابل ، خرجنا منها ، ودخلها بأصحابه ثلاثة أيَّام مع سلاح الرَّاكب .

واتَّفق الطَّرفان على وضع الحرب عن النَّاس عشر سنين يَـأْمن فيهـا النَّـاس ، ويكف بعضهم عن بعض ، وشرطوا أنَّه من أحبَّ أن يدخل في عقـد محمَّـد وعهـده دخل فيه ، ومن أحبَّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

ولما انتهى تحرير الصُّلح ، دخلت خزاعة في عقـد رسول الله ﷺ ، ودخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم .

« إنَّ وضـوح الرؤيـا في الابتــداء ، حقَّـق الهـدفَ في الانتهــاء » ، فصلح الحـديبيـة اعتراف رسمي مُوَقَّع من قريش ، بـأنَّ رسول الله ﷺ ومن معـه ، قوّة مستقلّة متميِّزة ، ونظير قريش زعيمة القبـائل ، وهـذا يعني أيضـاً ، أمـام كلِّ قوى جـزيرة العرب ، أنَّ قريشـاً قـد اعترفت رسميّـاً بمن كانت تريــد استئصـالــه ، مما جعل القبائل العربيَّة تعيد حساباتها .

وأثمر صلح الحـديبيـة بـأسرع ممـا كان متوقَّعـاً ، وبـأعجب ممـا كان يتصوَّره إنسان[٤١] ، لذلك خرقت قريش بنود الصُّلح عندمـا حرَّضت بكراً على خزاعـة ،

(٤٠) الْحُدَيْبِيَة في ذي القعدة ٦ هـ .

(٤١) قال أبو بكر رضي الله عنه : « ماكان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية » ، وقال محمد بن سعد الزُّهري في صلح الحديبية : « فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه ، إنّما كان القتـال حيث التقى النَّاس ، فلما كانت الهـدنـة ووضعت الحرب ، وأمِنَ النَّـاس بعضهم بعضـاً ، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، فلم يُكَلَّم أحدٌ بالإسلام يفعل شيئاً إلا دخل فيـه ، ولقـد دخل تينـك السَّنَتَيْن مثـل مـاكان في الإسـلام قبـل ذلـك أو أكثر » ، [ابن هشـام ٢٠٦/٣ ، البـدايـة والنهاية ١٧٠/٤ ، الطَّبري ٧٩/٣] .

فأصبح لابُدَّ من فتح مكَّة لينهي أكبر معقل من معاقل ، الوثنيَّة ، وليعيد البيت الحرام كما كان عند تأسيسه ، رمزاً للتَّوحيد كما بناه إبراهيم وإسماعيل ، وكما أراده الله الواحد الأحد .

- ١١ -

« رأى محمَّد بعد ذلك الإخفاق[٤٢] أنْ يُرَوِّح أصحابه ، فخفَّ بهم إلى مدينة خيبر المحصَّنة المهمة الواقعة في شمال المدينة الغربي ، والبعيدة منها مسيرة خمسة أيَّام ، والَّتي كان يقطن فيها قبائل يهوديَّة ، والَّتي كانت مقرَّ تجارة اليهود ، ففتحها عُنْوَةً » ، [صفحة ١٣٦] .

ما كنَّا نظنّ أنَّ الدكتور غوستاف لوبون يعالج دراسة الحوادث التَّاريخيَّة بمثل هذه البساطة ، ومُجانبة الحقّ .

أوَّلاً : نريد أن نسأل (لوبون) : ماذا تعني بجملة « ورأى محمَّد بعد ذلك الإخفاق .. » ، أيُّ إخفاق تقصد ؟ أهو عودته من الحديبية مع أصحابه دون تأدية العمرة ؟

لقد عقد ﷺ صلحاً مع مشركي مكَّة ، وهو صلح الحديبية ، وهناك إجماع من كلّ مؤرِّخ ودارس وباحث في هذا الصُّلح ، على أنَّه كان انتصاراً لمحمَّد ﷺ ، أثبت فيه بُعْدَ نظره ، وصواب سياسته ، ورجاحة عقله ، حتَّى أُعتبر لدى أصحابه المؤمنين نصراً وفتحاً مبيناً ، لما تحقَّقت من ورائه وبسببه نتائج عظيمة ، كانت أعظم من انتصارات المعارك ، فهل يعتبر ذلك إخفاقاً ؟

ولمست قريش نتائج الصُّلح الإيجابيَّة الَّتي جاءت إلى جانب المسلمين ،

(٤٢) يعني عدم دخول مكّة بعد توقيع صلح الحديبية .

فسعت إلى نقضه بعد عامين اثنين فقط ، فلو كان صلح الحديبية إخفاقاً لمحمَّد ﷺ ، ونجاحاً لقريش والمشركين ، فلماذا نقضته ؟

ويعتبر لوبون غزو اليهود في خيبر نزهة أراد بها محمَّد ﷺ أن يروِّح بها عن أصحابه ، فأين غاب الإنصاف عنه في هذه المسألة ، وهل كان الرَّسول العظيم ﷺ يتسلَّى مع أصحابه في جزيرة العرب ، ويغزو ليروِّح عن أصحابه ؟

هل تناسى (لوبون) مواقف اليهود في الحجاز من النَّبيِّ ﷺ ودعوته ؟

وهل غاب عنه مواقفهم بعد بدر الكبرى وأُحُد والخندق ؟ أما جعل وفد اليهود برئاسة حُيَيِّ بن أخطب لغطفان ، تحريضاً على الخروج ، نصفَ تمر خيبر كلَّ عام ؟ فجمع اليهود الأحزاب حول المدينة لاستئصال الإسلام وأهله ؟ وبعد الخندق ، أقاموا تحالفاً يهودياً برئاسة خيبر ضمَّ يهود تيماء وفَدَك ووادي القرى ، مع غطفان ، تحت زعامة سلام بن مشكم ، هدفه غزو المدينة ، فهل غاب هذا كلُّه عن الدكتور لوبون ، وخفي عليه خطرهم الَّذي تمثَّل بمواقفهم الكثيرة في الدَّسِّ والتَّآمر والكيد ، وتأليب القبائل ضدَّ الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة الفتيَّة ، وهل نسمِّي حربهم ، وردَّ خطرهم ، وإنهاء تآمرهم ، ترويحاً عن النَّفس ؟

- ١٢ -

« ولما أحسَّ محمَّد نموَّ سلطانه ، عزم على فتح مكَّة ، فألَّف جيشاً من عشرة آلاف محارب ، مما لم يسبق له أن جمع مثله ، فبلغ أسوارها ، ففتح به مكَّة من غير قتال بقوَّة ماتمَّ له من النُّفوذ » ، [صفحة ١٣٧] .

عاد (لوبون) إلى استعمال عبارة : « ولما أحسَّ محمَّد نموَّ سلطانه ، عزم على فتح مكَّة » ، ولم يذكر سبب فتح مكَّة الحقيقي ، لقد خرقت قريش بنود الحديبية ، وانتهكت أهمَّ بند فيه : « وضع الحرب عن النَّاس عشر سنين يأمن فيها النَّاس ، ويكفُّ بعضهم عن بعض » ، لما سبق ، سار زعيم قريش أبو سفيان بن

حرب ، وملكها غير المتوَّج ، إلى المدينة المنوَّرة ، علَّه يصلح ماأفسده هو وقومه ، فعاد فاشلاً خائباً .

واستطاع رسول الله ﷺ أن يحشد أعظم جيش عرفته جزيرة العرب ، ليتحرَّك وهو في أرقى مستوى من التَّعبئة والسِّلاح والطَّاعة ، وقد جعل نصب عينيه فتح مكَّة المكرَّمة ، بأقل دماء وخسائر ممكنة .

وهل يتصوَّر مؤرِّخ منصف ـ مهما كانت عقيدته ـ أن تنتهك قريش بنود صلح الحديبية ، ويتركها ﷺ على تطاولها وغرورها ؟

ونعود إلى ماقاله (لوبون) لنقول : ماكان لنبيٍّ أرسله الله بالهدى ودين الحقِّ أن يمدَّ نفوذه أو سلطانه ، أو مايشبه ذلك من السَّطوة الشَّخصيَّة ، أو الزَّعامة الدُّنيويَّة ، إنَّ محمَّداً ﷺ يريد ولا شكَّ أن يقضي على الوثنيَّة أينما وُجِدَت ، فكيف وهي في بيت الله الحرام ، فمن الطَّبيعي أن يفكِّر محمَّد ﷺ بفتح قلوب القرشيين بالإسلام ، لالمدِّ نفوذه وسلطانه الشَّخصي ، بل لتحطيم أكبر معقل من معاقل الوثنيَّة في جزيرة العرب ، وليعيد إلى البيت العتيق كلمة التَّوحيد عالية لاتشوِّهها عبادة الأصنام والأوثان .

وصورة فتح مكة لاتسمح بكلمتي : « سلطانه » و « نفوذه » ، فَـ « اذهبوا فأنتم الطُّلقاء » الَّتي قالها ﷺ لمن صادر أملاك المسلمين وباعها ، ولمن جمع قواته وسار إلى أُحُد ، ولمن جاء إلى الخندق مع اليهود وغطفان ليستأصل المسلمين وينهي وجودهم ، فأيُّ خُلُق تحلَّى به محمَّد ﷺ ، وأيُّ درس في العفو والأُخوَّة والمحبَّة لقَّنه لقريش ؟! لقد فتح القلوب وامتلكها ، فهي الَّتي جُبِلَت على حبِّ من أحسن إليها .

وهذا موقف فريد على مرِّ التَّاريخ ، فيه سموّ لايضاهيه سمو ، ورفعة لايدانيها رفعة ، وعظمة لاتُشَبَّه بها عظمة .

إنَّه موقف لا يقفه مَلِك ، أو زعيم ، أو قائد .. لا يقفه إلاَّ نبيٌّ مرسل ، رحمته من رحمة الله ، وحكمته من حكمة الله ، وعفوه من عفو الله .

ولو أنَّ محمَّداً ﷺ أراد النُّفوذ والسُّلطان ، لتحقَّق له ما أراد قبل الهجرة بسنوات ، عندما قُدِّم إليه ﷺ من قبل زعماء قريش ، فرفضه ، ورفض الجاه والمال ، لأنَّه يصدع بأمر الله ، ويحمل رسالته إلى النَّاس .

أمَّا عبارة : « فبلغ أسوارها » ، فنعتقد أن جميع المؤرِّخين يعلمون بأنَّ مكَّة لا أسوار لها .

- ١٣ -

بعد فتح مكَّة ، جعل محمَّد - ﷺ - : « الكعبةَ معبداً إسلاميّاً » ، [صفحة ١٣٧] .

كان الصَّواب أن يقول (لوبون) : أعاد محمَّد ﷺ الكعبة بعد فتح مكَّة إلى ما كانت عليه حين أقام بنيانها إبراهيم وإسماعيل عليهما السَّلام ، أي رمزاً لعبادة الله الواحد ، يطوف النَّاس بها ، لا عبادة لها ، بل عبادة لله تعالى ، فالكعبة ليست معبداً ، وإنَّما هي بناء أُقيم في البيت الحرام ، قبلة يتوجَّه إليها النَّاس .

لقد دعا إبراهيم عليه السَّلام ربَّه : ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ ، [إبراهيم ٣٧/١٤] ، فاستجاب له ربُّه ، وجعل من البيت الحرام محجَّة ومكان التقاء تهوي إليه أفئدة البشر في مشارق الأرض ومغاربها .

والتَّوجُّه إلى الكعبة ، في الصَّلاة أو في الحجّ ، رمز لتوحيد العقيدة ، فكراً وقلباً ، ودليل ذلك أن القرآن الكريم قد بيَّن لنا بأنَّ القبلة هي وجه الله وحده : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ ﴾ ، [البقرة ١١٥/٢] .

فالقدسيَّة للأمر الإلهي وحده : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ،

فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ ، [البقرة ١٤٤/٢] ، والاتّجاه إلى الكعبة إنّما يتمّ بالجسد وحده ، وأمّا القلب والرُّوح ، فإلى الله اتجاهها ، وبه تعلقها : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ، [الأنعام ٧٩/٦] .

لذلك ، يلهج لسان الحاجّ وقلبه خلال الطّواف بالبيت ، بقوله : « لبيك اللّهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك .. » ، فالتّلبية استجابة لأمر الله ، وليست للكعبة ، وما سمعنا طائفاً يقول : لبيك يا كعبة لبيك .

فبعد فتح مكّة ، حطّم ﷺ الأصنام ، وهو يقول : ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾ ، [الإسراء ٨١/١٧] ، ونادى مناديه ﷺ بمكّة : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يدع في بيته صنماً إلاّ كسّره »(٤٣)

لقد طهّر ﷺ البيت الحرام ، وأعادَه رمزاً للتّوحيد الخالص ، ولم يجعل الكعبة معبداً إسلامياً .

- ١٤ -

« ولم يكتفِ كسرى بتمزيق كتاب محمّد ، بل بعث إلى عامله في اليمن : (أن ابعث إليَّ هذا الرَّجل الَّذي يزعم في الحجاز أنّه نبيٌّ) ، ولكن كسرى قتله ابنُه قبل أن يقوم عامل اليمن بتنفيذ ذلك الأمر الصّعب » ، [صفحة ١٣٨] .

صحيح ، لقد مزّق كسرى (أبرويز) كتابَ رسول الله ﷺ ، والّذي حمله عبد الله بن حذافة السّهمي(٤٤) ، وصحيح أنّه بعث إلى عامله في اليمن أن يبعث

(٤٣) طبقات ابن سعد ١٣٧/٢ ، السّيرة الحلبيّة ١١٨/٣

(٤٤) عبد الله بن حذافة بن قيس السّهمي القرشي [ت نحو ٣٣ هـ = نحو ٦٥٣ م] ، صحابي أسلم قديماً ، وبعثه النّبيّ ﷺ إلى كسرى ، أسره الرُّوم في أيّام عمر ثمّ أطلقوه ، وشهد فتح مصر ، وتوفي بها في أيّام عثمان ، [الأعلام ٧٨/٤] .

إليه بالنَّبيِّ ﷺ ، وصحيح أن شيرويه قتل أباه أبرويز ، ولكن ليس صحيحاً : « قبل أن يقوم عامل اليمن بتنفيذ ذلك الأمر الصَّعب » ، وصوابه : وقد فشل (باذان) في إحضار النَّبيِّ ﷺ ، لقد نفَّذ أمر كسرى أبرويز ، ولكنه فشل ، وهذه هي الحقيقة التَّاريخيَّة :

بعد صلح الحديبية ، كتب ﷺ إلىالملوك والأُمراء يدعوهم إلى الإسلام ؛ وكان من بينهم كسرى أبرويز[٤٥] ، الَّذي مزَّق الكتاب قبل أن يقرأه ، لأنّ النَّبيَّ ﷺ بدأ باسمه قبل اسم كسرى ، وغضب غضباً شديداً ، وكتب إلى باذان عامله على اليمن : أمَّا بعد ، فإذا جاءك كتابي هذا ، فابعث من قِبَلِكَ أميرَيْن إلى هذا الرَّجل الَّذي بجزيرة العرب ، الَّذي يزعم أنَّه نبيٌّ ، فابعثه إليَّ في جامعة[٤٦] .

وبعث باذان رسولَيْن جَلِدَيْن[٤٧] ، هما : بابويه وخرخسره ، يحملان كتاباً إلى رسول الله ﷺ ، يأمره فيه أن ينصرف معهما إليه ، فخرجا حتَّى قدما الطَّائف ، فوجدا رجالاً من قريش ، فسألاهم عن الرَّسول ، فقالوا : هو بالمدينة ، واستبشر القرشيون المشركون بذلك ، وقال بعضهم : أبشروا ، فقد نصب له كسرى ملك الملوك ، كُفِيتُم الرَّجل .

فخرج الرَّجلان حتَّى قدما على رسول الله ﷺ ، فقالا : إن كسرى قد

---

(٤٥) وكان مقرُّ ملكه طيسفون (المدائن) ، قرب موقع بغداد حالياً ، جاء في معجم البلدان ٥٥/٤ : « هي مدينة كسرى الَّتي فيها الإيوان ، بينها وبين بغداد ثلاثة فراسخ [الفرسخ = ٥٥٤٤ م] ، دخلها سعد بن أبي وقاص بعد القادسيَّة فاتحاً سنة ١٦ هـ وهو يقرأ قوله تعالى : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ☆ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ☆ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ☆ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ ﴾ ، [الدُّخان ٢٥/٤٤ ـ ٢٨] .

(٤٦) الجامعة : الغُلُّ ، لأنَّها تجمع اليَدَيْن إلى العنق ، [اللِّسان : جمع] .

(٤٧) جَلِدان : قويَّان ، ذوا عزيمة ، ومما قاله لهما : اذهبا إلى هذ الرَّجل ، فانظرا ماهو ، فإن كان كاذباً فخذاه في جامعة حتَّى تذهبا به إلى كسرى ، وإن كان غير ذلك فارجعا إليَّ فأخبراني ماهو حتَّى أنظر في أمره .

بعثنا إليك لتنطلق معنا ، فصرفهما الرَّسول ﷺ على أن يعودا إليه في الغد ، وخلال إقامتهما في المدينة المنوَّرة رأيا رسول الله ﷺ على أرشد الأحوال وخيرها عقلاً وحكمة ونبوَّة صادقة . ثمَّ قال لهم ﷺ بعد أن جاءه الخبر من الله تعالى : « إنَّ الله قد سلَّط على كسرى ابنه شيرويه فقتله ، إن ديني وسلطاني سيبلغ ملك كسرى ، وقولا لباذان : أسلم ، فإن أسلم أُقرُّه على ما تحت يده ، وأُملكه على قومه » ، فقالا للنَّبيِّ ﷺ : إنَّا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا ، أفنكتب هذا عنك ونخبره الملك ، قال ﷺ : أخبراه ذلك عنِّي ، وقولا له : إنَّ ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ مُلْك كسرى ... » ، فأرَّخا ذلك عندهما ، ثمَّ رجعا سريعاً إلى اليمن ، فقصَّا على باذان ما تنبَّأ به النَّبيُّ ﷺ ، فقال باذان : والله ما هذا بكلام مَلِك ، وإنِّي لأرى الرَّجل نبيّاً كما يقول ، احصوا تلك اللَّيلة(٤٨) ، فإن ظهر الأمر كما قال فهو نبيٌّ مرسلٌ ، وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا .

فلم يلبث باذان أن قدم عليه كتابُ شيرويه : أمَّا بعد ، فإنِّي قد قتلت كسرى ، ولم أقتله إلا غضباً لفارس لما استحلّ من قتل أشرافهم ، فإذا جاءك كتابي هذا ، فخذ لي الطَّاعة ممن قبلك ، وانظر الرَّجل الَّذي كان كسرى كتب فيه إليك - يعني رسول الله ﷺ - فلا تهنه وأكرمه حتَّى يأتيكَ أمري فيه .

فلمَّا انتهى كتاب شيرويه إلى باذان ، قال : إن هذا الرَّجل لرسول ، فأسلم وأسلم من كان معه من الفرس ببلاد اليمن(٤٩) .

وبعد هذا ، هل عبارة : « ولكن كسرى قتله ابنُه قبل أن يقوم عامل اليمن بتنفيذ ذلك الأمر الصَّعب » صحيحة ؟ أمْ قام عامل اليمن بتنفيذ ذلك الأمر الصَّعب ، ولكن الله سبحانه وتعالى جعل كيد كسرى أبرويز في نحره ؟!؟

---

(٤٨) الَّتي تنبَّأ بها ﷺ بمقتل أبرويز ، وهي يوم الثلاثاء ١٠ جمادى الآخرة سنة ٧ هـ ، وذلك بعد فتح خيبر بثلاثة أشهر تقريباً .

(٤٩) الطَّبري ٦٥٥/٢ ، الكامل في التَّاريخ ١٤٥/٢

«.ويقال إنَّ محمَّداً كان قليل التَّعليم ونرجِّح ذلك ، وإلاَّ وجدتَ في تأليف القرآن ترتيباً أكثر مما فيه ، ونرجِّح أيضاً أنَّ محمَّداً لو كان عالماً ما أقام ديناً جديداً ، فالأُميُّون وحدهم هم الَّذين يعرفون كيف يُدْرَكُ أمرُ الأُميِّين » ، [صفحة ١٤١] .

ونتساءل : متى كان الأنبياء يؤلِّفون الكتب ، ويرتِّبون الآيات ؟

وهل فعل الأنبياءُ قبل محمَّد ﷺ ذلك ، حتَّى يقول (لوبون) مثل هذا القول ؟

وما دام مفكِّر كبير ، وفيلسوف عظيم مثل (لوبون) يرجِّح أنَّ محمَّداً ﷺ قليل التَّعليم ، فهل يأْتي زجل قليل العلم بكتاب فيه من التَّشريعات الأخلاقيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والسِّياسيَّة ، ناهيك عن التَّشريعات الدِّينيَّة والرُّوحيَّة ، بمثل ما في القرآن الكريم ؟ ثُمَّ نقول : إنَّه من عند محمَّد !! كيف يستطيع أي رجل ، ولو كان كثير العلم في مثل تلك الظُّروف ، وفي ذلك الوقت من التَّاريخ ، أن يأتي بمثل ذلك الكتاب ، الَّذي ما يزال معجزة الإسلام الباقية حتَّى اليوم ؟

وهل أصبح المؤرِّخون الْحَكَم في أمر ترتيب كتاب الله ، حتَّى يحكموا على دقَّة ترتيبه أو عدم ذلك ، وهل يصحُّ قول (لوبون) بأنَّ محمَّداً لو كان عالماً ما أقام ديناً جديداً ؟ فهل إقامته للدِّين الجديد تعود إلى علمه أو عدمه ؟ محمَّد ﷺ كأخيه المسيح عليه السَّلام ، وكبقيَّة الأنبياء والرُّسل الكرام ، جاء برسالة الله يحملها إلى النَّاس ، ويبلِّغها لهم كما بلَّغه إياها الوحيُ الأمين ، فلماذا نعترف بأنْ يحمل السَّيِّد المسيح رسالة الله إلى البشر ، علماً بأن المسيح عليه السَّلام رافقت

بعثته أُمورٌ يرفضها العقل ويقبلها التَّسليم ، أقول : لماذا نؤمن هناك ونكفر هنا .

نعم ، إنَّ محمَّداً ﷺ أُمِّيٌّ ، لكنه جاء بما يُعْجِزُ العلماء ، وبما يفتح أمام عقول العلماء آفاق البحث والتَّفكير ، فكان بما جاء به معجزة خالدة أبد الدَّهر ، لا تنقضي بموت صاحبها ، فليس شأْنها شأن المعجزات والخوارق الَّتي أمست تاريخاً ليس غير .

يقول سبحانه في محكم التَّنزيل : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ إنَّما الآياتُ عِنْدَ اللهِ وَإنَّما أنا نَذيرٌ مُبينٌ ☆ أوَلَمْ يَكْفِهِمْ أنَّا أنْزَلْنا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إنَّ في ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يؤمِنُونَ ﴾ ، [العنكبوت ٢٩/٥٠ و ٥١] .

- ١٦ -

« وضعف محمَّد الوحيد هو حُبُّه للنِّساء ، فقد قال : « حُبِّبَ إليَّ من دنياكم ثلاث : الطِّيبُ والنِّساءُ ، وجُعِلَت قُرَّةُ عيني في الصَّلاة » .

ولم يبالِ محمَّد بسنِّ المرأة الَّتي كان يتزوجها ، فتزوَّج عائشة وهي بنت عشر سنوات ، وتزوَّج ميمونة وهي في السَّنة الحادية والخمسين من عمرها .

وأطلق محمَّد العِنَان لذلك الحبِّ ، حتَّى إنَّه رأى اتِّفاقاً زوجةَ ابنه بالتَّبنِّي وهي عارية ، فوقع في قلبه منها شيء فسرَّحها بعلها ذلك ليتزوَّجها محمَّد ، فاغتمَّ المسلمون ، فأُوحيَ إلى محمَّد ، بواسطة جبريل الَّذي كان يتَّصل به يومياً ، آياتٌ تُسَوِّغ ذلك ، فانقلب الانتقاد إلى سكوت » ، [صفحة ١٤٢] .

ومع أنّ العلاَّمة لوبون يقول في الصَّفحة ذاتها [صفحة ١٤٢] : « الشَّرقيون لا يرون إفراطاً في ذلك » ، وقع في أغلاط كثيرة في عباراته وآرائه السَّابقة ،

ولو أنصف لقام بدراسة موضوعيّة لمحمّد ﷺ ، فيما يتعلّق بالنّساء ، ولو أنصف لتحدّث عن عفّته ﷺ في شبابه ، وقبل زواجه ، وقد أشار فيما كتب إلى اقتصاره ﷺ على زوجة واحدة حتّى بلغ الخمسين من عمره ، أليس في هذه الأقوال مؤشّر عن محمّد ﷺ وعلاقته بالنّساء ؟! أليس في هذه الأقوال ما يدعو إلى دراسة ما ورد عن زواجه ﷺ من عدد من النّساء ليس في معظمهنّ ما يغري بالزّواج منهنّ ؟!

عودةٌ إلى دراسة ظروف زواجه ﷺ من كلٍّ منهن ، وعلى ضوء البيئة الّتي كان يعيش فيها ، والمجتمع وعاداته وتقاليده آنذاك ، وما رافق زواجه ﷺ من أُمور تاريخيّة وتشريعيّة ، تتوضّح للدّارس أُمورٌ غير ما يخطر في بال وخاطر الإنسان العادي .

أوّلاً : إننا أمام نبيٍّ كريم ، فُتِحَت له ميادين المتع كلّها ، فعفّ عنها .

ثانياً : المسلم مقيّد في حواره مع المستشرقين والمبشّرين الصّليبيّين بعقيدة في صلبها احترام أنبياء الله جميعاً ، من آدم إلى عيسى عليهم جميعاً الصّلاة والسّلام . ولكن في حوار طريف مع مستشرق حاقد قال : المسيح عاش بتولاً ، ورُفِعَ بتولاً ، وهذا غاية الكمال الّذي تفرّد به المسيح ، وليس في ذلك أيُّ نوع من العجز الجنسي أو نحوه ، فقيل لهذا المستشرق (الظّريف) : وهذه هي عقيدة كلّ مسلم ملتزم بإسلامه ، تابع المستشرق طاعناً : أمّا محمّد فقد تزوّج تسع زوجات ، وهذا دليل على فرط الميول الجنسيّة عنده ، فأُجيب بما يلي : إنّك ترفض أن يوصف السّيّد المسيح عليه السّلام بالعجز الجنسي لأنه لم يتزوّج قط ، مع أنّ الزّواج في عصره كان يتمّ في سنٍّ مبكّرة عند الشّباب الطّبيعيّين جميعاً ، وبناء على هذا ، ينبغي لك ألاّ تصف محمّداً ﷺ بأنّه مفرط بالجنسيّة لأنّه جمع بين تسع نساء ، بل عليكَ أن تتحرّى لماذا ومتى تزوّجهنّ ، وهل هو الوحيد في زمنه ، أم جميع

الرِّجال آنذاك ، ليكون حكمك سليماً منصفاً ، بعيداً عن التَّعصُّب والحقد والطَّعن والتَّحيُّز !!

ثالثاً : **أباح الإسلام تعدُّد الزَّوجات ، ولم يفرضه** ، وشتَّان بين أباح وبين فَرَض ، وأباح بشرط العدل ، وجعل مجرَّد خوف الجور أو الظّلم سبباً كافياً لمنعه ، علماً أن العرب قبل الإسلام أكثروا من التَّعدُّد ، وبلا قيود .

وبعد هذا ، لنستعرض سريعاً زوجاته ﷺ ، وكيف عقد عليهنّ(٥٠) :

١ ـ خديجة بنت خُوَيْلِد : تزوَّجها ﷺ وكان عمره خمساً وعشرين سنة ، وهي في الأربعين من عمرها ، ولم يتزوَّج غيرها حتى توفِّيت ، وكان ﷺ عندها في الخمسين من عمره ، ومع أنه ﷺ كان في عنفوان شبابه بين ٢٥ ـ ٤٠ لم يتزوَّج غيرها ، وكان يقول كلّما ذُكرت : « والله ماأبدلني الله خيراً منها ، آمنت بي حين كفر النَّاس ، وصدَّقتني إذ كذَّبني النَّاس ، وواستني بمالها إذ حرمني النَّاس ، ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النِّساء »(٥١) .

٢ ـ سَوْدَةُ بنت زَمْعَة : كانت أيماً ، مات عنها زوجها عقب رجوعه من الحبشة(٥٢) ، وهي المسلمة الَّتي خالفت بني عمِّها وأقاربها ، تزوَّجها ﷺ تعويضاً ورحمة وحماية ، تعويضاً خيراً مما فقدت ، ورحمة بها بعد موت زوجها ولا حامي لها دون أقاربها وقد أسلمت رغم أُنوفهم ، وحماية لها من أن تصل إليها يد الأذى ، لقد مدَّ ﷺ يده الرَّحيمة إليها ، يسند شيخوختها فكان زواجها أكبر سلوان لها ، فهل تزوَّجها ﷺ لحبِّه الطَّارئ للنِّساء ، أم لأنَّه أطلق العِنَان لشهوته ؟!

---

(٥٠) (سريعاً) ، لأننا عرضنا الموضوع مفصَّلاً في الإسلام في قفص الاتِّهام ، الجلسة السَّادسة عشرة ، (زوجات محمّد) ، ص ٢٤٩ في الطَّبعة الخامسة ١٩٨٢ م .

(٥١) قال عنها ﷺ : « ماأبدلني الله خيراً منها » ، [أُسد الغابة ٨٥/٧ ، الاستيعاب ١٨٢٣/٤ ـ ١٨٢٤] .

(٥٢) وهو ابن عمها : السّكران بن عمرو ، [أُسد الغابة ١٥٧/٧] .

علماً أنَّ كلَّ أيم من نساء الصَّحابة ، كانت تُضمُّ إلى أُسرة إسلاميَّة ، فتخطب فور انتهاء عدَّتها ، لحمايتها ، وحماية أبنائها ، وبالتَّالي حماية المجتمع وسلامته ، وهذا يفسِّر ما نجده في تراجمهنَّ رضي الله عنهنّ ، أنَّ فلانة تزوَّجت فلاناً ، ثمَّ مات عنها فتزوَّجت فلاناً ، ثمَّ مات عنها فتزوَّجت فلاناً ... ومثال ذلك :

أسماء بنت عُمَيْس ، زوجها جعفر بن أبي طالب ، فلما استشهد رضي الله عنه ، تزوَّجها أبو بكر الصِّدِّيق ، ثمَّ مات عنها فتزوَّجها علي بن أبي طالب[٥٣] .

أُمامة بنت أبي العاص ، تزوَّجها علي بن أبي طالب بعد فاطمة ، ثمَّ تزوَّجها المغيرة بن نوفل بن الحارث بن أبي طالب بعد استشهاد علي رضي الله عنه[٥٤] .

جميلة بنت عبد الله ، تزوَّجها حنظلة بن أبي عامر (غسيل الملائكة) ، فقتل عنها يوم أُحُد ، ثمَّ خَلَفَ عليها ثابت بن قيس بن شمَّاس ، فمات عنها ، ثمَّ خلف عليها مالك بن الدُّخشم ، ثمَّ خلف عليها حبيب بن يساف[٥٥] .

حمنة بنت جحش ، كانت زوج مصعب بن عمير ، فقتل عنها يوم أُحُد ، فتزوَّجها طلحة بن عبد الله[٥٦] .

سلمى بنت عُمَيْس زوج حمزة بن عبد المطلب ، خلف عليها بعده شدَّاد بن أُسامة اللَّيثي بعد استشهاد حمزة في أُحُد[٥٧] .

فاطمة بنت الوليد بن عتبة ، امرأة سالم مولى أبي حذيفة ، لما استشهد عنها سالم يوم اليمامة ، تزوَّجها بعده الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي[٥٨] .

---

(٥٣) أُسد الغابة ١٤/٧
(٥٤) المرجع السَّابق ٢٢/٧
(٥٥) المرجع السَّابق ٥٤/٧
(٥٦) المرجع السَّابق ٦٩/٧
(٥٧) المرجع السَّابق ١٤٨/٧
(٥٨) المرجع السَّابق ٢٣١/٧

أُمُّ حكيم بنت الحارث ، لما استشهد عنها عكرمة ، تزوَّجها خالد بن سعيد[٥٩] .

٣ ـ عائشة بنت أبي بكر : كانت عائشة مخطوبة لجبير بن المطعم بن عدي ، فهي ناضجة من حيث الأنوثة ، وتزوَّج ﷺ عائشة ، « ولم تدهش مكَّة حين أعلن نبأ المصاهرة بين أعزِّ صاحبين ، وأوفى صديقين ، بل استقبلته كما تستقبل أمراً طبيعياً مقرَّراً ، ولم يجد فيها أيُّ رجل من أعداء الرَّسول أنفسهم موضعاً لمقال ، بل لم يدر بخلد واحد من خصومه الألدَّاء أن يتَّخذ من زواج محمد ـ ﷺ ـ من عائشة مطعناً أو منفذاً للتَّجريح والاتِّهام ، وهم الَّذين لم يتركوا سبيلاً للطَّعن عليه إلاَّ سلكوه ، ولو كان عبثاً وبهتاناً »[٦٠] .

ولم تكن عائشة أول صبيَّة تُزَفُّ إلى رجل أكبر منها بكثير ، ولن تكون كذلك أُخراهن في بيئة الحجاز آنذاك ، فيجب الانتباه إلى نضوج الفتاة في المناطق الحارَّة بسنٍّ مبكِّرة جدّاً ، وهو من الثَّامنة ، وتتأخَّر الفتاة في المناطق الباردة إلى سنِّ الواحدة والعشرين .

٤ ـ أُمُّ حبيبة ، رملة بنت أبي سفيان : تزوَّجها ﷺ وهي بالحبشة[٦١] ، تعويضاً لها عمَّا قاسته من المصاعب والأهوال ، بعد أن تنصَّر زوجها في الحبشة ، لقد اختارها ﷺ لنفسه لمكانتها في قومها ، ولو أنَّها زُوِّجت بغير كُفء لاتَّخذ بنو

---

(٥٩) المرجع السَّابق ٣٢١/٧

(٦٠) نساء النَّبي ص ٦٤

(٦١) قالت أُمُّ حبيبة : ماشعرت إلاَّ برسول النَّجاشي جارية يقال لها أبرهة .. تقول : إنَّ الملك يقول لكِ إنَّ رسول الله ﷺ كتب إليَّ أن أزوِّجكه ، فقلت : بشَّركِ الله بخير ، قالت : ويقول لكِ الملك وَكِّلي من يزوِّجك ، فأرسلت إلى خالد بن سعيد بن العاص بن أُميَّة فوكَّلته ، وأعطيت أبرهة سوارَيْن من فضة كانت عليَّ ، وخواتيم كانت في أُصبعي ، سروراً بما بشَّرتني به .. [أسد الغابة ٣١٥/٧] .

أميّة ذلك شبهة يوغرون بها صدور بيوتاتهم ، ويحرشونهم بالمسلمين في مكّة على قلّتهم وضعفهم .

لقد جمع ﷺ شملها ، وآنس وحشتها ، وفتح باب مودّة بينه وبين ألدّ أعدائه ، فهو زواج سياسي ، أراد منه أن يجلب زعيم مكّة إلى المودّة بالمصاهرة ، لذلك قال أبو سفيان عندما سمع بهذا الزّواج : « وهذا الفحل لا يجدع أنفه » .

وكانت أُم حبيبة عندما تزوّجها ﷺ في الأربعين من عمرها أو أكثر ، فأين أطلق العنان لشهواته ؟!

٥ ـ جُوَيْرِية بنت الحارث : كان زواجه ﷺ منها لأغراض سياسيّة ، لقد أراد ﷺ الانتفاع بالمصاهرة ، واتّخاذها وسيلة لاجتذاب قلوب القبائل .

أُسرت جويرية في غزوة بني المصطلق[٦٢] ، فلاذت هي برسول الله ﷺ ، وغمرتها فرحة عامرة عندما عرض عليها الزّواج ، فما من امرأة أعظم على قومها بركة منها ، لقد قال المسلمون : « أصهار رسول الله » ، فأعتقت بزواجها من رسول الله ﷺ أهلَ مئة بيت من بيوت بني المصطلق ، وأسلم والدها عندما حدّثته عن مكارم أخلاق رسول الله ، وصاح بصوت جهير بالشّهادتين : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنّك محمّد رسول الله .

وجويرية لم تكن بكراً عند زواجها من رسول الله ﷺ ، لقد كانت متزوّجة من قبل ، فأين أطلق العنان لشهواته بعد هذا الزّواج السّياسي المبارك .

٦ ـ صَفِيّة بنت حُيَيّ : عقيلة بني النّضير ، يهوديّة من سبي خيبر ، أسلمت وحسن إسلامها .

---

(٦٢) بنو المُصْطَلِق : وهم بنو جذيمة بن كعب من خزاعة ، وجذيمة هو المصطلق ، من الصَّلْق وهو رفع الصّوت ، أُنظر : الرّوض الأنف ١٧/٤ ، ابن هشام ١٨٢/٣ ، البداية والنهاية ١٥٦/٤

من المعروف أنَّ الثَّأر في الجـاهليَّـة أمرٌ معروف ، حـاول الأنبيـاء نسخـه من قبل فلم يفلحوا ، فالثَّـأر أمر راسخ في نفوس العرب ، وأشربتـه قلوبهم ، فجـاءت عقود رسول الله ﷺ لربط كثير من القبائل بعضها إلى بعض ، وأطفأ سورة ما في صدورها من الغلِّ والضَّغائن .

وكانت صفيَّة قد تزوَّجت سابقاً مرَّتين ، من سلام بن مشكم ، ثمَّ خلف عليها كنانة بن الرَّبيع بن أبي الحقيق ، فأين أطلق العنان لشهواته .

٧ ـ حفصـة بنت عمر : الصَّوَّامـة القَوَّامـة ، تـوفِّي عنهـا زوجهـا خُنَيس بن حذافة السَّهمي ، فأراد عمر أن يزوِّجها أبي بكر الصِّدِّيق ، أو من عثمان ، فعرضها عليهما فلم يقبلا ، فقال عمر لرسول الله مالقي من إعراضهما ، فابتسم ﷺ وقـال : « يتزوَّج حفصة من هو خير من عثمان » (٦٣) .

وباركت المدينة المنوَّرة اليد الَّتي امتدَّت لتـأسو جرح حفصـة ، ولتجعل عمر يفتخر ويتباهى بتطييب خاطره ، فأين أطلق العنان لشهواته ؟

٨ ـ أُم سلمة ، هند بنت أبي أُميَّة بن المغيرة : هاجرت إلى الحبشة ، ثمَّ عادت إلى مكَّة ، وهمَّت بالهجرة إلى المدينة ، ولكن المشركون من بني المغيرة منعوهـا من الهجرة حتَّى خلعوا يد ولدها سلمة وهم يتناولونه من حجرها ، وبعـد عـام قضتـه بالبكاء ، فابنهـا في جـانب ، وهي في جـانب آخر ، وزوجهـا في المـدينـة ، رقُّوا لحالها ، وانطلقت إلى زوجها بالمـدينـة ، وليس معهـا أحـد من الْخَلْق ، ثُمَّ توفِّي عنهـا زوجهـا وهي أُمٌّ لأولاد ، فطلبهـا الصِّـدِّيق فرفضت ، وتلاه عمر فـأبت ، ثمَّ خطبها ﷺ وهي مُسِنَّة ذات عيال ، فرعـاهـا ورعـا عيـالهـا ، وبلغ في إعزازهـا وإعزاز عيالها ، أنَّه اختار ولدها سلمة زوجاً لابنة عمه حمزة سيِّد الشُّهـداء ، فـأين أطلق العنان لشهواته ؟

---

(٦٣) أُسد الغابة ٦٥/٧

٩ ـ زينب بنت جحش : « حتَّى إنَّه رأى زوجةَ ابنه بالتَّبنِّي وهي عارية ، فوقع في قلبه منها شيءٌ فسرَّحها بعلها ذلك ليتزوَّجها محمَّد .. » ، هذا ماقاله (لوبون) عن زواج النَّبيِّ ﷺ بزينب ، والقصَّة مرفوضة عقلاً وشرعاً ، للأسباب التَّالية :

١ ـ زينب بنت عَمِّه ، رُبِّيَت تحت نظره ، وشملها برعايته ، وكان يعرفها ويراها ، ولا يخفى عليه شيء من محاسنها الظَّاهرة .

٢ ـ وهو ﷺ الَّذي اختارها لمولاه زيد بن حارثة زوجةً ، ولم يبالِ بإبائها ورغبتها عن زيد .

٣ ـ لو كان للجمال سلطان على قلبه ﷺ لكان أقوى سلطان عليه جمال البكر في روائه ونضرة جُدَّته .

٤ ـ كيف يمتدّ نظره إليها ، ويصيب قلبه سهم حبها بعد أن صارت زوجة لمولاه ، يرفض العاقل مثل هذا لمؤمن عادي ، أن ينظر إلى زوجة جاره أو صديقه نظرة بشهوة ، هذا قد يكون في مجتمع الغرب اليوم ، أما في مجتمع الإسلام وبيئته لا يكون .

فزواج زينب تقرير شرع ، وتنفيذ حكم إلهي ، ذلك أنَّ التصاق الأدعياء بالبيوت ، واتِّصالهم بأنسابهم كان أمراً تدين به العرب ، فكانوا يعطون الدَّعي جميع حقوق الابن ، ويُجْرُون عليه وله جميع الأحكام الَّتي يعتبرونها للابن حتَّى من الميراث ، وحرمة النَّسب ، فهُدِمَت قاعدة التَّبنِّي قولاً وفعلاً[٦٤] .

لقد حافظ ﷺ على كرامتها بعد زواجها من مولى ، وهي ابنة أُميمة بنت عبد المطَّلب ، لقد كانت تقول : « أنا سيِّدة أبناء عبد شمس » ، وحطَّم فوارق الطَّبقات .

(٦٤) الإسلام دين الفطرة والحرِّيَّة ، للشيخ عبد العزيز جاويش ، كتاب الهلال ، العدد ١٨

فزواج زينب أمر تشريعي في الدَّرجة الأُولى ، وجبر لخاطر مكسور عندما أصبحت (أُمَّ المؤمنين) من ناحية ثانية .

كما تزوَّج ﷺ زينب بنت خزيمة (أُمَّ المساكين) ، وهي أرملة شهيد ، استشهد في أُحُد ، وبقيت عنده ثلاثة أشهر أو ثمانية فقط ، ثمَّ ماتت ، وتزوَّج مارية القبطيَّة ، هديَّة المقوقس عظيم مصر ، وكان لهذا الزَّواج صلة رحم مع مصر : « استوصوا بالقبط خيراً فإنَّ لهم ذمَّة ورَحِماً » .

وأخيراً .. اتَّهموا رسولَ الله ﷺ بالميل إلى النِّساء بشهوة جامحة ، مع أنَّه لم يكن ﷺ الوحيد في عصره الَّذي تزوَّج من عدد من النِّساء ، إنه العصر وظروفه ، فأبو بكر تزوَّج أربع نساء ، وتزوَّج عمر سبع نساء ، وتزوَّج عثمان ثماني نساء ، وتزوَّج علي ثماني نساء أيضاً[٦٥] .

وإذا اطَّلعنا على تراجم رجال ذاك العصر ، لرأينا هذا الزَّواج متعارفاً عليه ، ولم يكن فيه غضاضة ، فهل أطلق العصر كلُّه العِنان لشهواته ؟!!

- ١٧ -

« ولم يثبت تماماً وفاءُ زوجات محمَّد الكامل له ، ويظهر أنَّ محمَّد لاقى من المكاره الزَّوجيَّة ما يندر وجوده عند الشَّرقيِّين ، ويكثر وقوعه لدى الأُوربيِّين ، وكانت عائشة ، على الخصوص ، موضوع قلق له ، وأصبحت ذات مرَّة مَوْضِع قالة سُوء ، فشهد جبريلُ ، المحبُّ للخير على الدَّوام ، بعصمتها ، فَدُوِّنت شهادته في هذه المسألة الحسَّاسة في القرآن ، فَحُظِرَ الشَّكُّ » ، [صفحة ١٤٢] .

نستغرب هذا التَّشكيك بوفاء زوجات الرَّسول ﷺ ، خصوصاً وقد صدر عن (لوبون) الَّذي كنَّا نعتقد بعده عن الأحكام المتعصِّبة والحاقدة ، البعيدة عن

---

(٦٥) انظر أسماءهن في : (الإسلام في قفص الاتِّهام) ، ص ٢٧٥

الحقيقة التَّاريخيَّة ، إذ لم يرد في أيِّ مصدر من مصادر تاريخ العرب والإسلام ، وكتب السِّيرة أيضاً مثل هذا القول ، بل ورد الكثير ممَّا يتنافى مع هذا القول ويعارضه ، ولا ندري من أين أتى (لوبون) بأخبار المكاره الزَّوجيَّة لمحمَّد ﷺ ، وأخباره تذكر أنَّه كان على أحسن علاقات مع زوجاته ، وكنَّ على مثل ذلك معه .

ولا ندري من أين جاء (لوبون) بموضوع قلق محمَّد ﷺ من زوجته عائشة ، وكانت حياته معها تكتنفها السَّعادة الزَّوجيَّة لهما جميعاً ، لكن الجهل ، ونستبعد الحقد والتَّعصُّب ، هو الَّذي أوصل مؤرِّخنا الفيلسوف إلى ما وصل إليه في هذا الرَّأي .

حادثة واحدة حدثت لعائشة ، ويمكن أن تحدث لأيَّة زوجة أُخرى في مثل ذلك الظَّرف ، فبنى عليها المفترون مابنوه ، وليس هناك ما يمسَّها في تلك الحادثة إلاَّ أقوال السّوء الَّتي أشاعها المنافقون بزعامة عبد الله بن أُبَي بن سلول في مجتمع المدينة المنوَّرة .

خرج ابن أُبَي بن سلول مع رسول الله ﷺ والمسلمين إلى ماء المريسيع لردِّ بني المُصْطَلِق ، فأثار أكثر من مشكلة ، ونطق بكلام دنيء ، حتَّى جاء عبد الله بن عبد الله بن أُبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ وقال : إنه قد بلغني أنَّك تريد قتل أبي فيما بلغك عنه ، فإن كنتَ فاعلاً ، فمرني أن أحمل لكَ رأسَه قبل أن تقوم من مجلسك هذا .

فأجاب ﷺ : « ماأردت قتله ، ولا أمرت به ، ولنحسنن صحبته ما كان بين أظهرنا » ، وقبل الدُّخول إلى المدينة المنوَّرة ، وقف الابن في وجه أبيه وقال له : والله لاتدخل حتَّى تقرَّ أنَّك الذَّليل وأنَّ رسول الله ﷺ العزيز ، وحتَّى يأذن لك رسول الله ﷺ ، ولتعلم أيضاً الأعزَّ من الأذلِّ ، أنتَ

أو رسـول الله ﷺ ، فقـال لـه أبـوه : أنتَ من بين النّـاس ، أشهـد أنَّ العِـزَّة لله ولرسـولـه وللمـؤمنين ، وصـار يقـول : لأنـا أذلُّ من الصِّبيـان ، حتَّى قـال ﷺ لابنه : خَلِّ عن أبيك .

ونتيجة لحقـد عبـد الله بن أُبي بن سلول ، اختلق قصّـة الإفـك بعـد دخولـه المدينـة المنوَّرة ، عنـدمـا تـأخَّرت عـائشـة بحـاجتهـا ، وسقـط عقـد لها وهي في طريقها ، فرجعت إليـه تلتمسـه ، فـأبطـأت عن الرَّكب ، فعـادت مع صفوان بن المعطِّل ، الَّذي كانت مهمته على السَّاقة وراء الرَّكب يلتقط ماعسى أن يكونوا قد خلَّفوه من متاع ، ودخل المدينة وضح النَّهار عند الظَّهيرة ، فلما رأى ابن أُبَي بن سلول ذلكَ قـال : امرأة نبيِّكم بـاتت مع رجل حتَّى أصبحت ، ثمَّ جـاء يقودهـا ، فَجَر بها وربِّ الكعبة ، مابرئت منه وما برئ منهـا ، والله مـانجت منـه ولا نجـا منها(٦٦) ، وراح المنافقون يروِّجون الإشاعة .

إنَّ الَّـذي جرى أمر طبيعي سَيِّـدة فـاتهـا الرَّكب ، فـأدركهـا تـابع الرَّكب فأجارها حتَّى ردَّها إلى مأمنهـا ، أمـا هـاجرت أُمُّ سلمـة من مكَّـة إلى المـدينـة ، وليس معها إلاَّ وليدها الطِّفل ، فلما رآها عثمان بن طلحة على هـذه الحـال ، أبَت عليه المروءة ـ وهو مشرك ـ أن يتركها وحدها في هذه الصَّحراء ، فـاصطحبهـا في رحلته حتَّى أوصلها إلى المدينة ثمَّ عاد ، فما تحدَّث أحدٌ من أهل المدينة في شأنها ، ولا في شـأن عثمان بن طلحـة ، رغم مـا كان من تلـك الرِّحلـة من سعـة الـوقت ، وتعدُّد الفرص لمن أراد أن ينتهز فرصة .

الحقد والحسـد والضَّغينـة أكلت قلب ابن أُبَي بن سلول ، وملأتـه غيظـاً على الإسلام ورسـولـه ، ودفعت بـه إلى هـذا المـوقف الـدَّنيء ، وهـو صـاحب المـواقف

---

(٦٦) يلاحـظ قولـه : امرأة نبيِّكُم ، فهو لاعلاقـة لـه ، لـذلـك لم يقل : امرأة نبيِّنـا ، مـع التَّـوكيـد وتكراره لعبارات عديدة ، معناها واحد .

المعروفة مَغيظاً مُحْنقاً ، أصابته مذلّةٌ وهوان حتّى من ابنه ، فدخل المدينة ونفسه تفور من الغيظ على رسول الله ﷺ ، فجعل يتلمّس فرصة ينفّس بها عما يجيش في نفسه ، فما كاد يرى عائشة وصفوان عائِدَيْن حتّى وجدها أحسن فرصة يطلق فيها الوشاية ، ويشعل الفتنة الّتي عجز عن إشعالها بين المهاجرين والأنصار ، فراح يطلق لسانه بالإفك ليحقّق الوقيعة بين رسول الله ﷺ وأقرب المؤمنين إليه أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه ، ولتشكيك المسلمين في كرامة نبيِّهم ، وإثارة فتنة بين المسلمين بشكل عام .

وهذه الفرية لا تجوز حتّى على امرأة ساقطة ، إذ لا يمكن لامرأة ، مهما يكن من حمقها وسفاهتها ، أن تجاهر بأمرها هذه المجاهرة ، وأن تأتي هكذا في وضح النّهار ومعها رفيقها ، فتكشف ما خفي من مستور أمرها ، وتعلن على أعين النّاس أنّها قد أتت ماأتت ، وفعلت مافعلت ، فإن في غريزة المرأة ، مهما سقطت ، نزوعاً طبيعيّاً إلى التّجمُّل للنّاس ، والظُّهور أمامهم في أكمل مظهر تستطيعه ، حتّى لا يزهد النّاس فيها ، على الأقل ، إذا هي أعلنت حقيقتها ، فهل يكون من الجائز أن تجاهر بمثل هذا عائشة أُمُّ المؤمنين ، المثل الأعلى للمؤمنات ؟

من أجل هذا لم يكتف القرآن الكريم بتكذيب الفرية ، ونفي التُّهمة عن عائشة ، بل عالج الموقف من نواحيه جميعها ، علاج الحكمة البالغة الّتي تصون للأعراض الطّاهرة حرمتها ، وتقطع على الألسنة الكاذبة طريقها ، وتحفظ للمجتمع الإسلامي سمعته وكرامته[٦٧] .

ونقول لمؤرِّخنا الكبير : هل يجوز لإنسان ما أن يفتري على امرأة رآها في ظرف معين مع رجل غريب ، فيتّهمها بشرفها ؟ فكيف إذا كانت هذه المرأة

---

(٦٧) صُوَر من حياة الرّسول ، ص ٤٠٨ وما بعدها .

زوجة لرسول كعائشة ، أو أُمّاً لنبيٍّ كريم ، إنَّ عائشة برَّأها ربُّ السَّماء ، وليس جبريل ، كما برّأ مريم ربُّ السَّماء مِمَّا اتَّهمها به اليهود .

- ١٨ -

« وكان محمَّد قليل المسامحة نحو النِّساء ، مع ضعفه نحوهن ، وهو ، مع أنَّه لم يبلغ في شِدَّته درجة رجال التَّوراة ، وصفهنَّ في القرآن بأنَّهنَّ يُنَشَّأْنَ في الْحِلْية ، ويخاصِمْنَ من غير سبب » ، [صفحة ١٤٣] .

ماذا يريد (لوبون) من قوله بأنَّ محمَّداً ﷺ قليل المسامحة نحو النِّساء ؟

هل كان ﷺ غير متساهل معهن ، وتساهل مع الرِّجال ، مع ضعفه نحوهن ؟!

ما كان محمَّد ﷺ متساهلاً أو متشدِّداً لا مع الرِّجال ، ولا مع النِّساء ، إنَّه كان نبيّاً يتخلَّق بأخلاق الأنبياء ، وينفِّذ في تعامله مع هؤلاء وأُولئك إرادة الله وتشريعه ، الَّذي بعثه به ليتمَّ مكارم الأخلاق .

أمَّا عبارة (لوبون) : « مع أنَّه لم يبلغ في شِدَّته درجة رجال التَّوراة ..» فهي مرفوضة قطعاً ، فلا وجه للمقارنة ، أو التَّشابه هنا مطلقاً ، فالمرأة في التَّوراة غيرها كلِّيّاً في القرآن الكريم .

عند « رجال التَّوراة » : « وقال لآدم لأنَّك سمعتَ لقول امرأتك وأكلتَ من الشَّجرة الَّتي أوصيتُكَ قائلاً لا تأكل منها ملعونةٌ الأرضُ بسببك ، بالتَّعب تأكل منها كلَّ أيَّام حياتك ، وشوكاً وحسكاً تُنْبِتُ لك وتأكل عشب الحقل » ، [سفر التَّكوين ١٧/٣] .

وعند « رجال التَّوراة » : « وإلى رَجُلَكِ يكون اشتياقُكِ ، وهو يَسُودُ عليكِ » ، [التَّكوين ١٦/٣] .

وعنـد « رجـال التَّوراة » : « دُرْتُ أنـا وقلبي لأعلمَ ولأبحثَ ولأطلبَ حكمـةً وعقلاً ، ولأعرفَ الشَّرَّ أنَّه جهالةٌ ، والحمـاقـة أنَّهـا جُنُونٌ ، فوجـدتُ أمرَّ من الموت المرأة الَّتي هي شبـاكٌ ، وقلبهـا أشْراكٌ ، ويـداهـا قيودٌ ، الصَّـالح قُـدَّام الله ينجو منها ، أمَّا الخاطئُ فيؤخَذُ بها .. » ، [الجامعة ٢٥/٧ و ٢٦] .

أمَّا في الإسلام ، فالمرأة راعية في بيت زوجها ، وفي القرآن المجيد :

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة ٢٢٨/٢] .

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ ، [البقرة ١٨٧/٢] .

﴿ وَمِنْ آياتِهِ أنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِقَومٍ يَتَفَكَّرونَ ﴾ ، [الرُّوم ٢١/٣٠] .

ولسنا هنـا في معرض تقـديم بحث واسع عن الإسلام والمرأة ، ومكانتهـا عنـد الشَّرائع المختلفة مقارنـة ، ويكفينـا القول أنها في الإسلام (الْمُحْصِنَـة) ، وليست (أُحبولة الشَّيطان أو بابه) كما هي في الأديان الأُخرى .

لقـد رفـع الإسـلام المرأة من الـدَّرْك الأسفـل إلى مستـوى يكافئ مستـوى الرَّجل ، وسما محمَّـد ﷺ بهـا إلى مكان رفيع الـذُّرى لم تحلم بـه من قبل ، إلى مكان لامطمع بعده لمستزيد[٦٨] ، مع الوصيَّة الدَّائمة بالنِّساء خيراً ، كيف لا ، وقد جـاء القرآن الكريم يـزفُّ إليهـا البُشرى : ﴿ ادْخُلُـوا الْجَنَّـةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ .. ﴾ ، [الزُّخرف ٧٠/٤٣] .

- ١٩ -

« ولم يقل محمَّد إنَّـه يـأتي بـالخوارق مع إيمـانـه برسـالتـه ، وعزّ المسلمون إليـه

(٦٨) المثل الأعلى في الأنبياء ، ص ١٩٢ وما بعدها .

خوارق كثيرة مجاراةً للقول الشّائع بأن لانبوّة بغير خوارق ، وإليك قول مسيو كازيميرسكي الوجيز :

انشقّ القمر بطلبه ، ذات مرّة ، فِرْقتين على مشهد من الملأ ، ووقفت الشّمس بدعوته على الجبال حتّى يؤدّيَ عليٌّ صلاة العصر ، بعد أن أفاق النّبيُّ من غَفْوَتِهِ ورأسه على رُكْبَتَيْ علي ، الّذي أخبره بأنّه لم يؤدّها حرصاً على راحته ، وكان يظهر ، وهو المعتدل القامة ، أطول من كلِّ شخص يسير بجانبه ، وكان النّور يسطع من وجهه ، ويُشِعُّ من بين أصابعه حين يضع يده على وجهه ، وكانت الحجارة والأشجار والنّباتات تُسَلِّم عليه ، وتنحني أمامه ، وكانت الحيوانات كالظِّباء والذِّئاب والضِّباب والْجِدْيان تكلِّمه ، وكان الْجِنُّ يخافونه ويؤمنون برسالته لما له من السُّلطان المطلق عليهم ، وكان يَرُدُّ البصرَ للعُمْي ، ويشفي المرضى ، ويحيي الموتى ، وأنزل من السّماء مائدة لعليٍّ وأُسرته حين جاعوا ، وأنبأ بأن ذرِّيّة فاطمة سينالها جَوْر وعُدْوان ، وبأنّ مُلْكَ بني أُميّة سيدوم ألفَ شهر ، فحدث كما أخبر ، إلخ » ، [صفحة ١٤٣] .

غوستاف لوبون عالم كبير ، وهو يعلم أنّ الكتابة عن رجل عظيم مثل محمّد ﷺ لاتؤخذ من أفواه العامّة من النّاس ، أكانوا من أتباعه ، أو من غير أتباعه ، وإنّما تؤخذ من مصادر تثبت صحّتها ، ومن روايات صحّت بالتّواتر والإسناد الصّحيح ، فإذا كان بعض المسلمين قد عزوا إلى محمّد ﷺ الكثير من المعجزات والخوارق ، فعليه أن يمحّص القول .

إنّ معجزة محمّد ﷺ باعتباره آخر الأنبياء والرُّسل ، معجزة خالدة أبد الدّهر ، لاتنتهي بوفاته ﷺ ، إنّ معجزات الأنبياء السّابقين ذهبت بذهابهم ، ورآها مَنْ عاصرهم ، وصدّقها دون أن يراها من أتى بعدهم ، أمّا معجزة محمّد ﷺ فهي القرآن الكريم ، الكتاب المستمر الإعجاز ، ففي كلِّ فترة يرى العلماء فيه إعجازاً جديداً .

أمّا ما ذُكِرَ من خوارق ، فلا علاقة لها البتّة بإيمان المسلمين وعقيدتهم ، والرّسول الكريم ﷺ ماأتى بأيّة معجزة خارقة ليثبت بها صدق دعوته ورسالته ، إلاّ معجزة القرآن الكريم ، ومعظم ما ذكر (لوبون) على لسان كازيميرسكي ، فهي أُمور من خيال كاتبيها ، ولم يسمع بها المسلمون الأوائل ، فسيرته ﷺ خالية من مثل هذه الخوارق ، فلم تسجد له الأشجار ، ولم تكلّمه الحيوانات ، ولا أحيي الموتى ، ولا أنزل مائدة من السّماء .. حتّى ولو أنّ أُموراً خارقة حدثت له في حياته ، فإنّه ﷺ لم يجعلها آيةً يتحدّى بها ، ويدعو إلى الإيمان اعتماداً عليها ، بل كان جوابه لمن ربط بين وفاة ابنه إبراهيم وبين حادثة كسوف الشّمس ، الّتي حدثت يومئذٍ ، قوله ﷺ : « إنّ الشّمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته »(٦٩) ، وهو بذلك يدعم الإيمان بسُنّة الله وقوانينه في خلقه ، ويدحض اعتقادات العامّة في أسباب الكسوف وغيرها ، وبيّن ﷺ أنّ الظّواهر الطّبيعيّة والكونيّة لا تحدث لموت أحد أو لحياته ، بل إنّها تسير بحسب نظام أبدعه مبدع الكائنات ، وهو بذلك أيضاً يبني عقل الإنسان على مفاهيم المنطق السّليم ، والعلم الصّحيح .

- ٢٠ -

« القرآن هو كتاب المسلمين المقدّس ، ودستورهم الدّيني والمدني والسّياسي النّاظم لسيرهم ، وهذا الكتاب المقدّس قليل الارتباط ، **مع أنّه أُنزل وحياً من الله على محمّد** ، وأُسلوب هذا الكتاب ، وإن كان جديراً بالذّكر أحياناً ، عاطل من التّرتيب ، فاقدُ السّياق كثيراً ، **ويَسْهُل تفسير ذلك عند النّظر إلى كيفيّة تأليفه** ، فهو قد كُتب بالحقيقة ، تبعاً لمقتضيات الزّمن ، فإذا ما اعترضت محمّداً معضلةٌ أتاه جبريل بوحي جديد حلاًّ لها فَدُوِّن ذلك في القرآن » ، [صفحة ١٤٨] .

(٦٩) الحديث في البخاري عن المغيرة بن شعبة .

« ويَعُدُّ العربُ القرآن أفصح كتاب عرفه الإنسان ، ومع ما في ذلك من مبالغة شرقيَّة ، نعترف بأنَّ في القرآن آياتٍ موزونةً رائعة ، مما لم يسبقه إليه كتاب ديني آخر » ، [صفحة ١٤٩] .

عبارتان متناقضتان في مقطع واحد : « مع أنَّه أُنزل وحياً من الله على محَّمد » ، « ويَسْهُل تفسير ذلك عند النَّظر إلى كيفيَّة تأليفه » ، تناقض ، كتناقض من يقول : « دائرة مربَّعة » !!

وهل أصبح (لوبون) أحد كبار علماء اللُّغة العربيَّة ، وأحد أساطين الأدب العربي الَّذين أتقنوا معرفة أساليب الفصاحة والبلاغة والبيان ، حتَّى يجعل من نفسه حكماً على أُسلوب القرآن الكريم ، فيقول إنَّ في قول العرب عن فصاحة القرآن مبالغة أو غير مبالغة ، وإنَّ في آياته آيات موزونة رائعة لم يسبق إلى مثلها كتاب آخر ؟

إنَّ مثل هذا القول يُقْبَل من علماء العربيَّة وجهابذتها ، وممن عرفوا كنماذج عليا في فقه اللُّغة وآدابها .

ويقول (لوبون) : إنَّه كُتِبَ تبعاً لمقتضيات الزَّمن ، ويضيف بأنَّ جبريل يأتي بوحي ليحلّ كلَّ معضلة تواجه الرَّسول ﷺ ، إذن كان من الأجدر به أن يقول بأنّ القرآن الكريم لم يؤلَّف تأليفاً ، بل نزل به الوحي الأمين - جبريل - على قلب محَّمد ﷺ ، فكان يتلوه على أصحابه ، فيحفظونه ويكتبونه ، فجاءت آياته حسب تطوُّر الأحداث وضرورات التَّشريع ، وأي حرج أو مأخذٍ في ذلك ؟!

- ٢١ -

« ولم يكن محَّمد فيلسوفاً كبيراً ، أي من المفكِّرين المبَحِّرين الَّذين يقاسون

بمؤسِّسي دين البراهمة أو الديانة البُدَّهِيَّة[٧٠] ، فهو لم ينكر سبب الأسباب كما أنكره البُـدَّهِيُّون ، ولم يقل مثلهم بـأنَّ الكون موجـود بـالضَّرورة ، ذوانحـلال وتركيب دائمين ، ولم يتَّصف بنصف ماعند مؤلِّفي كتب البراهمـة المقـدَّسـة من الشَّـك ، ولم يُدْخِل إلى القرآن مثل التَّأمُّلات الآتية الَّتي تجدها في كتب الويدا ـ الڤيدا ـ:

مِنْ أينَ أتى هذا الكون ؟

أهو من صنع خالق أم لا ؟

يعلم ذلك من ينظر من فوق الفلك ، وقد لا يعلم » ، [صفحة ١٤٩] .

« **لم يكن محمَّد فيلسوفاً كبيراً** » ، بـالمعنى التَّقليـدي للكلمـة ، إنَّـه ﷺ نبيٌّ مرسل ، تخضع له الفلاسفة الكبار ، وتقرُّ له بالفضل ، وتعتنق تعـاليمـه ، فهم تبع له[٧١] .

« **فهـو لم ينكر سبب الأسبـاب كما أنكره البُـدَّهِيّـون** » ، إنّ إنكار مسبب الأسبـاب ، والقـول بـأزليّـة الـوجـود ، ووجـوده بـالضَّرورة ، قـول ينقضـه العلم الحـديث ، ولم ولن يقـول القرآن الكريم أو محَّـد ﷺ كلمـة واحـدة تخـالف العلم الحديث ، الَّذي أثبت مسبب الأسباب ، بـالاستنـاد إلى النَّتـائج الَّتي انتهى إليهـا أقطاب العلماء والباحثون المعـاصرون في مجـالات الفيزيـاء والكوزمولوجيـا[٧٢] ، ومبحث الأعصاب وجراحة الـدِّمـاغ ، وعلم النَّفس الإنسـاني ، « ثبت بمـا لا يـدع مجالاً للشَّك ، أن المادة ليست أزليَّـة ، آمنوا بعقل أزلي الوجود منتصب وراء هـذا الكون ، يدبِّره ويرعى شؤونه .. »[٧٣] .

---

(٧٠) مرّ التَّعريف بها في فصل من روائع لوبون الحاشية الخامسة .

(٧١) ولسنا هنا في صدد استعراض ، أو ذكر جميع كبار الفلاسفة الَّذين أقرُّوا بـالفضل ، ولكن نـذكّر بغوته ، وتولستوي ، وكارليل ، وهِدْلي ، ودينيه ، وغارودي .. على سبيل المثال .

(٧٢) Comology : علم الكوْن .

(٧٣) انظر مثلاً : (العلْم في منظوره الجديد) د . روبرت أغروس ، و د . جورج ستانسو ، ترجمة : كمال خلايلي ، سلسلة (عالم المعرفة) ، الكويت ، العدد ١٣٤

« ولم يتَّصف بنصف ماعند مؤلِّفي كتب البراهمة المقدَّسة من الشَّك .. » ، أمَّا الشَّكُّ ، فهو موقف فلسفي أصيل ، ولا يتكوَّن الموقف الفكري الأصيل إلاَّ بالشَّك ، والشَّكُّ المسألة الأساسيَّة الَّتي ارتكزت عليها تأمُّلات الرَّسول الكريم ﷺ ، الَّذي كان جاداً في تأمُّله ، جاداً في شَكِّه بما عليه الحال في الجاهليَّة ، ولكن يُقْطَع الشَّكُّ باليقين عند صحَّة القضيَّة ، فبعد نزول الوحي بآيات بيِّنات تُتْلى ، لا موطن للشَّك ولا مجال له ، لقد جاء القرآن الكريم لينهي شكَّ الإنسان الخام ، عندما وضع الحلول للمشكلات الكبرى بشكل شامل دقيق ، مما يثبت أنَّه وحيٌ منزل من لدن عزيز حكيم(٧٤) .

« ولم يُدْخِل إلى التَّأمُّلات الآتية الَّتي تجدها في كتب الويدا ـ الڤيدا ـ: من أين أتى هذا الكون ؟ أهو من صنع خالق أم لا ؟.. » ، عجيبة جداً هذه العبارات ، عكسها تماماً عين الحقيقة ، فعشرات الآيات توضِّح بجلاء من أين أتى هذا الكون ، وأنَّه من صنع خالق حكيم : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ العَلِيمُ ﴾ ، [الحجر ١٥/٨٥و٨٦] ، ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ ، مَاخَلَقْنَاهُمَا إلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ، [الدُّخان ٤٤/٣٨و٣٩] .

---

(٧٤) ولا يمكن لعقل بشري إذا قام عنده الدَّليل الصَّحيح على أمر ما أن يرتاب فيه ، لقد تفشَّى إنكار الوحي في التَّوراة والأناجيل من التَّضارب والتَّنافر ما لا تقوى العقول على قبوله ، حتَّى بيكون الإنكليزي كان يعلن اللاَّهوتيَّة ، ويضمر الإلحاد .
بينما طابق القرآن الكريم مطالب العقل مطلقاً ، وإذا أراد القرآن قاضياً ليحكم بوحيه الإلهي فإلى العقل مرجعه ، وإذا حاجَّ فبحكم العقل ، وإذا سخط فعلى معطِّلي العقل ، أو رضي فعن أولي العقل .. (الإسلام دين الفطرة والْحُرِّيَّة) للشَّيخ عبد العزيز جاويش .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ ﴾ ، [الأعراف ٥٤/٧] .

أمّا الڤيدا[٧٥] الَّتي وجد فيها (لوبون) تأملات رفيعة المستوى ، أقدم آلهة فيها هي قوى الطَّبيعة ، وعناصرها : السَّماء والشَّمس والأرض والنَّار والضَّوء والرِّيح والماء والجنس ، فَديُوس إله السَّماء ، ثمَّ جعلوا السَّماء أباً ، وأسموها ڤارونا ، وجعلوا الأرض أُمّاً وأطلقوا عليها اسم بريثيڤي ، وكان النَّبات هو ثمرة التقائها بوساطة المطر ، وكان المطر هو الإله بارجاينا ، والنَّار هي آجني ، والرِّيح كانت ڤايو ، وأمَّا إن كانت الرِّيح مهلكة فهي رودْرا ، وكانت العاصفة هي إندرا ، والفجر أوشاس ، ومجرى المحراث في الحقل كان اسمه سيتا ، والشَّمس مترا ، أو ڤشنو ، والنَّبات المقدَّس المسمَّى سوما ، والَّذي كان عصيره مقدَّساً ومسكراً للآلهة والنَّاس معاً ، كان هو نفسه إلهاً يقابل في الهند ما كان يسمّى يونيسوس عند اليونان ، فهو الَّذي يوحي للإنسان بمادَّته المنعشة ، أن يفعل الإحسان ، ويهديه إلى الرَّأي الثَّاقب ، وإلى المرح ، بل يخلع على الإنسان حياة الخلود .

والشَّمس الَّتي تولد الحيَّ من الحيِّ أصبحت إلهاً عظيماً هو (براجاباتي) ، أي ربّ الأحياء جميعاً .

---

(٧٥) إن كلمة (الڤيدا) معناها : كتاب المعرفة ، بقي من الڤيدات الكثيرة ، الّتي شهدها الماضي أربعةُ أسفار :

١ ـ سفر رج ، أو معرفة ترانيم الثّناء .

٢ ـ سفر ساما ، أو معرفة الأنغام .

٣ ـ سفر باجور ، أو معرفة الصِّيغ الخاصَّة بالقرابين .

٤ ـ سفر أتارڤا ، أو معرفة الرقى السِّحريَّة .. [قصة الحضارة ٣٨/٣] .

ولبثت النَّار ، وهي الإله (أجني) ، حيناً من الدَّهر أهم آلهة الڤيدا كلِّها ، إذ كان هذا الإله هو الشُّعلة المقدَّسة الَّتي ترفع القربان إلى السَّماء ، وكان هو البرق الَّذي يثب في أرجاء الفضاء ، وكان للعالم حياته النَّاريَّة ، وروحه المشتعلة ، غير أنّ (إندرا) الَّذي ينصرف في الرَّعد والعاصفة ، كان أشيع الآلهة ذِكْراً بين النَّاس ، لأنَّه هو الَّذي يجلب للآري الهندي الأمطار النَّفيسة الَّتي بدت له عنصراً جوهرياً يكاد يزيد في أهميَّته للحياة على الشَّمس ذاتها ، ولذا فقد جعلوه أعظم الآلهة مقاماً ، يلتمسون معونة رعوده في حومات القتال ، وصوَّروه ـ بدافع الحسد له ـ في صورة البطل الجبَّار الَّذي يأْكل العُجُول مئات مئات[٧٦] .

ولما كثر عدد الآلهة نشأت مشكلة هي : أيُّ هؤلاء الآلهة خلق العالم ؟

ونتساءل بعد هذا : لماذا هذا التَّمجيد الكبير ـ والمفتعل ـ للڤيدا على حساب القرآن ؟

الجواب : كتب الڤيدا بالسَّنسكريتيَّة ، الَّتي كان يكتبها الآريُّون الهنود ، والَّتي تُعَدُّ من أقدم مجموعات اللُّغات (الأُوربيَّة ـ الهنديَّة) ، بل هي أقدم أثر أدبي في أيَّة لغة هندو ـ أُوربيَّة في الشَّرق والغرب ، الَّتي ـ كما يقول وُل ديورانت[٧٧] ـ **تنتمي إليها لغتنا الَّتي نتحدَّث بها** ، فإننا نشعر للحظة من الزَّمن شعوراً عجيباً باتِّصال حلقات الثَّقافة عبر هذه الآماد الفسيحة من الزَّمان والمكان ، حين نلاحظ أوجه الشَّبه في السَّنسكريتيَّة واليونانيَّة واللاَّتينيَّة والانجليزيَّة بين الألفاظ الَّتي تدلُّ على الأعداد وعلى أنواع الصِّلة في الأُسرة ...

هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية ، فالفرنسي رينان Renan ، الَّذي كان معاصراً للوبون[٧٨] ، روَّج إلى تصنيف البشر إلى ساميِّين وآريِّين ، وتقرير تفوُّق

---

(٧٦) قصة الحضارة ٣٢/٣

(٧٧) قصة الحضارة ٣٦/٣

(٧٨) أرنست رينان Renan [١٨٢٣ ـ ١٨٩٢ م] ، كاتب وعالم أثري فرنسي .

الجنس الآري في مجال الفلسفة ، كما في مجالات أُخرى ، إذ يقول : « ما يكون لنا أن نلتمس عند الجنس السَّامي دروساً فلسفيَّة ، ومن عجائب القدر أنَّ هذا الجنس الَّذي استطاع أن يطبع ما ابتدعه من الأديان بطابع القُوَّة في أسمى درجاتها ، لم يثمر أدنى بحث فلسفي خاص ، وما كانت الفلسفة قط عند السَّاميِّين إلاَّ اقتباساً صرفاً جديباً وتقليداً للفلسفة اليونانيَّة »(٧٩) .

وقال رينان أيضاً : « فمنذ القِدَم كان الفكر السَّامي ، بطبيعته ، مضاداً للفلسفة رافضاً للعلم »(٨٠) .

وهكذا ، إنَّ الرؤية الاستشراقيَّة تصرِّح علناً بالتَّفوُّق البيولوجي للآريِّين ، وتتحامل على العقل العربي الإسلامي ، فهي لا ترى إلاَّ الفكر الأُوربي منظوراً إليه فكراً للإنسانيَّة جمعاء .

- ٢٢ -

« وكان من مقاصد محمَّد أن يقيم ديناً سهلاً يستمرئه قومه ، فوفِّق لذلك حين أخذ من الأديان الأُخرى ما يلائمهم ، ولم يفكِّر محمَّد قط في إبداع دين جديد ، وهو الَّذي أعلن أنَّه يسير على غرار من تقدَّمه من أنبياء بني إسرائيل من إبراهيم إلى عيسى قائلاً إن ما أُوحي إليهم صحيح ، فالحقُّ أن اليهوديَّة والنَّصرانيَّة والإسلام فروعٌ ثلاثة لأصل واحد ، وهي ذات قُرْبى وشيجة » ، [صفحة ١٥٠] .

إنَّ عبارات (لوبون) هذه ، مردودة عليه من النَّاحية العلميَّة ، بل هو نفسه في أماكن أُخرى من كتابات يردُّ على نفسه ، فيقول هنا : إن من مقاصد

---

(٧٩) مناهج المستشرقين ٣٠٩/١

(٨٠) مناهج المستشرقين ٢٤/٢ ، وأكَّد هذه النَّظرة : أميل برهيه (المرجع ذاته ٣١٦/١) ، وديبور ٣٢٣/١ ، وأميل فيلكس قوتيي ٢٢/٢ ..

محمّد - ﷺ - أن يقيم ديناً سهلاً يستمرئه قومه ، فهل كان هذا الدِّين من صنعه حتَّى يقيمه كما يشاء ؟ وهل تسمح ثقافته ﷺ وعلمه وبيئته أن يفعل ذلك ؟

ثمَّ يقول : وأخذ من الأديان الأُخرى ما يلائمهم ، ولم يفكِّر محمَّد قط في إبداع دين جديد .

أين درس محمَّد اليهوديَّة والنَّصرانيَّة ، حتَّى أخذ منها ما يشاء لصنع دين جديد ؟ ونرجو ألا يكون الرَّدُّ ، أخذ ذلك وهو طفل صغير ، وخلال ساعات قليلة ، من الرَّاهب بَحِيرى ، كما نرجو ألاَّ يقال بأنَّـه انتقل سِرّاً من مكَّة إلى يثرب ، فأخذ من يهودها ، ولو فعل ذلك لفضحوه مستقبلاً حين أصبحوا ألدَّ خصومه .

والأمر الآخر ، ماهي الأُمور الَّتي رآها (لوبون) في الإسلام وهي مقتبسة من اليهوديَّة أو النَّصرانيَّة ، اللَّهمّ إلاَّ الدَّعوة إلى عبادة إله واحد ، وهي قاعدة تقوم عليها كلُّ ديانة سماويَّة .

أمَّا التَّشريع الإسلامي في العبادة والمعاملات والاقتصاد والسِّياسة فلا وجود لها مطلقاً في النَّصرانيَّة ، وتختلف كلَّ الاختلاف عمَّا هي عليه عند اليهود ، فكيف يصدر عن (لوبون) حكمه بأنَّ محمَّداً لم يفكِّر في إبداع دين جديد ، إنَّ ما يصحُّ أن يُقال هو أنَّ محمَّداً لم يفكِّر فعلاً في إبداع دين جديد ، لأنَّ الأمر ليس منه ، بل هو من الله الَّذي قدَّر وهدى ، وأوحى إلى رسوله محمَّد ﷺ ما أوحى ، وهو يؤكِّد على صدق نبوَّة من سبقه من الأنبياء والرُّسل ، دون أن يؤكِّد على صحَّة ما بأيدي النَّاس من كتب أُولئك الرُّسل :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ ، [الشُّورى ١٣/٤٢] .

- ٢٣ -

« وإنَّني أنقل من القرآن بضع آيـات في كلِّ موضـوع مُهِمٍّ ، وأُرتِّب مـا نقلتـه من آياتـه بحسب الموضوعـات ، نظراً إلى أن مـا ورد فيـه من الآيـات في الموضوع الواحد مبعثر في سُوَره في الغـالب » ، [صفحـة ١٥٠] ، ثمَّ يقول (لوبون) : قـال محمَّد ، ويذكر آيـات من القرآن الكريم ، كما في الصَّفحـات : ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ..

من أوَّل صفات العالِم الصِّدق في نقل ما ينقل ، فهل قال محمَّد ﷺ حين كان يتلو آية من القرآن الكريم أنَّني أنا قلت أو أقول ذلك ؟ لا ، إنَّه كان يعيـد القولَ إلى صاحب القول ، لقد قـال : أوحى الله تعـالى إليَّ ، فوجب على العـالم المنصف أن يقول : قـال محمَّـد ﷺ بـأنَّ الوحيَ نزل عليـه بكـذا وكـذا ، أمَّـا أن يُصَـدِّق (لوبون) أو لا يصدِّق ، فهذا شيء آخر .

مع أن المكابرة بظاهرة الوحي بعد الإعجـاز العلمي في القرآن الكريم مكابرة في المحسوس ليس غير .

- ٢٤ -

« ومـا جـاء في القرآن من نصٍّ على خَلْـق السَّماوات والأرض في ستَّـة أيَّـام ، وخلق آدم ، والجنَّـة ، وهبوط آدم منهـا ، ويوم الحسـاب مقتبسٌ من التَّـوراة » ، [صفحة ١٥٣] .

لماذا يؤكِّد (لوبون) على أنَّ ما يرد من آيات فيها تشـابـه ، وقـد وردت في القرآن الكريم وفي التَّوراة أنَّها مقتبسـة من التَّوراة ؟ إنَّ في ذلـك مجـانبـة للحقِّ ، فلماذا لا يقول : إنَّ المصدر الإلهي الواحد أوجد هـذا التَّشـابـه في بعض الآيـات ؟ وماذا يقول ياترى في الآيات الأُخرى العظيمة المختلفة كُلِّيّاً ؟ وماذا يقول بآيـات

القرآن الكريم الَّتي تحدَّثت عن تاريخ بني إسرائيل مع أنبيائهم ، فهل ورد مثلها في التَّوراة أو الإنجيل ؟

إنَّ الأُمور الأُخرويَّة والغيبيَّة المتعلِّقة بالخلق والجنَّة والنَّار والحساب ، وبعض الأحداث التَّاريخيَّة في خطوطها الرَّئيسة ، يجب أن تكون متشابهة ، أمَّا الآيات الأُخرى ، أو الجزء الكبير منها ، فقد اعتراها بالنِّسبة للتَّوراة تبديل وتحريف كبيران ، حيث كُتِبت التَّوراة على أيدي أحبار اليهود في سنوات متأخِّرة جدّاً عن عهد نزول التَّوراة ، أي بعيدة عن عهد موسى عليه السَّلام ، فكتبها أُولئك الأحبار كما أرادوها هم ، وكما أرادوا أن يصوِّروا من خلالها تاريخهم ومستقبلهم ، فجاءت كثيرة الأخطاء ، بعيدة عن روح التَّسامح والمساواة الَّتي عرفت بها الديانات السَّماويّة ، بل وامتلأت بما في نفوسهم من عقد الذُّنوب والآثام والأحقاد والتَّعصُّب والعنصريَّة .. مما لا يمكن أن يصدر عن ربِّ السَّماوات والأرض ، خالق البشريَّة .

- ٢٥ -

« إذا رَجَعْنا القرآن إلى أُصوله ، أمكننا عَدُّ الإسلام صورةً مختصرة من النَّصرانيَّة ، مع ذلك ، في كثير من الأُصول ، ولا سيَّما في التَّوحيد الَّذي هو أصلٌ أساسي ، فالإله الواحد الَّذي دعا إليه الإسلام مهيمنٌ على كلِّ شيء ، ولا تَحُفُّ به الملائكة والقدِّيسون وغيرهم ممن يُفْرَض تقديسهم ، وللإسلام وحده كلُّ الفَخَار بأنَّه أوَّل دين أدخل إلى العالم التَّوحيدَ المحض » ، [صفحة ١٥٨] .

ليس هذا فحسب ، بل مع التَّوحيد مخاطبة العقل لا العاطفة ، فالإسلام دين ترقِّي وتقدُّم ، ففيه يوزن مداد العلماء بدم الشُّهداء ، فيرجح مداد العلماء على دمِّ الشُّهداء ، وما كان ﷺ يبغض شيئاً بغضه لتعطيل العقل وعدم الأخذ

بالأسباب ، وبغضه للشَّرائع والقوانين الجامدة الَّتي تقيِّد العقل فتقوده صاغراً أعمى[٨١] .

وبالعقل ، تأْتي الطمأنينة بما يعتقده المرء ، بلا خطل أو زلل أو ضلال .

وللإسلام الفخر ، كل الفخر ، بأنَّه أوَّل دين أدخل إلى العالم التَّوحيد الخالص ، ولكن (لوبون) يشوِّش ماقال ، عندما عَدَّ الإسلام صورة مختصرة من النَّصرانيَّة ، وكم كنّا نتمنّى أن يعطينا تلك الجوانب الَّتي تجعل من الإسلام صورة مختصرة من المسيحيَّة !!.

الإسلام لا يشكِّل تلك الصُّورة المختصرة ، بل نُريد أن نعكس الأمر لنقول : إذا كانت النَّصرانيَّة تدعو إلى وحدانيَّة الله ، فهي بهذا الأساس ـ الَّذي شوهته عقائد وثنيَّة دخيلة ـ تلتقي مع الإسلام ، ومع كلِّ ديانة سماويَّة أُخرى من عهد إبراهيم أبي الأنبياء ، إلى محمَّد ﷺ خاتمهم ، ذلك أنَّ من الطَّبيعي أن يكون التَّوحيد هو جوهر كلِّ دين سماوي ، لكن النَّصرانيَّة لم تعرف التَّشريعات الَّتي تقوم عليها حياة البشر ، لهذا اعتمدت القول : « دع ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » ، وهذا ما لا نجده في الإسلام ، حيث كلُّ شيء لله ، وهو الَّذي أرسل محمَّداً ﷺ لبيان التَّشريعات الَّتي تضمن سعادة البشر في دنياهم وأُخراهم ، وحين احتاجت النَّصرانيَّة بعض تشريعاتها ، أخذتها من توراة اليهود وتشريعاتهم ، بعد أن كان أحبارهم قد غيَّروا فيها ، وبدَّلوا ماشاء لهم أن يبدِّلوا ويغيِّروا ، ومن هنا دخلت الأفكار التَّوراتيَّة إلى العقليَّة النَّصرانيَّة لتلعب دورها عن طريق الإيمان والتَّسليم بما أوردته التَّوراة ، مما أصبح يعتقد وكأنَّه من الله ، وما هو منه في شيء .

---

(٨١) حاضر العالم الإسلامي ٢٧١/١

« وكانت دولة الرُّوم ، الَّتي نهكتها محارباتها لدولة الفُرْس ، والَّتي كانت تعاني عوامل الانحلال الكثيرة ، في دور الانحطاط ، فلم تكن غير هيكل نَخِرٍ يكفي لتداعيه أقلُّ صدمة » ، [صفحة ١٦٦] .

« ولو كانت أركان العالم متداعيةً كالدَّولة الإغريقيَّة الرُّومانيَّة ، والدَّولة الفارسيَّة في زمن ظهور محمَّد ، فقد كانت تلك الدَّولتان مرهوبتين ، مع ما كان يبدو من وهنهما ، فكان لابدَّ للأُمَّة الَّتي تريد محاربتهما من أن تكون ذات صفات حربيَّة عظيمة ، فضلاً عن معتقداتها الَّتي تُوَجِّه جهودها إلى غرض واحد ، ولم يحتج العرب إلى ما يتطلَّبه مثل ذلك العمل الجليل من الشَّجاعة وحبِّ القتال ما ورثها العرب أباً عن جدّ ، مضافاً ذلك إلى ما نشأ عن إيمان العرب الجديد من حرصهم على الشَّهادة حُبّاً للجنَّة الَّتي وُعِدوا بها » ، [صفحة ١٦٨] .

« وُلِدَ محمَّد في أحسن الأوقات ، فقد رأينا أن العالم الْمُسِنَّ كان متصدِّعاً فيه من كلِّ جانب ، فلم يتوجَّب على أتباع محمَّد إلاَّ أن يَهُزُّوه ليتساقط » ، « بيد أن القضاء على دولة لا يكفي لإقامة حضارة » ، [صفحة ٧١٥] .

الحروب تضعف الأُمم أحياناً ، ولكنها لاتسوقها كما تُصَوِّر عبارة (لوبون) إلى الانحلال والانهيار ، إنَّ دولة الرُّوم لم تكن هيكلاً نخراً يكفي لتداعيه أقلّ صدمة ، إنَّها دولة ذات إمكانات جبَّارة ، ومساحات واسعة ، وثروات عظيمة ، استطاع قائدها الجديد (هرقل) بعد هزيمتها أمام الفرس أن يوحِّدها ويعيد إليها قوَّتها ، وأن يستعيد مجدها العسكري ، وأن ينتصر على دولة الفرس السَّاسانيَّة ، وأن يستعيد منها ما أخذته من ولاياتها كبلاد مصر والشَّام .

وكذلك دولة الفُرْس ، فهي دولة عسكريَّة قويَّة ، فمنذ سنوات قليلة قبل

فتوح العرب المسلمين ، كانت قد أحرزت انتصارات عظيمة على الرُّوم ، وانتزعت منهم الشَّام ومصر ، لكن بعض المؤرِّخين يريدون أن يصوِّروا هاتين الامبراطوريَّتَيْن بتلك الصُّورة من الضَّعف والانحلال ليقلِّلوا من قيمة الفتوحات العربيَّة الإسلاميَّة ، الَّتي كان لها النَّصر المبين على الدَّولتين العظيمتين في وقت واحد ، وهذا ما يدلُّ عليه قول (لوبون) في العبارة الَّتي تلت : « فقد كانت تانك الدَّولتان مرهوبتين مع ماكان يبدو من وهنهما ، فكان لابُدَّ للأُمَّة الَّتي تريد محاربتهما من أن تكون ذات صفات حربيَّة عظيمة ، فضلاً عن معتقداتها الَّتي تُوَجِّه جهودها إلى غرض واحد ، ولم يحتجِ العربُ إلى ما يتطلَّبه مثل ذلك العمل الجليل من الشَّجاعة وحبٍّ القتال ماورثها العرب أباً عن جدّ ، مضافاً ذلك إلى مانشأ عن إيمان العرب الجديد من حرصهم على الشَّهادة حُبّاً للجنَّة الَّتي وُعِدُوا بها » ، ولكن الغريب في الأمر أنّ (لوبون) الَّذي أكَّد في عبارته السَّابقة على عظمة دور العرب المسلمين في النَّصر على دولتي الرُّوم والفرس بما ملكوه من تقاليد الشَّجاعة وحبٍّ القتال ، وما أوجده فيهم الدِّين الجديد من حبٍّ للشَّهادة ، ودخول الجنَّة .. يعود (لوبون) ليقول : بأنَّ العالم كان متصدِّعاً من كلِّ جانب ، فلم يتوجَّب على أتباع محمَّد ، إلاَّ أن يهزُّوه ليتساقط ..

إنَّها الصُّورة الأُولى الَّتي تقلِّل من أهميَّة الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة وجهودها في تحقيق الانتصار ، وكأنَّ الأمر كمن يهزُّ شجرة النَّخيل ليتساقط ثمرها بين يديه ، لقد بذلت دولة الإسلام من الجهود ، وأظهرت من الإمكانات والبطولات في مجالات الفكر السِّياسي ، والتَّخطيط العسكري ، ما يرفعها إلى أعلى درجات المجد ، ويجعل عدداً من خلفائها وقادتها رجالاً أفذاذاً في تاريخ العالم .

و (لوبون) ينبِّه - بحقٍّ - إلى أنَّ القضاء على دولة لا يكفي لإقامة حضارة .

صحيح إنَّ العرب المسلمين قضوا على الدَّولة السَّاسانيَّة ، وحطَّموا بيزنطة في بلاد الشَّام ومصر .. لكن الأهم من هذا وذاك أنَّهم أقاموا على أرض دولتهم الواسعة الجديدة ، وعلى أنقاض الدُّول المهزومة أمامهم ، حضارة مازال علماء العالم حتَّى اليوم يتحدَّثون عن مدى تقدُّمها في العلوم المختلفة ، وكثرة علمائها واختراعاتهم واكتشافاتهم واتِّساع أُفق تفكيرهم ، وانتفاعهم من منابع العلوم والحضارة أينما وُجِدَت ، ومتابعة السَّير في طريق العلم ، ورائدهم في ذلك سلوك طريق البحث العلمي القائم على الملاحظة والتَّجربة ، يأخذون العلم من أيَّة جهة جاءهم منها ، ولكن يُعْمِلُون به عقلهم نقداً وبحثاً ودراسةً وتقدُّماً .

إنّ مقولة : « لقد كان ظفر الإسلام محتَّماً ، وفتحه سهلاً محقَّقاً » ، لأنَّه صادف أُمَّة خامرها الفساد في أخلاقها ـ كما هي الأُمَّة البيزنطيَّة والفارسيَّة ـ « فليس بقادح فيما ثبت للعرب الفاتحين حينئذٍ من البسالة الفائقة ، والحماسة المدهشة ، وجميع الفضائل العسكريَّة من إخلاص وصبر وقناعة وعلو نفس ، وبعد همَّة ، وبصيرة بالحرب »[٨٢] .

وفي ختام هذه الفقرة نقدِّم الملاحظات التَّالية[٨٣] :

١ ـ انتصر المسلمون في الجزيرة العربيَّة ، وهم قِلَّة ، على إخوانهم وأبناء عمومتهم وهم كثرة ، كما انتصروا في حروبهم ضدَّ المتنبِّئين أيام أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه ، على كثرتهم السَّاحقة وقلة عدد المسلمين أيضاً .

٢ ـ وانتصار المسلمين على الرُّوم والفُرْس ، انتصار على أضعاف عددهم ، ألا يكفي الرُّوم في بلاد الشَّام ، أنَّ مئة ألف عربي متنصِّر كانوا معهم في اليرموك ؟ وترتيبات الفُرْس والرُّوم عريقة ، وإمداداتهم وعتادهم عظيمان ، وهما

(٨٢) حاضر العالم الإسلامي ١٨٣/١

(٨٣) آراء يهدمها الإسلام ، (انتصار واهن) ، ص ٦٣

يحاربان في أراضيهما ، وضمن ديارهما ، ولا يقارن عتاد المسلمين وتموينهم بما لدى الفُرْس والرُّوم .

٣ ـ لم يحارب المسلمون الرُّومَ ثمَّ الفُرْس ، بل فتحوا جبهَتَيْن في آنٍ واحد ، كلٌّ منهما أغنى منهم رجالاً ومالاً وخبرة ومراساً ، فعندما خرج المسلمون فاتحين من جزيرتهم ، كان الرُّوم يستصغرون شأنهم ، وكان الفُرْس يحتقرون قدراتهم ، ويسمُّونهم الجياع .

٤ ـ النَّصر العسكري ، شيء عظيم ، والأعظم منه انتصار العقيدة ، لقد استمرت حروب الفُرْس والرُّوم فيما بينهما أربع مئة سنة ، دون حسم ، ولما جاء الإسلام فلَّت العقيدةُ كلَّ سلاح ، لقد تبع النَّصرَ العسكري ، نصرٌ في مجال العقيدة ، وهنا يكمن جانب عظيم من عظمة الإسلام ، عندما نقل الشُّعوب إلى الإسلام ، فكان النَّصر الحقيقي ، انتصار العقيدة ، لا انتصار الجسد وعضلاته .

٥ ـ وحارب المسلمون البربر ، وهم أبناء شدَّة ، وبيئة قاسية ، وانتصروا عليهم عسكرياً ، ولكنهم نقلوهم إلى الإسلام ، فقاموا معهم ليبلِّغوا العالم الرِّسالة الإسلاميَّة .

كما حارب المسلمون التُّرك في ما وراء النَّهر ، وتمَّ للمسلمين النَّصر على التُّرك ، وهم أبناء صحراء ، وأبناء بيئة قاسية صقلتهم ، ولم يلبثوا أن اعتنقوا الإسلام ، وأصبحوا جنده الأوفياء .

ومع هذه الانتصارات ، إنَّ الحروب الأُولى للمسلمين ، لم تكن هدفاً بذاتها ، لقد كانت وسيلة للوصول إلى الشُّعوب لتبليغ رسالة الله سبحانه وتعالى .

ـ ٢٧ ـ

« ولكن العرب كانوا يجهلون فنَّ الحرب جهلاً تامّاً ، ولا تقوم الشَّجاعة مقام

هـذا الفنّ ، وكان اقتتـال العرب فيا بينهم من نـوع اقتتـال البرابرة الّـذين كانـوا ينقَضّون على أعدائهم بـدون نظـام ، ولا يحـارب كلٌ واحـد إلاّ من أجل نفسـه ، وكان غير ذلـك أمر الفُرْس والرُّوم ، الّـذين كانت معرفتهم لفنّ الحرب عظيمـة جدّاً ، كما ظهر في اشتباكهم الأوّل بـالعرب ، والعربُ لم يلبثوا أن عَلِموا من الهزائم الّتي أصابتهم في سوريّة ، مـاكان يعوزهم ، فـاقتبسوا من قـاهريهم بسرعـةٍ الشيءَ الكثير من شؤون الحرب .. » ، [صفحة ١٦٩] .

إن قول (لوبون) : « .. الفُرْس والرُّوم ، الّـذين كانت معرفتهم لفنّ الحرب عظيمة جدّاً » ، يناقض ماقاله سابقاً : « فلم تكن غير هيكل نَخِرٍ يكفي لتـداعيـه أقلُّ صدمة » .

صحيـح أنّ العرب اقتبسـوا من قـاهريهم بسرعـة الشّيء الكثير من شـؤون الحرب ، لكن الأصـح والأدق من ذلـك أن نقـول : إنّ العرب بعـد أن وحّـدهم الإسـلام ، وأخرجهم من ظـلام عصبيّـاتهم الجـاهليّـة ، ودفعهم إلى طريـق العلم والبحث والاقتباس ، تعلّموا الكثير منـذ أيّـامهم الأُولى ، وقبل أن يصلوا إلى بلاد الشّام ، وإلى العراق وفارس .

ففي غزوة بدر الكبرى استخدم المسلمون بقيادة الرّسول الكريم ﷺ ، نظـام الصّف في القتال ، بدلاً من الكرّ والفرّ .

وفي غزوة الأحزاب ، استخدم المسلمون الخندق ، حفروه وتحصّنوا وراءه .

وفي حصار الطّائف نصبوا المنجنيق ..

وفي معـاركهم في حروب الرِّدّة ، وفي بـدايـة حروبهم في العراق والشّـام ، استخدموا عنصر المباغتة ، وإضعاف معنويات العدو ، وطرق التّجمّع بعد تبديـد قوّات العـدو ، وطرق تقسيم الجيش إلى كراديس ، كلٌّ ذلـك يمكّنـان من القول لم يكن تعلُّم المسلمين وقفاً على ماأخذوه من الرُّوم في سوريّة .

أمّا كلمة (قاهريهم) ، فلنا اعتراضٌ عليها ، متى قهرهم الرُّوم حتَّى نعطيهم لقب (قاهريهم) ؟ المعركة الوحيدة الَّتي كانت غير متكافئة ، وانسحب العرب المسلمون في بدايات لقائهم مع الرُّوم هي معركة مؤتة ، وكانت خسائرهم فيها محدودة جداً ، وكان انسحابهم انتصاراً كما رآه الكثيرون ، ثمَّ توالت بعد ذلك انتصاراتهم على أيدي قادة الفتوح في بلاد الشَّام .

- ٢٨ -

« وبعد أن مَلَكَ السَّلجوقيُّون جميع الولايات المجاورة لبغداد ، جعلوا مقرَّهم أمام القسطنطينيَّة[٨٤] ، واستولوا على سوريَّة وأحلُّوا التَّعصُّب محلَّ تسامح العرب ، فنهوا النَّصارى عن القيام بشعائر دينهم ، وجاروا على حجيجهم فاضطربت أُوربة لذلك وثارت ، بعد أن كانت تخشى تقدُّمَ المسلمين منذ زمن طويل » ، [صفحة ١٨٠] .

ليست هذه أسباب الحروب الصَّليبيَّة ، إنَّها مغالطة نَأْسف لصدورها من علاَّمة كبير ، كالفيلسوف (لوبون) .

الحروب الصَّليبيَّة الَّتي بدأت الدَّعوة لها سنة ١٠٩٥ م ليست إلاَّ استمراراً لحركة الحجِّ الجماعي إلى بيت المقدس ، مع حدوث تطوُّر في الأُسلوب ، وهو أنَّ الحجَّ الجماعي صار حربيّاً ، بعد أن كان سلميّاً ، فالحجَّاج الَّذين خرجوا سنة ١٠٦٤ م مع رئيس أساقفة مينز ، بلغوا سبعة آلاف حملوا معهم أسلحة للدِّفاع - كما يدَّعون - عن أرواحهم في الطَّريق ، فهل هناك فارق بين ذلك الموكب ، وأيَّة حملة صليبيَّة تالية ، سوى في الأُسلوب الَّذي اتَّبعه كلُّ فريق في بلاد الشَّام ؟

أمَّا ذلك التَّطوُّر في الأُسلوب ، فمرجعه تلك الأخبار الَّتي أخذت تصل إلى الغرب الأُوربي عن سوء معاملة الحجَّاج بعد امتداد السَّلاجقة إلى بيت المقدس سنة

(٨٤) قونية : عاصمة سلطنة الرُّوم السَّلجوقيَّة ، من سنة ١٠٨١ ، وحتَّى ١٣٠٢ م .

١٠٧١ م ، ثمَّ إلى أنطاكية سنة ١٠٨٥ م وطرد البيزنطيِّين منها ، مما جعل الغرب يؤمن بأنَّه لابُدَّ من استخدام القوَّة لتأمين عمليَّة الحجّ إلى الشَّام .

إنَّ المبالغة في سوء أحوال المسيحيِّين في البلاد الإسلاميَّة في العصور الوسطى ، وما تعرَّضوا له من اضطهاد ، وكيف أنَّ كنائسهم خربت ، وأديرتهم أُغلقت ، وطقوسهم عطِّلت .. مدخل مضلِّل بعيد عن الحقيقة والتَّاريخ ، ودخول من باب وهميٍّ يصرف عن المدخل الحقيقي إلى أسباب الحروب الصَّليبيَّة .

وإذا كان دعاة الحروب الصَّليبيَّة في أواخر القرن الحادي عشر قد دأبوا على الدِّعاية لحركتهم في غرب أُوربة عن طريق المناداة بأنَّ أحوال المسيحيِّين في آسية الصُّغرى والشَّام قد ساءت تحت حكم السَّلاجقة ، فإنَّ هناك أكثر من مؤرِّخ أُوربي مسيحي منصف قرَّروا في صراحة تامّة ، أنَّ السَّلاجقة لم يغيِّروا شيئاً من أوضاع المسيحيِّين في الشَّرق ، وأنَّ المسيحيِّين الَّذين خضعوا لسلطان السَّلاجقة ، صاروا أسعد حالاً من إخوانهم الَّذين عاشوا في قلب الامبراطوريَّة البيزنطيَّة ذاتها ، يقول ثومبسون Thompson : « وإنَّ ما اعترى المسيحيِّين في الشَّام وآسية الصُّغرى من متاعب في ذلك العصر ، إنَّما كان مردُّه الصِّراع بين السَّلاجقة والبيزنطيِّين ، لأنه لا يوجد أيُّ دليل على قيام السَّلاجقة باضطهاد المسيحيِّين الخاضعين لهم »[(٨٥)] .

إنَّ غالبيَّة الصَّليبيِّين الَّذين أسهموا في الحركة الصَّليبيَّة تركوا بلادهم ، إما بدافع الفضول ، أو لتحقيق أطماع سياسيَّة ، وإما للخلاص من حياة الفقر الَّتي كانوا يحيونها في بلادهم في ظلِّ النِّظام الإقطاعي ، وإمَّا للهرب من ديونهم الثَّقيلة ، أو محاولة تأجيل سدادها .. وإمَّا لتحقيق مكاسب سياسيَّة واقتصاديَّة في بلاد الشَّرق ، وأيُّ وازع ديني كان عند أُلوف الصَّليبيِّين الَّذين شاركوا في الحملة الصَّليبيَّة الَّذين اتَّجهوا نحو القسطنطينيَّة ، وهي البلد المسيحي الكبير ، لينهبوا

---

(٨٥) الحركة الصَّليبيَّة ، د . سعيد عبد الفتَّاح عاشور ، ط١ ، ١٩٦٣ م ، مطبعة لجنة البيان العربي .

كنائسها ، ويسرقوا أديرتها ، ويعتدوا على أهلها بالقتل والضَّرب ، وهم جميعاً إخوانهم في الدِّين ؟

فمن أراد أن يعرف الأسباب الحقيقيَّة للحركة الصَّليبيَّة ، فعليه بالبحث في الأوضاع السِّياسيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والدِّينيَّة في غرب أُوربة في القرن الحادي عشر ، لا في أحوال الحجَّاج النَّصارى الَّذين عاثوا في طريقهم أينما حلُّوا فساداً ، أو في أحوال النَّصارى في شرقنا العربي المسلم الَّذي عرف التَّسامح منذ كان ، ولكن التَّسامح شيء ، واستغلال التَّسامح شيء آخر ، التَّسامح شيء بديع جميل ، على ألاَّ يستغل لانتهاك حرمات المسلمين ، وحرمات ديارهم .

إنَّ حريَّة المعتقد أمر مُسَلَّم به في الإسلام .

لذلك حارب المسلمون المستبد الظَّالم ، ولم يحاربوا المسيحيَّة ديناً ومعتقداً .

لقد أنهى المسلمون الحكومات ، وأبقوا على الشُّعوب حُرَّة في معتقدها ، وحفظ الإسلام الأرواح ، والممتلكات والمعابد ، بوثائق حرص كلَّ الحرص على تنفيذ مضمونها بدقَّة .

فالتَّسامح سمة العرب المسلمين الخالدة(٨٦) ، ولكن هذا التَّسامح لا يعني الغباء والسَّذاجة والضَّعف ، فعندما استغلَّ الحجُّ الجماعي الْمُسَلَّح هذا التَّسامح ، قامَ السَّلاجقة بما يجب أن تقوم به أيُّ دولة في العالم ، مرَّت بمثل ظروفهم..

- ٢٩ -

« استولى فرديناند في سنة ١٤٩٢ م على عاصمة العرب الأخيرة غَرْناطة ، وأخذ يمعن في قتلهم وتشريدهم جماعاتٍ جماعاتٍ ، وسار خلفاؤه على سُنَّته ، فقُتِلَ

(٨٦) انظر (من روائع لوبون) في هذا الكتاب ، الفقرات رقم ٢ و ٦ و ٧ ، حيث الإقرار الواضح بتسامح الإسلام في فتوحاته .

وشُرِّدَ من العرب ثلاثة ملايين نفس ، فخبت إلى الأبد شعلةُ حضارة العرب الَّتي كانت تُنير أُوربة منذ ثمانية قرون » ، [صفحة ١٨٢] .

« ثقلت قرونٌ على أعفار العرب ، ودخلت حضارتهم في ذمَّة التَّاريخ منذ زمن طويل ، ولا نقول ، مع ذلك ، إنَّهم ماتوا تماماً ، فنرى الآن ديانتهم ولغتهم اللَّتين أدخلوهما إلى العالم أكثرَ انتشاراً مما كانتا عليه في أنضر أدوارهم ، فالعربيَّةُ هي اللُّغة العامَّة من مَرَّاكش إلى الهند ، ولا يزال الإسلام جادّاً في تقدُّمه » ، [صفحة ٧٣٤] .

من الجميل أن يسمع الإنسان كلمة الحقِّ والإنصاف بين الحين والآخر ، من مؤرِّخ أو عالم من علماء الغرب ، فقتل الإسبان للعرب المسلمين ، وتشريدهم لهم بوحشيَّة ، إبَّان ما يُدعى بحرب الاسترداد ، وكيف سار فرديناند - وايزابيلا - على سُنَّته في قتل العرب وتشريدهم بأحكام صادرة عن محاكم التَّفتيش(٨٧) .

أمَّا عبارة : « فخبت إلى الأبد شعلةُ حضارة العرب .. » .

وعبارة : « ودخلت حضارتهم في ذِمَّة التَّاريخ منذ زمن طويل .. » ، رأي واحد خاطئ ، فكما يقول مالك بن نبي : الحضارة تسير كما تسير الشَّمس ، فكأنَّها تدور حول الأرض مشرقة في أُفق هذا الشَّعب ، ثمَّ متحوِّلة إلى أُفق شعب آخر .

فالحضارة لا تموت ، والحضارة الإنسانيَّة بساط نسجته وتنسجه أيدي أُمم كثيرة .

و (لوبون) في ختام الفقرة الثَّانية ، يعترف أنَّ الإسلام - لا يزال - جادّاً في تقدُّمه ، بل هو أكثر أديان العالم اليوم كسباً للأتباع .

---

(٨٧) والَّتي من قوانينها : (خير أن يُقتل مئةٌ أبرياء من أن يُلحِدَ فرد واحد) ، وتطبيقاً لهذه القاعدة ، صاروا يقتلون ويحرقون النَّاس ، لأقلِّ شبهة ، ولم يكن لأحد حق الدِّفاع عن نفسه ، ولا كان لمحكمة أن تقبل في حال ما شاهد نَفْيٍ .

إنَّ جانباً من الحضارة يتمثَّل بالتَّقدُّم العلمي ، وهذا الجانب لا شكَّ أنار أُوربة ، وأضاء لها سبل نهضتها الحديثة ، أمَّا الجانب الفكري ، والرُّوحي ، والاجتماعي ، والعقائدي بشكل عام ، مازال موجوداً ، وينتشر في أرجاء أُوربة اليوم ، وسيستمر في انتشاره غداً ـ بإذن الله ـ لأنَّ حضارتهم الأوربيَّة الماديَّة لم توصلهم إلى سعادةِ الطّمأنينة ، وهناءَةِ الأمن ، وهم يفتِّشون عن الجانب الرُّوحي ، العقلاني العلمي السَّليم ، كي تتوازن حضارتهم ، فتستقرّ النُّفوس وتسعد وتهنأ .

ـ ٣٠ ـ

« ومهما يكن الأمر، فإنَّ مما لا ريب فيه ، أنَّ مباني الدَّور الإسلامي الأوَّل ، لم تكن من صنع العرب ، وأنَّ عمَّال البلاد الَّتي دانت لهم هم الَّذين غيَّروا معالم الكنائس ، لتكون موافقة لعبادة المسلمين ، وأنّهم أقاموا مبانيَ العرب بأنقاض الكنائس » ، [صفحة ١٩٣] .

لو كانت هذه العبارة صحيحة ، لما كنَّا نرىٰ الكنائس ـ والقديمة منها خاصَّة ـ قائمة في شتَّى أنحاء بلاد العرب والمسلمين حتَّى يومنا الحاضر ، فكيف يَصِحُّ أن نقول بأنَّ العرب أقاموا مبانيهم على أنقاض الكنائس ، ألم يكن في وصيَّة أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه للمجاهدين الفاتحين : « .. وسوف تمرُّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصَّوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له .. »[٨٨] .

ألا يكفينا ـ كي لا نطيل الأدلَّة على خطأ ما أورده (لوبون) في الفقرة السَّابقة ـ صُلْحُ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه مع أهل (إيلياء) بيت المقدس ، ودولة الإسلام في قمَّة الفتوح ، وأوج قوَّتها وعزيمتها ؟

« بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، هذا ما أعطى عبدُ الله عمر أمير المؤمنين أهلَ

(٨٨) الكامل في التَّاريخ ٢٢٧/٢ ، الطَّبري ٢٢٦/٣

إيلياء من الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها وسائر ملّتها ، أنّه لا تُسْكَن كنائسهم ولا تُهدم ، ولا يُنتقص منها ولا من حيّزها ، ولا من صليبهم ، ولا من شيء من أموالهم ، ولا يُكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم .. »[٨٩] .

إنّ بنود هذه المعاهدة ، نموذجٌ لمعظم المعاهدات الّتي أبرمها المسلمون الفاتحون مع البلدان الّتي فُتِحَت ، وما عرفوا مطلقاً أنّهم نكثوا عهودهم ، وها هي الكنائس القائمة قبل الفتح ماتزال في بلاد الشّام ومصر ، حيث بقي عدد من أبناء هذه البلاد على ديانتهم النّصرانيّة تتابع بقاءها دون أن تُمَسّ بسوء .

- ٣١ -

« المسجد الأقصى : بُني المسجد الأقصى في الحرم القدسيّ ، وهو قديمٌ أيضاً ، فأصل المسجد الأقصى كنيسة بناها القيصر جوستنيان تبجيلاً للعذراء ، فحوّلها العرب إلى مسجد بأمر الخليفة عمر ، ثمّ هدّم الزّلزال المسجد الأقصى فَجُدِّد بناؤه في سنة ٧٨٥ م » ، [صفحة ٢٠٠] .

لوعاد (لوبون) إلى تاريخ القدس ، وتاريخ المسجد الأقصى لعرف أُموراً غير ماسجّله في كتابه ، من أنّ أصل المسجد الأقصى كنيسة بناها القيصر جوستنيان .

إنّ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه لم يحوّل ، ولم يأمر بتحويل كنيسة في القدس إلى مسجد[٩٠] ، بل على العكس ، فقد روي عنه أنّه رفض تأدية صلاة حان وقتها ، وهو في زيارة لأحد بطارقة القدس ، خشية أن يتّخذ المسلمون

---

(٨٩) الطّبري ٦٠٩/٣ .

(٩٠) وهذا يخالف بنود الصّلح الموقّع مع أهل إيلياء (بيت المقدس) الّذي أوردناه في الفقره ٣٠ السّابقة .

مكان صلاته مسجداً لهم ، مما يؤذي المسيحيِّين ، فخرج من مكانه ، وأدّى صلاته خارجها ، فبني في المكان الجديد مسجد يعرف حتّى اليوم بمسجد عمر .

ومكان المسجد الأقصى يعرف منذ أقدم العصور على أنَّه معبد ، ويعتقد المسلمون أنَّه ثاني معبد بعد المسجد الحرام ، وزاد تقديسه عند المسلمين بعد اتِّخاذه قبلة لهم قبل أن تكون الكعبة قبلتهم ، ثمَّ ازداد تقديسه بعد حادثة الإسراء إليه برسول الله ﷺ ، حيث أُسري به ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى .

أمَّا بناء المسجد المعروف اليوم ، فكان في عهد عبد الملك بن مروان ، وابنه الوليد .

- ٣٢ -

« بلغت بغداد ذُروة الرَّخاء في عصر بطل رواية ألف ليلة وليلة هارون الرَّشيد الشَّهير (٧٨٦ ـ ٨٠٩ م) » ، [صفحة ٢١٥] .

ويسجِّل (لوبون) صفحة ٥٤٣ رأياً آخر : « ورواية ألف ليلة وليلة الباهرة هي ـ لا ريب ـ أكثر القصص العربيَّة شهرة ، وقد اختُلِفَ كثيراً في مصدرها ، ويظهر من الثَّابت اليوم أنَّها مجموعة قطع وُضِعَت في أدوار مختلفة جدّاً ، فوضع بعضها قبل القرن العاشر من الميلاد لذكرها في كتاب مروج الذَّهب الَّذي ألَّفه المسعوديُّ في ذلك الزَّمن ، وتجد في تلك الرِّواية قِصَصاً من أصل هندوسي وفارسي ، ولكن أكثرها ألَّفه عرب مصر فيا بين القرن الثَّالث عشر ، والقرن الخامس عشر من الميلاد » .

كان من الواجب أن يشير الباحث إلى أنَّ هارون الرَّشيد ، الخليفة العبَّاسي الشَّهير ، والَّذي بلغت بغداد والدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة في عهده ذروة الرَّخاء ، لا علاقة بينه وبين ما يرد عنه في كتاب أُسطوري خيالي ، يعرف بقصص ألف ليلة وليلة .

وشتّان ما بين شخصيّة الرّشيد الحقيقيّة الّتي تمثّل العلم والتقدُّم والجهاد ، وعزّة الدّولة ورفعتها ، وبين شخصيّة الرّشيد في قصص ألف ليلة وليلة حيث الغانيات والخمور والمكائد والمغامرات الخياليّة .

« الرّشيد بطل رواية ألف ليلة وليلة » ، مع أنّ ألف ليلة وليلة مجموعة منوّعة من القصص الشّعبي ، نصّ ابن النّديم في (الفهرست) أنّها مترجمة من أصل فارسي اسمه (الهزار أفسان) ، أي ألف الخرافة ، ويسميها الإفرنج (اللّيالي العربيّة) ، لأنّها ترجمت عن العربيّة ، لفقد الأصل الفارسي ، وهي منتشرة بين أُمم الأرض ، لما فيها من قصص تلذّ للنّاس مطالعتها ، فهم يرون فيها أجمل الغرائب ، ويرون تنوّع الأخبار الّتي تخاطب الطّبع البشري الّذي يميل إلى مطالعة المصادفات ، والاتّفاقات المدهشة ، والأعمال الدّالّة على الشّجاعة والبطش ، مع أنّ فيه من السّفاهة والفساد ما يجعله كتاباً خطراً جدّاً على الفتيان والفتيات .

فمن الثّابت أنّ مادّة ألف ليلة وليلة أخذها العرب من الفرس والهنود[٩١] ، ولقد شوّهت ألف ليلة وليلة كذباً وخيالاً سيرة الرّشيد ، إذ أنّه أصبح منذ وقت بعيد ، رمزاً للعصر الذّهبي الغابر ، تفعل فيه الأعاجيب ، وتحاك حوله الأساطير .

لقد ظنّ الأُوربيّون أن الرّفاه في قصر الرّشيد ، لا يمكن أن يكون إلاّ كما كان في قصر معاصره شارلمان من شراب وفسق وفجور ، فجعلوا الرّشيد بطلاً لروايات ألف ليلة وليلة ، وبصورة تشبه ما يجري في قصورهم ، مع أنّ الرّشيد لم يسمع بألف ليلة وليلة ، لأنّها تُرْجِمَت إلى العربيّة في القرن الثّالث الهجري ، وهو عاش في القرن الثّاني الهجري ، وتدلّ قصص ألف ليلة وليلة على أنّها مؤلّفة من قبل عديدين ، أضافوا عليها حتّى العصر المملوكي[٩٢] .

(٩١) دائرة المعارف الإسلاميّة ٥١٨/٢ ، دائرة المعارف البستاني ٢٦١/٤

(٩٢) هارون الرّشيد : أميرُ الخلفاء وأجَلُّ ملوك الدُّنيا ، ص ١٢٤ وما بعدها .

وذكر (لوبون) المسعودي وكتابه مروج الذَّهب ، ليته أورد جزءاً يسيراً مما جاء فيه عن الرَّشيد ، وعندها يحذف عبارته الظَّالمة « الرَّشيد بطل رواية ألف ليلة وليلة » .

قال المسعودي تحت عنوان : « وصف الرَّشيد » : « كان مواظباً على الحجِّ ، متابعاً للغزو ، واتِّخاذ المصانع والآبار والبرك والقصور في طريق مكَّة ، وأظهر ذلك بها وبمنى وعَرَفات ، ومدينة النَّبيِّ ﷺ ، فعمَّ النَّاسَ إحسانُه ، مع ما قرن به من عدله ، ثمَّ بنى الثُّغور ، ومَدَّن المدن ، وحَصَّن فيها الحصون ، مثل طَرَسوس وأذنة ، وعمَّر المصيصة ومرعش ، وأحكم بناء الحرب ، وغير ذلك من دور السَّبيل والمواضع للمرابطين ، واتَّبعه عماله ، وسلكوا طريقته ، وقَفَتْهُ رعيَّته مقتدية بعمله ، مُسْتَنِدة بإمامته ، فقمع الباطل ، وأظهر الحقَّ ، وأنار الأعلام ، وبرز على سائر الأمم .. » إلى أن يقول المسعودي : « فسمَّى النَّاسُ أيَّامَه ، لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها ، أيَّام العروس »[٩٣]

- ٣٣ -

« ولم يمنع عمرو بن العاص من عادات المصريِّين ، سوى عادة اختطاف إحدى العذارى من أبويها في كلِّ سنة ، وقذفها في النِّيل ، لكي يَمُنَّ إله النِّيل على مصر بما تحتاج إليه من الماء وقت الفيضان ، فاستبدل عمرو بن العاص بتلك العادةِ العادةَ الَّتي لا تزال موجودةً إلى يومنا ، وهي قذف تمثال خزفي يُدْعى بالعروس في النِّيل في يوم معيَّن من كلِّ سنة .. » ، [صفحة ٢٦٨] .

وهذا كلام مرفوض ، وصوابه كما جاء في : (النُّجوم الزَّاهرة في ملوك مصر والقاهرة) :

« لما ولي عمرو بن العاص رضى الله عنه مصر ، أتاه أهلها حين دخل بؤونة

(٩٣) مروج الذَّهب ٣١٦/٤

من أشهر القبط المذكورة[٩٤] ، فقالوا له أيُّها الأمير ، إنَّ لنيلنا عادةً أو سُنَّةً لا يجري إلا بها ، فقال لهم : وماذاك؟ قالوا : إنَّه إذا كان في اثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشَّهر (يعني بؤونة) عَمَدنا إلى جارية بكر من عند أبويها وأرضَيْنا أبويها وأخذناها ، وجعلنا عليها من الحليِّ والثِّياب أفضل ما يكون ، ثمَّ ألقيناها في هذا النِّيل فيجري ، فقال لهم عمرو بن العاص : إنَّ هذا لا يكون في الإسلام ، وإنَّ الإسلام يهدم ما كان قبله[٩٥] ، فأقاموا بؤونة وأبيب ومسري لا يجري النِّيل قليلاً ولا كثيراً حتَّى همُّوا بالجلاء ، فلما رأى ذلك عمرو كتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، فكتب إليه عمر بن الخطَّاب : قد أصبتَ ، إن الإسلام يهدم ما قبله ، وقد أرسلنا إليك ببطاقة ترميها في داخل النِّيل إذا أتاك كتابي .

فلما قدم الكتاب على عمرو بن العاص رضي الله عنه ، فتح البطاقة فإذا فيها : « من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر ، أمّا بعد ، فإن كنتَ تجري من قِبَلك فلا تجر ، وإن كان الله الواحد القهار الَّذي يُجْرِيك ، فنسأل الله الواحد القهار أن يُجريك » .

فعرَّفهم عمرو بكتاب أمير المؤمنين وبالبطاقة ، ثمَّ ألقى عمرو البطاقة في النِّيل قبل يوم عيد الصَّليب بيوم ، وقد تهيّأ أهل مصر للجلاء والخروج منها ، لأنَّه لا يقيم بمصالحهم فيها إلاَّ النِّيل ، فأصبحوا يوم عيد الصَّليب وقد أجراه الله

---

(٩٤) وهو شهر حزيران ، والأشهر القبطيَّة هي : أبيب (تموز) ، مسري (آب) ، توت (أيلول) ، بابه (تشرين الأوَّل) ، هاتور (تشرين الثَّاني) ، كهيك (كانون الأوَّل) ، طوبة (كانون الثَّاني) ، أمشير (شباط) ، بروبات (آذار) ، برمودة (نيسان) ، بشنس (أيَّار) ، وبؤونة (حزيران) ، [النُّجوم الزَّاهرة ٣٤/١ و ٣٥] .

(٩٥) من عادات وثنيَّة لا يقرُّها التَّوحيد ، أو العقل الموضوعي .

ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة ، وقطع تلك السُّنَّة القبيحة عن أهل مصر ببركة سيدنا عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه »[٩٦] .

- ٣٤ -

« واستغاث عرب إسبانية ببربر مَرَّاكُش في سنة ١٠٨٥ م لِيَحُولوا دون توالي انتصارات مَلِك قشتالة وليون الأذفونش السَّادس .. » ، [صفحة ٣٣٢] .

عبارة تحتاج إلى الدّقة والموضوعيّة ، وصوابها : « واستغاث مسلمو الأندلس بمسلمي مَرَّاكُش .. » ، فدولة المرابطين (الملثَّمين) : [٤٤٠ - ٥٤٢ هـ] ، ماقامت باسم البربر ، وإن كانت أُصولهم من صنهاجة الصَّحراء الكبرى[٩٧] ، الَّتي يُرْجِعُ ابن خلدون أصلها إلى الجزيرة العربيَّة ، منها نزحت إلى المغرب واستقرَّت على شواطئ الأطلسي[٩٨] .

نشأت دولتهم باسم الإسلام ، فهم المرابِطُون في الثُّغور لدفع العدو ونشر الدَّعوة : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، [آل عمران ٣/٢٠٠] ، هؤلاء كان الإسلام لهم - كما هو دائماً في أتباعه الْخُلَّص - كيمياء سحريَّة ، فأحياهم بعد موت ، وعلَّمهم بعد جهل ، وجمعهم بعد فرقة ، فقاموا للفتح فتوسَّعوا في المغرب الأقصى ، وحوض النِّيجر .

وما هو جدير بالذِّكر أن المرابطين حافظوا على الوحدة الإسلاميَّة ، فلم يتَّخذوا لقب الخلافة ، واستمدُّوا الشَّرعيَّة من اعتراف الخلافة العبَّاسيَّة بدولتهم ، فقد أرسل يوسف بن تاشفين سفارة إلى الخليفة المستظهر مكوَّنية من عبد الله

---

(٩٦) النُّجوم الزَّاهرة ٣٥/١ و ٣٦ ، وهذا ماأورده الحافظ ابن كثير في البداية والنِّهاية ١٠٠/٧

(٩٧) من قبائل الملثَّمين : جزولة ، ولمطة ، وجدالة ، ومسوفة ، ودكالة ، وهسكورة ، ولمتونة ، وكانت الرِّياسة في الملثَّمين للمتونة .

(٩٨) ابن خلدون (العِبَر) ١٨٤/٥

المغافري الإشبيلي وولده أبي بكر ، وطلب منه أن يعقد ليوسف على المغرب والأندلس ففعل[٩٩] .

وكان أشياخ المرابطين وأعيانهم يميلون إلى تسمية يوسف بن تاشفين بأمير المؤمنين ، ولكن يوسف رفض بتاتاً وقال : حاشا لله أن نتسمّى بهذا الاسم ، إنَّما يتسمّى به خلفاء بني العبّاس ، لكونهم من تلك السُّلالة الكريمة ، لأنَّهم ملوك الحرمين مكة والمدينة ، وأنا رجلهم والقائم بدعوتهم[١٠٠] .

لقد وصف الأندلسيُّون ابنَ تاشفين « بمعقد الآمال ، وأن الله قد اصطفاه لإنقاذ الإسلام »[١٠١] ، وحقَّق ابن تاشفين انتصار الزّلاّقة العظيم : [الجمعة ١٢ رجب ٤٧٩ هـ ، ٢٣ تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٠٨٦ م] ، الّذي اهتزّت له نفوس المسلمين في كلِّ بقاع العالم الإسلامي ، وعفَّ عن المغانم ، وعاد إلى مَرّاكُش ، فعاد ملوكُ الطّوائف إلى التّناحر وتوطيد سلطانهم على حساب الإسلام ذاته ، ولم يتورَّع بعضهم عن التّحالف سرّاً مع ألفونسو السادس ، فعاد ابن تاشفين بطلب من القضاة والفقهاء ، كما أنَّ أبا حامد الغزالي ، وأبا بكر الطُّرطُوشي في الشَّرق الإسلامي ، أرسلا لابن تاشفين خطاباً يحثّانه فيه على خدمة الإسلام ، ويفتيانه في ملوك الطّوائف .

لقد أنقذ المرابطون الأندلسَ من انهيارٍ محقَّق ، وضبطوها بعزم وحزم ، بعد فوضى وضياع ، كما وضعوا حدّاً لمهزلة ملوك الطّوائف ، وأمدُّوا بقاء المسلمين في الأندلس أربعة قرون من الزَّمن ، وعلى ماسبق :

استغاث مسلمو الأندلس بمسلمي مَرّاكُش .

---

(٩٩) ابن خلدون ٣٨٦/٦

(١٠٠) الحلل الموشية ١٨

(١٠١) ابن خلّكان ٤٨٢/٢

« ولم يكد عبد الرَّحمن[١٠٢] يَقْبِض على زمام الحكم في إسبانية حتَّى أخذ يسعى في حمل العرب على اتِّخاذ إسبانية وطناً لهم ، فأنشأ جامع قرطبة الشَّهير الَّذي هو من عجائب الدُّنيا لتحويل أنظار العرب عن مكَّة » ، [صفحة ٣٣٨] .

أخطاء كثيرة يقع فيها المؤلِّفون الغربيُّون نتيجة جهلهم بالإسلام ، وجهلهم أحياناً بأسباب الحوادث الَّتي يتعرَّضون لبحثها ، والكتابة عنها ، فحين يكتب (لوبون) وغيره عن عبد الرَّحمن الأُموي ، سليل خلفاء بني أُميَّة في الشَّام ، والَّذي حمل في التَّاريخ لقب عبد الرَّحمن الدَّاخل (صقر قريش) ، لأنَّه استطاع أن ينجو بنفسه من أيدي العبَّاسيِّين بعد نجاحهم بثورتهم وإحاطتهم بالحكم الأُموي[١٠٣] ، واستيلائهم على السُّلطة والحكم ، أقول بعد نجاح عبد الرَّحمن بالوصول إلى الشَّمال الإفريقي ، ودخوله أرض الأندلس ، حيث كانت جزءاً من الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة في عهد الخلافة الأُمويَّة ، ونجح بحكم الأندلس ، وانفصل بها عن الدَّولة العبَّاسيَّة ، واستقلَّ بالأندلس ، فأسَّس أُسرة حاكمة أُمويَّة في الأندلس ، لم تعترف بالخلافة العبَّاسيَّة ، وحين أنشأ جامع قرطبة الشَّهير ما أراد أن ينافس به العبَّاسيِّين في مساجدهم وقصورهم ، بل أراده جامعاً يليق بإمارته الجديدة ، يتناسب وحاضرة إمارته قرطبة ، وما أراد أبداً ، ولا خطر له ببال أن يوجِّه أنظار العرب عن مكَّة ، فهو لا يجرؤ على ذلك أوَّلاً ، وهو يعلم ثانياً أنَّ مكَّة المكرَّمة تأخذ شهرتها من كعبتها المُشَرَّفة ، الَّتي هي قبلة المسلمين مهما اختلفت أمصارهم ودولهم وتباعدت أصقاعهم ، ومهما كانت الخلافات بينهم ،

(١٠٢) عبد الرَّحمن الدَّاخل (صقر قريش) : [١١٣ - ١٧٢ هـ = ٧٣١ - ٧٨٨ م] ، دخل قرطبة وبنى فيها القصر وعدة مساجد .

(١٠٣) سنة ١٣٢ هـ .

فكلُّهم يتَّجهون بصلاتهم نحو مكَّة ، أي نحو الكعبة الْمُشَرَّفة ، فلا يستطيع أمير ، أو خليفة تحويل أنظار العرب عن قبلتهم ، عن الكعبة الْمُشَرَّفة .

- ٣٦ -

« استطاع عبد الرَّحمن الغافقي أن يسير ، إذَنْ ، منتصراً غيرَ هَيَّاب إلى الأمام ، وأن يُخَرِّب الحقول الخصبة الواقعةَ بين مدينة بوردو ومدينة تُور ، وأن يأخذ غنائمَ كثيرةً من المدن ، ونحن إذا علمنا أنَّه لم يكن من عادة العرب أن ينهبوا البلدان الَّتي يرغبون في استيطانها ، كما ذكرنا ذلك غير مرَّة ، رأينا أن سلوك عبد الرَّحمن الغافقي يدلُّ على أنَّه بدخوله فرنسة لم يفكِّر في غير الغنائم .. » ، [صفحة ٣٨٥] .

ما عُرِف عن العرب في فتوحاتهم تخريب الحقول الخصبة ، ولا هدم العمران ، لم تكن هذه أخلاقهم مطلقاً .

وهل يمكن أن يصدِّق أيُّ دارس منصف عند دراسته لفتوح العرب المسلمين في جنوبي فرنسة ، ووصولهم إلى أواسطها ما يقوله (لوبون) من أن عبد الرَّحمن الغافقي لم يفكِّر في حملته على فرنسة في غير الغنائم .

لو أنصف الدكتور لوبون لقال : نتيجة لانتصارات العرب المسلمين وهم في طريقهم إلى تُور ، أُثقلوا بالغنائم ، إنهم انطلقوا للفتح لتبليغ رسالة إلهيَّة ، أمَّا أن يكون السَّبب الوحيد لدخول فرنسة هو الحصول على الغنائم ، فهذا ظلم كبير .

ألم يعلم (لوبون) أن هذه الحملة الَّتي قادها الغافقي ، إنَّما هي حلقة من سلسلة كثيرة الحلقات ، تُمثِّل حركة الفتوح منذ خرج العرب المسلمون من جزيرتهم ، وما داموا يحملون رسالة يعتبرون أنفسهم مكلَّفين بتبليغها إلى أهل الأرض ، ويعملون على الإطاحة بكلِّ العقبات وأنظمة الحكم الَّتي تقف دون تحقيقهم هذا الهدف ؟

لو أنَّه علم ذلك ، ونظر بهذا المنظار لعرف أسبابَ دخول الغافقي أرض فرنسة ، كما دخلها الكثيرون ممن سبقه من قادة العرب في الأندلس ، أمَّا أن يحملوا الغنائم ، فهذا أمر طبيعي في جميع جيوش العالم ، وخصوصاً في تلك الفترات من التَّاريخ ، بل ما يزال ذلك صفة من صفات الجيوش الغازية والفاتحة حتَّى اليوم .

إن استتباب الفتح العربي الإسلامي في الأندلس ، مهَّد لنقل ميدان الجهاد وراء جبال البرانس ، في فرنسة ، فعبر السَّمح بن مالك الخولاني وفتح إقليم سبتمانية(١٠٤) ، وعبر عنبسة بن سحيم الكلبي أيضاً واخترق حوض نهر الرُّون من جنوبه إلى شماله ، حتى وصل مدينة سانس(١٠٥) ، وعبر عذرة الفهري ، واقتحم إقليم سبتمانية مرَّة أُخرى ، ودخل حوض الرُّون .

والمسلمون في حروبهم هذه ، لم يتعرَّضوا لكنيسة أو دير ، ولم يخرِّبوا ولم يشعلوا ناراً بمدينة ، لقد فتحوا قبل ذلك بلاد الشَّام ومصر وإفريقية والأندلس ، وهي كلُّها غاصَّة بالكنائس والأديرة ، وما إليها من المؤسَّسات النَّصرانيَّة ، فلم يحرقوا ، ولم يخرِّبوا ، ولم يهدموا ، فمن العجب أن ينقلب حالهم إذ عبروا إلى فرنسة وحوشاً ضارية مخرِّبة !!

وعبر عبد الرَّحمن الغافقي إلى فرنسة وبالغت المراجع النَّصرانيَّة في وصف الغنائم الَّتي حملها المسلمون وهم على تلك الأرض ، والحكم المنطقي أنَّ المسلمين حملوا بعض الغنائم لا شك ، ولو أحسنوا لبعثوا نفراً منهم ، ليودعها جنوباً بعيداً عن ميدان المعركة .

---

(١٠٤) الريڤيرا اليوم ، يطلُّ على البحر المتوسِّط جنوبي فرنسة ، حاضرتها أربونة .

(١٠٥) سانس تقع في ضواحي باريس الجنوبيَّة ، حوالي ٣٠ كم .

« ويستطيع العربيُّ الَّذي تحيط نساؤه به هنالك أن يُطْلقَ لخيالـه العِنـان ، فيَخَيَّل إليـه أنَّـه يرى من خلال دخـان نـارجيلتـه أنَّـه انتقـل إلى جنَّـة محمَّـد » ، [صفحة ٤٤٦] .

أوَّلاً : الأصل في الإسلام الزَّوجة الواحدة ، لا التَّعدُّد .

ثـانيـاً : لا يليـق بلـوبـون أن يسجـل على نفسـه عبـارة لاتليـق بعـلاَّمـة مثله[١٠٦] : « فيخيَّل إليه أنَّه يرى من خلال دخان نارجيلتـه أنَّـه انتقل إلى جنَّـة محمَّد » ، فمحمَّد ﷺ لا يملك جنَّة ، الجنَّة جنَّةُ الله سبحـانـه وتعـالى : ﴿ وَالَّـذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لانُكَلِّفُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا أُولئِـكَ أَصْحـابُ الجَنَّـةِ هُمْ فِيهَـا خَالِدُونَ ، وَنَزَعْنَا مَافِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَـالُوا الحَمْـدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِهٰذا وَمَا كُنَّـا لِنَهْتَـدِيَ لَوْلا أَنْ هَـدَانَـا ٱللهُ لَقَـدْ جَـاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَـا بِالحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الجَنَّةُ أُورِثْتِمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف ٤٢/٧ و٤٣] .

---

(١٠٦) ومن الصُّور غير الصَّحيحة الَّتي أوردها لوبون صفحة ٤٥٠ : « فتَسْأل المخطوبة عن رأيهـا صورةً ، فلا تكون لديها ما يُسَوِّغ رفضها تَزَوُّجَه ، مـادامت لاتراه إلا بعـد عقـد الزَّواج » ، مع أن قول رسول الله ﷺ صريـح واضـح : « لاتنكـح الأيم حتَّى تُسْتَـأْمَر ، ولا البِكْر حتَّى تُسْتَـأْذن » ، [رواه الجماعة] ، كما أمر ﷺ أن ينظر لها وتنظر إليـه : « فـإنَّـه أحْرى أن يؤدَمَ بينكما » ، يعني أن تكون بينهما المحبَّة والاتِّفاق ، [اللِّسان : أدم] ، وردَّ ﷺ زواج خنساء بنت خدام الأنصاريَّة لأنَّها لم توافق على زوجها .

وقال لوبون صفحة ٤٥٢ : « ويتقـدَّم الجنـازةَ فريقٌ من العُمْيـان والمسـاكين ، مرتِّلين بعض آي القرآن ، ويأْتي خلفها الأقرباء والأصحاب والنَّائحات » ، صورة غير لائقـة ، لمـاذا (العُمْيـان) بالَّذات ، ولماذا (النَّائحات) ؟

« والحشيش الَّذي هو مادَّة مُسْكِرة ، من أَهمِّ وسائل اللَّهو والتَّسلية عند أُمم الشَّرق منذ قرون . فالفلاَّحُ الشَّرقيُّ الحقير يصبح وقتما يتعاطاه سعيداً حيناً فلا يَرْضَىٰ بحظٍّ أعظم ملوك الأرض بدلاً من حظِّه ، والشَّرقيون قد حَلُّوا بفضله مشكلة وضع السَّعادة في الزُّجاجة الَّتي لا تَعْسُرُ حيازَتها ، وهو إذ لا يزال ذا شأن عظيم في حياتهم ، نرى من المفيد أن نقول كلمة في خواصِّه :

يُصْنَع الحشيش من القِنَّب الهنديَّ كما يَعْلم العالَمُ ، ويباع في القاهرة والقسطنطينيَّة على العموم .. » ، [صفحة ٤٥٤] .

لم يكن الحشيش الَّذي هو مادَّة مخدِّرَة ومُسْكِرَة من وسائل اللَّهو والتَّسلية عند العرب عامَّة ، والمسلمين خاصَّة ، ذلك أَنَّه عندهم من المحرَّمات ، وليس وسيلة تسلية ، ولذلك فقد انتشر بين غير المسلمين أكثر بكثير من انتشاره بين المسلمين ، ولا يزال الإسلام حتَّى الآن سياجاً متيناً يحمي المجتمع الإسلامي من أمثال هذه الأَمراض الخطيرة ، وإذا وجدناه قد انتشر في بعض المجتمعات الإسلاميَّة ، فيكون ذلك نتيجة الجهل وقلَّة الوعي الإسلامي في تلك المجتمعات ، وكان للاستعمار الأُوربيِّ ، دور كبير في نشر الحشيش في المستعمرات .

لقد استعمرت بريطانية ـ بتمهيد شركة الهند الشَّرقيَّة ـ الهندَ ، فتطلَّعت إلى استعمار الصِّين ، الَّتي لم تفتح أَبوابها حرَّةً أمام تجارة البريطانيِّين ، الَّذين وجدوا المبرِّر للتَّدخُّل ، ألا وهو اعتراض الصِّين على تجارة الأفيون ، الَّذي زرعه البريطانيُّون في الهند ، حتَّى أصبح ٢٧٪ من الصِّينيِّين مدمني أفيون ، وصارت صادرات الصِّين كلُّها لا تسدِّد ثمن الأفيون(١٠٧) ، فكانت حرب الأفيون الأُولى سنة ١٨٤٠ م ، والثَّانية سنة ١٨٥٧ م .

(١٠٧) حرب الأفيون ، محمد العزب موسى ، سلسلة اقرأ : ٣١١ ، سنة ١٩٦٨ م (دار المعارف بمصر) .

- ٣٩ -

« ومِثْلُ ذلك شأْنُ محمّد ، فهو قد عرف كيف يختار من نُظُم العرب القديمة ، ما كان يبدو أقومها ، فدعمها بنفوذه الدِّينيِّ العظيم ، ولكن شريعة محمّد لم تنسخ جميع العادات الّتي قامت مقامها كما أنَّ قانون الألواح الاثنى عشر لم يَقْضِ على قوانين الرُّومان القديمة ، ومحمّد حين رأى أن يُحَرِّم بعض العادات القديمة كالوَأْد ، لم يفعل غير ما يلائم المشاعر المنتشرة بدرجة الكفاية فلا تُقِرُّه » ، [صفحة ٤٦٧] .

تارة يقول (لوبون) فكَّر محمّد ﷺ ، واختار محمّد ﷺ ، وأراد محمّد ﷺ ، وتارة أُخرى يقول : جاء الوحيُ عن طريق جبريل إلى محمّد بكذا وكذا .

محمّد ﷺ نبيٌّ مرسل ، مثله مثل موسى وعيسى عليهما السّلام ، فهو لا يختار من نظم العرب القديمة ما كان يبدو أقومها ، بدليل أنّه حرَّم أُموراً بأمر من الله ، لم تكن نفوس العرب تتقبّل تحريمها ومنعها ، فلم يفعل ما يلائم المشاعر المنتشرة كما يدَّعي (لوبون) ، بل على العكس من ذلك ، منع العرب من أُمور كانوا شديدي التّعلُّق بها ، مثل : العصبيّة القبليّة الّتي أحلَّ محلَّها أُخوَّة العقيدة ، ورابطة الإيمان ، ومثل تحريمه الرِّبا ، وكان منتشراً ويصعب تركه ، وحرَّم الخمر وهي مما انتشر بين العرب وعظم تمسُّكهم بها ، وإقبالهم عليها ، ومثل ذلك حربه للشّرك والوثنيّة مما لقي غاية الصُّعوبة في حربه لها ، وتحطيم قدسيَّتها في نفوس العرب ، ذلك لأنّه لم يكن يحلل ويحرِّم من نفسه ليوافق ما يتلاءم مع مشاعر النّاس ، بل كان ينفّذ ما يطلبه الله منه عن طريق الوحي ، فهو إنّما يبلّغ رسالة ربّه للنّاس : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تؤمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ، [الحجر ١٥/٩٤] .

- ٤٠ -

« والقرآن الّذي لاءَم مشاعر الأُمّة العربيّة واحتياجاتها أيّام محمّد مُلاءَمَة تامَّة ، عاد غيرَ ذلك بعد بضعة قرون .. » ، [صفحة ٤٨٠] .

أخطأ (لوبون) في فهمه وتعليله في هذه العبارة ، فالقرآن الكريم لم يلائم مشاعر الأُمَّة العربيَّة ، بل لاءم منها الفطرة السَّليمة الَّتي فطر الله النَّاس عليها ، أمَّا من غرقت نفوسهم في شهواتها ، وتغلَّبت عليها غرائزها ، وانساقت وراء أهوائها ، فلم يكن القرآن الكريم ، وتعاليمه السَّمحة مما يتلاءم مع نفوسهم ، ولهذا امتنعوا وحاربوا ، إلى أن عادوا إلى صوابهم ، وأخذوا يفكِّرون فيما رأوه من تأثير القرآن على أصحابهم وأقاربهم وأبنائهم ، وحكَّموا في ذلك عقولهم ، فاعتنقوه ، لا لأنَّه لاءم ما في نفوسهم ، بل لأنَّهم وجدوا الخير فيه ، وعرفوا الشَّرَّ الذي كان يملأُ نفوسهم .

وأخطأ (لوبون) ثانية حين قال : إنَّ القرآن لم يعد ملائماً للنَّاس بعد بضعة قرون ، القرآن أصبح غريباً بعيداً عن نفوس فئات من المجتمعات الإسلاميَّة ، الَّتي أبعدت التَّيَّارات المعادية للإسلام ، وفي مقدمتها المستعمرون والمبشِّرون المتعصِّبون ، أفرادها عن تعاليم القرآن المجيد ، فصاروا يرون فيه قيداً يمنعهم من تحقيق ما يظنونه سعادة ومتعة وتقدُّماً ، وصاروا يصدرون على القرآن أحكام أُولئك المعادين له ، كما لقَّنوها ، دون وعي أو دراسة أو تفكير ، وحين بدأت عودة المسلمين إلى مراجعة حساباتهم ، ودراسة قرآنهم ، تغيرتِ الحال ، وبدأت صحوة المسلمين إلى واقعهم ، وعودتهم إلى قرآنهم .

- ٤١ -

« التَّصوير : من الأقوال الشَّائعة أنَّه حُرِّم على المسلمين تصوير الآلهة والموجودات الْحَيَّة ، ويعزو القرآن ، أو تفاسير القرآن على الأقل ، هذا المنعَ إلى النَّبيِّ .

والواقع أنَّ المسلمين لم يكترثوا لذلك إلاَّ في زمن متأخِّر ، وأنَّهم تجاهلوا زمناً طويلاً ، كما تجاهلوا منع ذلك الكتاب المقدَّس لِلُعْبَةِ الشِّطْرَنج ، والشُّرب بآنية من الذَّهب أو الفضَّة ... » ، [صفحة ٦١٢] .

في مثل هذه الأمور ، يجدر بلوبون ألاَّ يلقي الكلام جزافاً ، بل عليه أن يبحث ويحقِّق ويوثِّق أقواله ويعزوها إلى مصادرها ، أمَّا أن يقول : من الأقوال الشَّائعة ، فمن قال له أن تحريم تصوير الآلهة ، أو تمثيلها بأصنام وتماثيل هي من الأقوال الشَّائعة ، كان عليه أن يبحث في القرآن الكريم ، وفي سُنَّة الرَّسول العظيم ﷺ عن وجود مايحرِّم ذلك أو لايحرِّمه ، أمَّا أن ينصِّب نفسه فقيهاً إسلاميّاً ، فهذا ليس من صفات العلماء المحقِّقين .

وحين يقول إنَّ هذا المنع يُعزا إلى النَّبيِّ ﷺ ، فقد نسي أنَّ أقوال النَّبيِّ هي جزء لا يتجزَّأ من شريعة الإسلام ، وهي المصدر الثَّاني بعد القرآن الكريم ، فماله يخبط في أقواله خبط عشواء ، ومن هنا وصل الإسلام إلى الغرب مشوَّهاً ، لأنَّ الَّذين كتبوا فيه وعنه ، إنَّما هم أُناس يجهلون الكثير عن الإسلام وتشريعاته(١٠٨) .

ومن أخبر العلاَّمةِ (لوبون) أنَّ المسلمين لم يكترثوا لموضوع تصوير الآلهة وتمثيلها إلاَّ في زمن متأخِّر ، ألم يَرَ أنَّ الفنون الإسلاميَّة نَحَت نتيجة لذلك مناحي تختلف عمَّا هي عليه في أُوربة ، فقد ارتقت عند المسلمين فنون في جمال الخطِّ والتَّزيين بالكتابة ، فنشأت خطوط تزيينيَّة غاية في الجمال والرَّوعة ، وكذلك في مجال الطَّبيعة والاقتباس منها ، وإلى غير ذلك ؟

ومن قال : إنَّ القرآن الكريم منع لعبة الشِّطْرَنج ؟ ماسمعنا ذلك إلاَّ من (لوبون) ، وربَّما كان الشِّطْرنج من وسائل التَّسلية القليلة الَّتي لا يرى الإسلام فيها أيَّ مانع ، إنَّ الإسلام يحرِّم ما يفسد الأخلاق ، ويضعف الضَّمير والوجدان ،

---

(١٠٨) جاء في اللِّسان : التَّصاوير : التَّماثيل ، لقد تتبَّع النَّبيُّ ﷺ مظاهر الشِّرك والوثنيَّة ، وقضى عليها ، وحمى التَّوحيد ، فالتَّماثيل عُبِدَت من دون الله ، فعلَّة تحريم اتِّخاذ التَّماثيل ، قرب عهد القرشيِّين بعبادة الأصنام ، جاء في سورة سبأ ١٣/٣٤ : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ، وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ ، [أحكام التَّصوير في الفقه الإسلامي ، الشَّيخ محمَّد حبش ، نشر دار الخير سنة ١٩٨٧ م] .

وينشر الْمَيْسِر وما يشبه ذلك ، كما يمنع الاعتماد في الحياة على ما يسمَّى الحظّ ، داعياً المجتمع إلى كسب الوقت بعمل نافع ، وإلى الرِّبح عن طريق الجدّ والعمل .

أمَّا استخدام آنية الذَّهب والفضَّة ، فيعتبره الإسلام لوناً من ألوان الإسراف والتَّبذير .

ـ ٤٢ ـ

« ويُحَبُّ ألا تَسْتنبط من هذا القول نتائج واسعة ، فإذا كان العرب أفضل من الهندوس عِلْماً ، كما هو واضح ، فإنَّهم دونهم فلسفة وديانة ، فليس في عامِّيةالقرآن ولاهوتيَّته الصَّبيانيَّة الَّتي هي أيضاً من صفات الأديان السَّاميَّة ما يقاس بنظريات الهندوس الَّتي أُتيح لي أن أُبَيِّن عُمقها العجيب في كتاب آخر » ، [صفحة ٦٧٤] .

لم نفهم ما يريده (لوبون) من عبارة : « عامِّيَّة القرآن ولاهوتيَّته الصِّبيانيَّة » ، ليته شرح لنا مقاصده ، كما أنَّنا لم نفهم معنى العمق العجيب في نظريات الهندوس الدِّينيَّة .

هل تخلَّى ياترى غوستاف لوبون عن ديانته السَّماويَّة ذات اللاَّهوتيَّة الصِّبيانيَّة كما يصفها ، فيقول : إن هذه الصِّفة من صفات الأديان السَّاميَّة ، وديانته ـ لاشك ـ ديانة ساميَّة ، فلماذا لم يتركها ، ويتنكَّر لها وينتقل إلى عبادة قوى الطَّبيعة ، كالشَّمس والقمر والهواء والعاصفة .. وإلى تقديس البقرة إن كان حقّاً ما يقول ويدَّعي ؟

أمَّا أن يقارن عالِمٌ فيلسوفٌ مؤرِّخٌ بهذه البساطة والسَّذاجة بين دين سماوي له من التَّشريعات ، ما ملأ المكتبات لها شرحاً وتفصيلاً وثناءً واقتباساً .. واعترف خصومها قبل أصدقائها بعظمتها وتقدُّمها وعدالتها وإنسانيَّتها ، وبين ديانات وثنيَّة لا تمتُّ إلى الفطرة السَّليمة بصلة ، ولا يقبلها منطق أو عقل .

التَّوحيد الخالص بلا غوامض أو خرافات ، أو أسرار أو خزعبلات ، مع تقديس العقل واحترام محاكمته ، لا عمق فيه ، بل إنَّه لاهوتيَّة صبيانيَّة ، وانتساب إلى الجنس السَّامي المفطور على إدراك الجزئيَّات وحدها ، ومن العبث أن نلتمس عند هذا الجنس آراء علميَّة أو دروساً فلسفيَّة ، أو عمقاً كما هو عند الهندوس الآريين !! وهكذا ، فإنَّ تعدُّد الآلهة ، والوثنيَّة ، وضبابيَّة الرؤية ، وإبعاد العقل و « وأقبل وأنت أعمى ، واسمع وأنت أعمى ، وأطع وأنت أعمى ... » ، عمق ولاهوتيَّة ناضجة مكتملة .

عجيب غريب أمر الأُوربيين ، لقد وصلوا في أيامنا هذه إلى قبول تعبئة هواء مدينة القدس في أوعية من البلاستيك الجميل المزيَّن ، واستيراده من الأرض العربيَّة المحتلَّة(١٠٩) ، ليباع للمتديِّنين بثمن غير بخس ، ليدس أحدهم أنفه ويستنشق الهواء بعمق ، إنَّهم يصدِّقون الخرافة من عدوِّنا ، ويرفضون الحقيقة منَّا ، لأنَّ خرافة العدو حولها مؤمنون يمدُّونها بحرارة العاطفة ، ورجالٌ دهاةٌ يوسعون مساحَتَها ، بما أُوتوا من عِلْم ومال(١١٠) .

ـ ٤٣ ـ

« ظهر من العرب رجالٌ من الطِّراز العالي ، كما تشهد بذلك اكتشافاتهم ، ولكنني لا أظنُّ أنَّهم أخرجوا رجالاً عظماء كأُولئك العباقرة الَّذين ذكرتهم(١١١) ، والعربُ كانوا دون الإغريق في كثير من المسائل ، مساوين للرُّومان في الذَّكاء لا ريب ، غيرَ حائزين ، إلاَّ لوقت قصير ، ما كان سبباً في دوام فوز رومة طويلاً من الصِّفات الْخُلُقيَّة » ، [صفحة ٧٣١] .

---

(١٠٩) يُصَدَّر هواء القُدس إلى أُوربة وأمريكة ، ولو تمَّ تعبئة هواء مكَّة ، لأنتج الأعداء المسلسلات ، ووظَّفت وسائل إعلامهم بلا استثناء لبثِّ وإثبات أن هواء مكَّة كأيِّ هواء آخر في الدُّنيا !؟!

(١١٠) الغزو الثَّقافي يمتد في فراغنا ، لمحمد الغزالي ، ص ٢٠٠ (بتصرُّف) .

(١١١) ذكر نيوتن ولايبنتز .

كنّا نتمنّى لوأن غوستاف لوبون أثبت صحّة قوله بأنّ العرب دون الإغريق في كثير من المسائل ، ببعض الأمثلة الّتي تقنع القارئ ، فإنّ ما كان يُعْرَف بالمعجزة اليونانيّة أصبح أُسطورة اليوم أمام المعجزة العربيّة الإسلاميّة ، والّتي لا شك أنّها أخذت واقتبست من كلّ الحضارات الّتي سبقتها ، لكنها نقدت وصحّحت وأضافت وأبدعت ، فجاءت علومها كالمعجزة خلال فترة وجيزة من عمر الزّمن .

« التّواصل والعطاء قديم بين الحضارات ، فما من حضارة قامت إلاّ وأخذت ممّن سبقها ، ثمّ أضافت وأبدعت ، فحركة الحضارة حركة تناوبيّة ، تأخذ وتعطي ، تتأثّر وتؤثّر ، وشرقنا أوّل من أعطى ، ثمّ أخذ ، ثمّ أعطى .

ولما جاء دور أُمتنا في بناء صرح الحضارة ، قامت بالدّور المطلوب منها بإتقان ، لقد قامت بعمل إنقاذي له مغزاه الكبير في تاريخ الإنسانيّة ، فترجمت وصحّحت وصوّبت ، ثمّ أضافت وأبدعت ، كلّ ذلك بدقّة وأمانة ، ولو وجد الأُوربيّون انتحالاً لفضحوا وهوّلوا ، وعابوا وناحوا ، مستصرخين الأمانة العلميّة ، مع أنّهم لم يكونوا أُمناء على تراثنا عندما ترجموه واقتبسوه ، لتبدأ نهضتهم العلميّة بعدها مباشرة ، فنسبوا قسماً مما نقلوه إلى أنفسهم »(١١٢) .

ولن نعود في هذا الكتاب إلى تفنيد ما يسمّى : (المعجزة اليونانيّة) ، فلقد فصّلنا ذلك في كتابنا : (فيليب حتّي) الّذي جعلنا سعاةَ بريد ، ترجمنا ونقلنا (المعجزة اليونانيّة) إلى أُوربة ، مع أن ما يُدّعى (المعجزة اليونانيّة) ـ كما يقول جورج سارتن في كتابه : (تاريخ العلم) ـ لها أبٌ وأُمٌّ شرعيان ، أمّا أبوها فهو تراث مصر القديمة ، وأمّا أُمّها فهي ذخيرة بلاد ما بين النّهرين .

---

(١١٢) حضارتنا العربيّة الإسلاميّة ، فصل : هل هناك حضارة عربيّة وإسلاميّة ؟ ص ١١١

تقول المستشرقة الألمانيَّة زيغريد هونكه : « إن الحضارة الإسلاميَّة المبتكرة ، لم تأخذ عن الحضارة الإغريقيَّة ، أو الحضارة الهنديَّة ، إلاَّ بقدر ما أخذ طاليس أو فيثاغورس[١١٣] من الحضارتين البابليَّة والمصريَّة .

لقد طوَّر المسلمون بتجاربهم وأبحاثهم العلميَّة ، ما أخذوه من مادَّة خام عن الإغريق ، وشكَّلوه تشكيلاً جديداً ، فالمسلمون ـ في الواقع ـ هم الَّذين ابتدعوا طريق البحث العلمي الحق القائم على التَّجربة .

إنَّ المسلمين لم ينقذوا الحضارة الإغريقيَّة من الزَّوال وحسب ، ونظَّموها ثمَّ أهدوها إلى الغرب ، إنَّهم مؤسِّسوا الطُّرق التَّجريبيَّة في الكيمياء والطَّبيعة والحساب والجبر والجيولوجيا وحساب المثلثات وعلم الاجتماع ، وبالإضافة إلى عددٍ لا يحصى من الاكتشافات والاختراعات الفرديَّة في مختلف فروع العلوم ، والَّتي سُرِق أغلبها ونُسِبَ لآخرين ، لقد قدَّم المسلمون أثمن هديَّة ، وهي طريق البحث العلمي الصَّحيح الَّتي مهَّدت أمام الغرب طريقة لمعرفة أسرار الطَّبيعة وتسلُّطه عليها اليوم »[١١٤] .

فأين رياضيات العرب من رياضيات اليونان ؟

وأين فيزياء العرب وعلم الضَّوء عندهم ، من فيزياء وعلم الضَّوء عند اليونان ؟

---

(١١٣) نظريَّة فيثاغورس : مساحة المربَّع المُنْشأ على وتر مثلث قائم الزَّاوية ، تساوي مساحة المربَّعَيْن المُنْشأين على الضِّلْعَيْن القائمين ، هي من أصل عربي بابلي ، فلوحة (تل حرمل) الحجريَّة ، والَّتي عثر عليها في ضواحي بغداد ، تدلّ على أنَّ البابليين سبقوا اليونان في حسابات المثلثات القائمة والمتشابهة بمئات مئات السِّنين ، وصورة اللَّوحة موجودة في : [أطلس التَّاريخ العربي] ص ١٨

(١١٤) شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٤٠٠/٤٠١ ، ولوبون يعترف في كتابه (روح الثَّورات) صفحة ٢٧٧ : « إنَّ عظمة الحاضر هي نتيجة لجهودات عصور الماضي ، وإنَّ حضارة الحاضر هي نتيجة لجهودات الأُمم كلّها في عصر الماضي » .

وأين طب العرب وصيدلتهم ، من طب اليونان وصيدلتهم ؟

وأين علم الفلك عند العرب ، من علم الفلك عند اليونان ؟... لا نقول ذلك لنقلّل من شأن اليونان وعلومهم وحضارتهم ، بل لندلّل على أنّه من الطّبيعي أن تتقدّم هذه العلوم على أيدي علماء العرب المسلمين بعد أن أخذوها ، وما وقفوا عند حدودها ، بل تجاوزوها إلى حدود أوسع وأعمق وأوثق دراسةً ونقداً وبحثاً ورقيّاً ، فإذا بها وكأنها علوم جديدة كلّ الجدّة ، متقدّمة كلّ التّقدّم ، تخضع لطرق البحث العلمي ملاحظة وتجربة ، حتى وصلت إلى مرتبة الحقائق العلميّة .

وكأن لوبون لم يطّلع على ما كان عند علماء العرب المسلمين في جوانب العلوم المختلفة ، مما لا يحصره كتاب ، ولا يأتي على ذِكْرِ علمائِهِ عدٌّ ولا حصر .

أنسي لوبون سَبْقَ الغزالي لِكَنْت وهيوم ؟

أمْ نسي أثر ابن رشد في أُوربة ، حيث قيل عنه : إنَّ طريقته في البحث ، دليلٌ قاطع على نُبله واستقامة أخلاقه واستواء ذهنه ، وأن فرنسيس باكون انتحل آراء وفلسفة ابن رشد ؟

أمْ نسي أثر ابن خَلْدون الَّذي سبق ميكياڤيلي ، وجون لوك ، جان باتيستاڤيكو ، وڤولتير ، وهردر ، وغبرييل تارد ، ودوركهايم ، وجان جاك روسّو ، ونيتشه ، وكارل ماركس ؟...

أمْ نسي الإدريسي ، والفارابي ، وابن سينا ، والمعرِّي ، وابن حزم ، وابن طُفَيل ؟...

أنسي الرَّازي ، وابنَ النَّفيس ، وعبد اللَّطيف البغدادي الَّذي يكفيه قوله عن جالينوس : « الْحِسُّ أصدق منه » ، فجعل العلم موقوفاً على التَّجربة ؟

أنسي جابر بن حيَّان الكوفي ، وأبا الرَّيحان البيروني ، وابن البيطار ،

وابن يونس ، وابن الهيثم الَّذي قال عنه وِّل ديورانت : « لامبالغة مهما قلنا في أثر ابن الهيثم في العلم في أوربة »[115] ؟..

أنسي الْخُوَارزمي ، والبتَّاني ، والزُّرقالي ، وابن الشَّاطر .. الَّذين عاشوا قبل كوبرنيكس فاقتبس منهم ، ونقل عنهم ؟..

أنسي لوبون أم تناسى ليقول : « ولكنني لاأظنُّ أنَّهم أخرجوا رجالاً عظماء كأُولئك العباقرة الَّذين ذكرتهم .. » !؟!

ومن الغريب أن لوبون نفسه يقول في أماكن أُخرى ماينـاقض قوله هنا ، ويتمنَّى لوأنَّ العرب المسلمين انتصروا في بواتيه ، ليصيب أُوربة النَّصرانيَّة المتبربرة مثل ماأصاب إسبانية من التَّقدُّم والارتقاء ، والحضارة الزَّاهرة الرَّفيعة تحت راية النَّبيِّ العربي ، [صفحة ٣٩١] ، ويقول : « والإنسانُ يقضي العجب من الهِمَّة الَّتي أقدم بها العرب على البحث ، فإذا كانت هنالك أُمم قد تساوت هي والعرب في ذلك ، فإنَّكَ لاتَجِد أُمَّة فاقت العرب على مايحتمل .. » ، [صفحة ٥٢٦] ، وقال : « إذن ، اختبر العرب الأُمور وجرَّبوها ، فكانوا أوَّل من أدرك أهميَّة هذا المنهج في العالم ، فظلُّوا عاملين به وحدهم زمناً طويلاً ، قال (دولانبر) في كتاب : (تاريخ علم الفلك) : إذا استطعت أن تعدَّ بين الإغريق راصِدَيْن أو ثلاثة ، رأيتَ بين العرب عدداً كبيراً من الرُّصَّاد ، وأمَّا في الكيمياء ، فلا تجد مجرِّباً يونانياً ، مع أنَّ المجرِّبين من العرب فيها يُعَدُّون بالمئات » ، [صفحة ٥٢٩] ، وقال : « ولم يقتصر شأن العرب على ترقية العلوم بما اكتشفوه ، فالعرب قد نشروها ، كذلك ، بما أقاموه من الجامعات ، وما أَلَّفوه من الكتب ، فكان لهم الأثر البالغ في أُوربة من هذه النَّاحية .. » ، [صفحة ٥٢٩] ، وقال : « قال بعض

(١١٥) قصة الحضارة ٢٧٥/١٣ ، وقال ديورانت في الصفحة ذاتها : « لولا ابن الهيثم لما سمع النَّاس قط بروجر بيكون » ، ولو أردنا الإطالة ، لأوردنا فصولاً كاملة من كتاب : « حضارتنا العربيَّة الإسلاميَّة » .

المؤلِّفين : إن لافوازيه هو واضع علم الكيمياء ، فنسوا أنَّنا لا عهد لنا بعلم من العلوم ، ومنها علم الكيمياء ، صار ابتداعه دفعة واحدة ، وأنَّه كان عند العرب من المختبرات ماوصلوا به إلى اكتشافاتٍ لولاها مااستطاع لافوازيه أن ينتهيَ إلى اكتشافاته » ، [صفحة ٥٧٣] ، وقال : « وما عجز الإغريق والفُرْس والرُّومان عنه في الشَّرق ، قدر عليه العرب بسرعة .. » ، [صفحة ٦٧٢] ، وقال : « إنَّ أُوربة مدينةٌ للعرب بحضارتها » ، [صفحة ٦٧٥] ؟!؟

أنسي لوبون هذا كلَّه ليقول : « والعربُ كانوا دون الإغريق في كثير من المسائل » ؟!

أيٌّ فرع أو جانب من العلوم ، زحف إلى أُوربَّة فردَّته ؟

إنَّها حضارة عربيَّة إسلاميَّة بهرت أبصارهم عندما كانوا يتسكَّعون في ظلمات الجهالة والتَّعصُّب ، وعندما حرَّمت الكنيسة تعليم نظام المجموعة الشَّمسيَّة إلى مابعد منتصف القرن الثَّامن عشر ، وعندما أصدر البابا الكسندر سنة ١٥٤٠ م أمراً يقضي برقابة كلِّ المطبوعات ، كيلا تنتشر الأفكار الحرَّة ، ولو كانت حقائق علميَّة ثابتة .

ـ ٤٤ ـ

« ولم يكن للقرآن تأْثير في جميع مذاهب العرب العلميَّة والفلسفيَّة الَّتي نشروها في العالم في خمسة قرون ..

غير أن العلماء كانوا لا يبالون ـ أبداً ـ بما بين نتائج اكتشافاتهم ونظريات الكتاب المقدَّس (القرآن) من الاختلاف ، فإذا مابلغت أفكارُهم الْحُرَّة عامَّة النَّاس اضْطُرَّ حماتهم من الخلفاء ، عادةً ، إلى نفيهم لأجل محدود احتراماً للشُّعور العام ، وإذا ماهَدَأَت الزَّوبعة بسرعة استدعاهم الخلفاء .. » ، [صفحة ٦٨٠] .

« لم يكن لـلإسـلام ، ديـانـةً ، تـأثيرٌ في آثـار العرب العلميَّـة والفلسفيَّـة » ، [صفحة ٦٨٢] .

نستغرب أن يقول عـالم مثل غوستـاف لوبون : إنَّـه لم يكن للقرآن تـأثير في جميع مذاهب العرب العلميَّة والفلسفيَّة ، ونريد أن نسأله السؤال التَّالي : هل كان عند العرب قبل الإسلام ، وكتابـه المقـدَّس (القرآن الكريم) ، أيٌّ مـذهب علمي أو فلسفي ؟ أليست جميـع مـذاهب العرب المسلمين هي نتيجـة أفكار الإسـلام بينهم ، ونتيجـة منـاقشـاتهم الَّتي دارت حـول آيــات القرآن الكريم وتعـاليمـه ، واختلاف اجتهاداتهم وآرائهم حولها ، أليس علم الكلام أو الفلسفة الإسلاميَّة نتيجة لكلِّ ذلك ؟

أليست جميع المذاهب الفلسفيَّة نتيجة مناقشات العلماء وأصحاب الفكر حول معتقدات إسلاميَّة ، وآيات قرآنيَّة ، مع اختلافهم في ذلك ؟

أليس تقدُّم الحركة الفكريَّـة عـامَّـة ، والعلميَّـة خـاصَّـة ، نتيجـة من نتـائج الإسلام ؟

أليس القرآن الكريم بـآيـاتٍ كثيرة جـدّاً هـو الَّـذي دعـا النَّـاس إلى التَّفكير وإعمال العقل في آيات الله في الكون ، وكشف مكنوناته ونواميسه ؟

هل خاطب القرآن الكريم في الإنسان شيئاً ، كما خاطب عقله وفكره ؟

إنَّ مااعتبره (لوبون) عدم مبالاة من العلمـاء بمـا بين نتـائج اكتشـافـاتهم ، ونظريَّات الكتاب المقـدَّس (القرآن الكريم) من اختلاف هو نفسـه معجزة هـذا الكتاب الكريم ، ذلك لأنَّ هؤلاء العلمـاء كانوا كلَّما وصلوا إلى نتيجـةٍ علميَّـةٍ ازداد إيمانهم بقرآنهم ، حيث لم يجدوا أيَّ كشفٍ علميٍّ يخـالف مـا ورد في القرآن الكريم ، وحتَّى اليوم ، تتكشَّف أُمورٌ تعتبر في باب الإعجاز للقرآن الكريم في هذا المجال .

وعودة منّا إلى كثير من أقوال العلماء ، وحتّى غير المسلمين منهم ، تزيدنا إعجاباً وإيماناً بصدق نبوّة محمّد ﷺ ، وأنّ القرآن الكريم لا يمكن أن يكون إلاّ وَحْياً من الله خالق كل شيءٍ ، ومنظِّم نواميس الكون ، وعودة مِنّا إلى بعض أقوالهم في مجال علم الأجِنَّة والتّشريح وعلم الفلك والفضاء وعلم البحار ، وغير ذلك من العلوم ، تزيدنا إيماناً بمعجزة محمّد ﷺ الخالدة ، ألا وهي القرآن الكريم ، وإنّ ما جاء في كتاب الدكتور موريس بوكاي في دراساته العلميَّة حول الكتب المقدّسة : التّوراة والإنجيل والقرآن ، يعتبر غيضاً من فيض في هذا المجال .

والبرفيسور كيث مور Keith L. Moore رئيس قسم الأجنَّة في جامعة تورنتو بكندا ، أعلن إسلامه عندما درس علم الأجنّة كما ورد في القرآن الكريم والسُّنَّة الشَّريفة ، لتطابقه كما ورد بها مع العلم الحديث وحقائقه في هذا المجال .

والبروفسُّور تاجاناتاجوسون ، رئيس كلية الطب في تايلاند ، بوذي أسلم بعد دراسة المضغة الْمُخَلَّقة وغير الْمُخَلَّقة .

والياباني البروفسُّور يوشيكي قال بعد أن درس الآيات الَّتي تتحدَّث عن خَلْق الكون : القرآن لا يمكن أن يكون من مصدر بشري ، لقد عرفت منهجاً جديداً في دراسة الكون ، النَّظرة الشُّموليَّة ، لا النَّظرة الضَّيِّقة ، القرآن حجَّة محمَّد الباقية ، الَّتي تقنع المسلمين ، وغير المسلمين ، وكلَّ الأجيال إلى يوم الدِّين .

والبروفسُّور جولي سمسن من جامعة نورث وسترن (شيكاغو) تأكَّد بنفسه إلى نصوص القرآن والسُّنَّة ، فيما يتعلَّق بالإنسان وخَلْقِهِ ، فقال : بإمكان الإسلام اليوم أن يقود العلم قيادة ناجحة .

والبروفسُّور هِيَيه ، مختص بعلم البحار ، درس ما جاء في القرآن الكريم بهذا الشَّأن ، فقال : شيءٌ مثير جدّاً ، إنَّها آياتٌ ليست من مصدر بشري ، إنَّها من الله ، إنَّه من العلم الإلهي .

والدكتور بالمار ، مختص بالجيولوجيا ، قال : القرآن كتاب عجيب ، وأنا لاأعلم المستوى الثّقافي الّذي كان عليه النّاس أيّام محمّد ، ولكنّه كان متواضعاً ، فعلوم القرآن نورٌ من العلم الإلهي ، أوحى الله به إلى محمّد[١١٦] ..

أمّا مَن اعتبرهم لوبون مخالفين بأفكارهم الْحُرَّة للمجتمع الإسلامي ، ويحميهم الخلفاء ، ونسي أن يقول ويضطهدهم أحياناً الخلفاء ، فهم بين أحد رجلين ، فإمّا عالم رفضَ أن يقول بما يقول به الخليفة من آراء واجتهادات ، رأى فيها مخالفة لما توصّل إليه من اعتقاد ، كمخالفة الإمام أحمد بن حنبل للمأمون ، ورفضه آراء المعتزلة في أُمور فلسفيّة ، فناله الاضطهاد والسِّجن أيّام المعتصم .

أو رجل خرج بأعماله وأفكاره عن معتقدات قومه زندقة وإلحاداً ، والزِّنديق أو الملحد على أغلب الأحايين ، لايحمل نظريّة ، إنّه يحمل تحلُّلاً وانفلاتاً ، وفي كلِّ مجتمع نفرٌ من هذا القبيل ، تلاحقهم عادة نقمة المجتمع وغضبه .

فأين (لوبون) من الحقيقة في مجال تأثير القرآن الكريم في المجتمع العربي خاصّة ، والإسلامي عامّة ؟ بل نستطيع القول غير مبالغين بأنّ الإنسانيّة عبر تاريخها الطّويل لم تعرف كتاباً أثّر في النّاس ، في حياتهم وأفكارهم وعلومهم وفلسفاتهم كما أثّر القرآن الكريم .

ونردُّ على عبارة (لوبون) الأخيرة بقولنا : ربما لانجد لدى علماء المسلمين كتاباً علمياً أو فلسفياً إلاّ وأثر الإسلام واضح فيه إلى درجة كبيرة ، حتّى كان العلماء في جميع مجالات العلم هم أوّلاً علماء في الدِّين والفقه والحديث ، ثمّ علماء في الطِّب والفلك والرِّياضيّات وغيرها .

---

(١١٦) أقوال : كيث مور ، وتاجاناتا جوسون ، ويوشيكي ، وجولي سمسن ، وهييه ، وبالمار .. وغيرهم كثير مسجّلة من فمهم (صوتاً وصورةً) خلال محاضرات دعا إليها الشّيخ عبد المجيد الزّنداني ، رئيس جمعية : (الإعجاز العلمي في القرآن والسُّنّة) ، واقتبست هنا عن شريط مرئي وهم يتحدّثون شخصياً بأصواتهم بالإنكليزيّة ، الّتي رافقها التّرجمة إلى العربيّة مباشرة .

وتحت عنوان : ورثـة العرب في الهنـد ، يقـول (لـوبـون) : « والإنكليز هم ورثة المغول في الهند ، والإنكليز قـد مَـدَّنوهـا ، أي أنشـأوا فيهـا الطُّرق والخطوط الحديديَّـة ، الَّتي يسهل عليهم أن يستغلوهـا بهـا ، ولكنَّـه نَجَمَ عن هـذه الحضـارة الجـديـدة أن غَرِقت بلاد الهنـد في بحر من البـؤس ، لم تَرَ بقعـة من بقـاع الـدُّنيـا مثله » ، [صفحة ٧٠٥] .

وقبل أن نفنِّد ماجاء به (لوبون) في العبارات السَّابقة ، نورد بعض ماقاله عن نتـائج احتلال الإنكليز للهنـد : « ودَرَس حـديثـاً أحـدُ كتَّـاب الإنكليز مستر هندمان حالةَ الهند في العهد الإنكليزيِّ فأثبت أنَّ إنكلترة تُغْرِقُ الهنود بالضَّرائب ، فلا يبقى لهم غيرُ الموت جـوعـاً ، وأنَّهـا تُخَرِّب جميـع مصـانعهم لكي تتمكَّن السِّلـع الإنكليزيَّة من إيجاد أسواق لها عندهم ، ثمَّ قال : إنَّنا نسير إلى مصيبـة لامثيل لهـا في تاريخ العالم » ، [صفحة ٧٠٦] .

ليت (لوبون) أجرى مقـابلـة بين دخول المسلمين إلى الهنـد ومـا خلَّفـوه في هذه القـارة وشعوبهـا من آثـار ، وبين دخول الإنكليز حين قـال : « وغرقت بلاد الهنـد في بحر من البـؤس لم تَرَ بقعـة من بقـاع الـدُّنيـا مثلـه » ، في عهـد الإنكليز انتشرت العبوديَّـة ، حيث أصبح الإنكليز سـادة ، وأصبح الهنـود عبيـداً ، وانتشر الجهل والفقر والمرض ، ومـا تزال شعوب الهنـد تعـاني حتَّى اليوم من آثـار ذلـك العهد البغيض البعيد كلَّ البعد عن معاني الحضارة الإنسانيَّة .

« مدَّنوها » ، كيف ؟ « أنشأوا فيها الطُّرق والخطوط الحديديَّـة » ، لمـاذا ؟ لكي « يسهل عليهم أن يستغلُّوها بها » .

بينمـا كان يرافـق دخـول الإسـلام إلى الهنـد ، وغيرهـا ، تحرير الإنسـان من

العبوديّة لغير الله ، وتحرير الفكر ، ولهذا سرعان ما نجد تقدُّماً في مجالات الحياة العلميَّة والفلسفيَّة في مناحيها المختلفة ، وآثار الإسلام في شعوب الهند ومدنها باقية أكبر شاهد ودليل على ذلك .

لقد فتح المسلمون السِّند ، وجانباً من الهند في صدر الإسلام ، ثمَّ أكمل الفتح محمود بن سُبُكْتُكِين الغزنوي ، ورسخت قدم الإسلام في الهند من بعده ، ولم يبق خارجاً عن طاعة الإسلام في الهند سوى مملكة يقال لها (أُودبور) ، لها ملك يقال له (مهرانا) ، وهو لقب أكبر من (مهراجا) ، وبدأ الاحتلال البريطاني للهند سنة ١٨٠٥ م بشركة الهند الشَّرقيَّة ، الَّتي كان هدفها الظَّاهري التِّجارة وجني الأرباح ، واكتساب الأموال ، إلاَّ أنَّها وطَّدت قدمها ، وأحكمت سيطرتها بتؤدة ، وتحوَّلت إلى حكومة تامَّة ذات سياسة طموحة ، ترمي إلى الاستعمار والاحتلال ، وفي سنة ١٨٥٧ م أخمدت بريطانية ثورة ، وألغت شركة الهند الشَّرقيَّة ، وجعلت الهند تابعة مباشرة للتَّاج البريطاني ، ونودي بعد ذلك بالملكة فكتوريا امبراطورة الهند .

قال غاندي : « اعلموا أنَّ الإنكليز يبتغون نيل القناطر المقنطرة من مال بلادنا والتَّلَذُّذ بثمراتنا ، والانتفاع بقوَّة رجالنا وأولادنا ، كلُّ ذلك في سبيل جشعهم الامبراطوري ، ونهمتهم الاستعماريَّة »[١١٧] .

وقال الكاتب الهندي (براماثانات بوز) : « إنَّ الاستنزاف يسوق الهند إلى درك الخراب سَوْقاً »[١١٨] .

ونتيجة لهذه السِّياسة البريطانيَّة الاستعماريَّة ، اجتاحت المجاعات المتعدِّدة الهند ، وهي فوق كلِّ تصوُّر بشري من حيث الخسائر ، لقد استأثر المستعمرون

(١١٧) حاضر العالم الإسلامي ٢٠١/٤

(١١٨) المرجع السَّابق ٢٢٤/٤

بالأرباح والمكاسب ، واستنزافهم منابع الثّروة الوطنيّة ببضاعاتهم وأدواتهم ، وتركهم السّواد الأعظم من الهنود عالة عليهم ، بحيث إذا احتبس المطر قليلاً ، أو هبّت على الزّروع لافحة سموم ، فقلّ المحصول ، وارتفعت أسعار الغذاء ، لم يبق أمام هؤلاء الأهالي سوى الموت جياعاً ، أو بالأمراض الّتي سبّبها سوء الغذاء ، لأنّ الّذي يأخذونه بدل عملهم ، لا يعود كافياً لشراء قوتهم الضّروري ، ولا نجد إنكليزياً واحداً مسّه الجوع ، أو مات سغباً .

والشّيءُ الّذي يسترعي الانتباه في عبارة (لوبون) ، قوله : « ولكنه نجم عن هذه الحضارة الجديدة ـ أي حضارة الإنكليز ـ أن غرقت الهند في بحر من البؤس ، لم تَرَ بقعة من بقاع الدُّنيا مثله » ، كُنّا نتمنّى لو استعمل كلمة أُخرى غير كلمة الحضارة ، فمتى كانت الحضارة مرادفة للبؤس والجوع والعبوديّة ؟ إنه الاستعمار الّذي دخل البلاد لاستعباد الشّعوب واستغلال خيراتها ومصِّ دمائها ، أين هذا من ارتفاع المآذن مع المسلمين تعلن أنّه لاعبوديّة لغير الله ، وتعلن المساواة بين البشر ، ولا تفاضل في اللّون أو العِرق .. وارتفعت منارات العلم في كلِّ مدينة وقرية وكثر عدد العلماء والمدارس والمكتبات .

لقد عمَّ الرّفاه البلاد الّتي فتحها المسلمون ، لاستتباب الأمن فيها ، وأصبح الفاتح المسلم أحبَّ إلى الشّعوب من الحاكم السّابق ، لأنّهم رأوا عملياً خير الإسلام وفائدته ، وقام الجميع لخدمة العلم ، حتّى إن أشهر العلماء في كلِّ الميادين كانوا من سكّان البلاد المفتوحة ، وكلُّهم علماء خلّدهم التّاريخ أرهاطاً في ميادين العلوم ، عاشوا وماتوا لخدمة الحضارة العربيّة الإسلاميّة .

وصار ابن البلاد الّتي فتحت يحمد الله عزَّ وجلَّ ويشكره لكونه مسلماً ، ولأنّه صار على دين الفاتحين وحضارتهم ، فهل حمد الله إنسانٌ في مستعمرة أُوربيّة لأنّه استُعْمِرَ ؟ لاقطعاً ، فلماذا ؟!

فورثة العرب المسلمين في الهند لم يقيموا « حضارة جديدة » كما يقول (لوبون) ، بل أقاموا عبودية وبؤساً وشقاء وجهلاً وأمراضاً وتخلُّفاً ...

- ٤٦ -

« لوظهر نابليون في زمن لويس الرَّابع عشر ما استطاع أن يصير سيِّد أُوربة ، ولو ظهر محمَّد أيَّام سلطان الرُّومان ما قَدَرَ العرب على الخروج من جزيرتهم لا رَيْب ، ولظلَّ التَّاريخ جاهلاً لهم » ، [صفحة ٧١٥] .

لقد أخطأ (لوبون) في هذه المقارنة ، وشتَّان ما بين الصُّورَتَيْن ، ما علاقة نابليون ، وما وجه الشَّبه بينه وبين محمَّد ﷺ في هذه المقارنة .

إنَّ (لوبون) يعلم ، أو يجب أن يعلم أنَّ التَّاريخ لا يعرف حرف (لَوْ) ، فليس في التَّاريخ (لَوْ) ، والتَّاريخ حوادث حدثت وسط ظروف لا تعود ولا تتكرَّر ، لأنَّ العنصر الأساسيَّ فيها هو الإنسان ، الَّذي لا تتكرَّر صوره النَّفسيَّة والرُّوحيَّة والفكريَّة ، وإن تكرَّرت صوره المادِّيَّة أحياناً .

إنَّ الَّذي جعل نابليون سيِّد أُوربَّة ، ليس لكونه نابليون ، بل لظروف معيَّنة مرَّت بها فرنسة بعد ملوكها من آل بوربون ، وفي مقدِّمة تلك الظُّروف الثَّورة الفرنسيَّة (تموز ١٧٨٩ م) ، الَّتي أطاحت بأولئك الملوك ، وأنظمة حكمهم المستبدَّة ، وجاءت ظروف معيَّنة رفعت من سمعة وشعبيَّة نابليون لدى الشَّعب الفرنسي ، وفي مقدِّمة تلك الظُّروف ، تحقيقه للانتصار العظيم على امبراطوريَّة النِّمسة ، مما جعل الشَّعب الفرنسي يرى فيه رمزاً لعزَّته وانتصاره ، فبنى الآمال عليه ليحقِّق له نصراً مماثلاً على بقيَّة أعدائه ، وفي مقدِّمتهم الإنكليز .

أمَّا محمَّد ﷺ فظروف انتصاره تعود إلى تلك الرِّسالة الإلهيَّة الَّتي حملها ، وهي رسالة الإسلام الَّتي وحَّدت أبناء جزيرة العرب ، وجعلت منهم أُمَّةَ جهاد

تحرص على الشّهادة أكثر من حرصها على الحياة ، وجعلت من حكّامها الأوائل وكبار رجال دولتها قدوة في العالم للعدل والحقّ ، وتطبيق المساواة ، وما يسمّى اليوم (بالديمقراطيّة) الحقيقيّة غير المزيّفة ، حكام شعروا بمسؤوليتهم أمام الله ، وأمام شعوبهم ، وكانوا يسألون عن تصرّفاتهم بموجب دستور هو القرآن الكريم ، ولهذا نقول إن حكم غوستاف لوبون خاطئ ، وإنّ أُمّةً آمنت برسالة الإسلام ومثله العليا ، كانت ـ وما تزال ـ تنتصر مهما واجهتها من قوى ، ولو كانت تلك القوى الامبراطوريّة الرّومانيّة في عنفوان مجدها : ﴿ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب ٦٢/٣٣] .

إنّ مقارنة (لوبون) بين محمّد ﷺ وبين نابليون خطأ من بداياته ، فلا يُقَارن نبيٌّ مرسل ، ثابت المبدأ ، قال : « والله لو وضعوا الشّمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ، ماتركته حتّى يظهره الله أو أهلك دونه »[١١٩] ، وبين نابليون الرّجل المتقلّب ، الّذي قال في مجلس شورى حكومته : « إنّني أتممت حرب الفندائيّين لما تكثلكت ، واستوليت على مصر إذ أسْلَمْت ، وتوّجتُ بالظّفر في حرب إيطالية لأنّي قلت بعصمة البابا ، ولو كنت أحكم شعباً يهوديّاً لأعدت بناء هيكل سليمان »[١٢٠] .

ـ ٤٧ ـ

« نيرُ تلك الشّريعة الحازم ظلّ طيّباً ماظلّت نُظُم النّبيّ ملائمة لاحتياجات أُمّته ، فلما أصبح تعديل تلك النُّظُم ضربة لازبٍ بسبب مبتكرات حضارة العرب ، كان نيرُ التّقاليد من الثّقل بحيث لا يمكن زحزحته » ، [صفحة ٧٢٣] .

---

(١١٩) ابن هشام ١٧٠/١

(١٢٠) روح الاجتماع ، تأليف غوستاف لوبون ، ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا ، مطبعة الشّعب ، القاهرة ١٩٠٩ م .

إن طبيعة الشَّريعة الإسلاميَّة لاتجعل منها نيراً على معتنقيها مهما تطوَّرت الحضارة ، وكثرت مبتكراتها واختراعاتها ، وذلك لأنَّ شريعة الإسلام كما وردت في مصدرَيْها الأساسِيَّيْن ، القرآن الكريم والسُّنَّة الشَّريفة ، لم تتعرَّض إلاَّ للأُمور العامَّة في حياة المجتمع ، وإلى الأُمور الخالدة في حياة الأفراد ، فالقيود الَّتي تفرض العدل والحقّ والمساواة والصِّدق .. وتمنع الغشّ والضَّرر والجريمة .. إنَّما هي أُمور لاتعرف التَّبديل مهما تطوَّرت الحضارات وتقدَّمت البشريَّة ، وكذلك حين نفرض على الإنسان مايحفظ عليه صحَّته وعقله ، ونمنعه من تجاوز حقوقه وحرِّيَّاته ، فإنَّما نقرِّر أُموراً خالدة خلود البشريَّة ، ترتفع وترتقي عبر تاريخها ومسيرتها وتطوُّرها ، وهذه هي الأُمور الَّتي وردت فيها التَّشريعات الإسلاميَّة ، أمَّا الأُمور الَّتي تتقبَّل وتتطلَّب التَّقدُّم والتَّطوُّر والتَّبديل تبعاً لتطوُّر الأُمم ، فقد تركها الإسلام دون قيود ملزمة ، ليجد لها الإنسان مايناسبها من أحكام وقوانين ، والأصل في الأشياء الإباحة[١٢١] ، ومن هذه الزَّاوية يبقى الإسلام تشريعاً صالحاً لكلِّ زمان ولكلِّ مكان ، وهذه حكمة الله في آخر رسالاته إلى البشريَّة ، فمن الطَّبيعي أن تتَّصف بصفة ديمومة صلاحها ، وخلود تشريعاتها ، لما فيه صالح الإنسان ، أي إنسان ، فما سمعناه عن عدل عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه وورعه ، نتمنَّى مثيله في القرن العشرين ، وبعد مضي أربعة عشر قرناً على ظهور الإسلام .

وهل أصدر (لوبون) رأيه في الفقرة السَّابقة ، بعد أن سأل عدداً من المسلمين الملتزمين ، فكان جوابهم : إن الشَّريعة نيرٌ في رقابنا ، أو عبءٌ على عاتقنا ؟

إنَّ دين الفطرة لا يشكِّل نيراً : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

(١٢١) مع المصالح المرسلة ، وسلطان العُرْف ، ولكن ساحة الثَّوابت مستقلة .

لا يَعْلَمُــونَ ﴾ ، [الرّوم ٣٠/٣٠] ، لا يشكّــل نيراً لأنّــه فطرة الله ، والله أعلمُ بمن خَلَقَ .

ودينٌ نبذ العقل ، وآمن بـالأسرار والخرافـات ، هو النّير الثّقيل الّـذي يجب زحزحته .

وليكتمل الرّدُّ ، نورد أهمَّ الخصائص الّتي تميّزت بها الشّريعة الإسلاميّة(١٢٢) :

١ً ـ **الشّمول والإحاطة** : فما من قضيّـة تتّصل بنظـام الاجتماع الإنسـاني من سياسـة ، أو اقتصـاد ، أو إدارة إلاّ وبيّنت الشّريعـة الإسلاميّــة فيهـا الرّأي الصّائب ، والموقف السّديد .

٢ً ـ **التّكامل والتّرابط** : الشّريعة الإسلاميّة نظـام متكامل لا ينقصـه شيء ، ولم يفتـه شيء ، وهي نظـام لا يمكن أن يؤخـذ ببعضـه ويترك بعضـه ، لأنّـه كلٌّ متكامل لا يمكن الاستغناء عن شيء منه بحال .

٣ً ـ **الواقعيّة وسهولة التّطبيق** : نظام لا يعيش في فراغ ، ملتصق بالحياة ، ولكلِّ فرد في المجتمع والمسلم عمله ، وعليه واجباته .

٤ً ـ **وضوح الغايـات** ، **ونبل الوسـائل** : الفكرة واضحـة ، توحيـد الله قيوم السّموات والأرض ، الّذي أوحى إلى محمّـد بن عبـد الله ﷺ كتـابـاً هو : (هـدى النّاس) ، فيه سعادتهم ، تحقّق مبادئه : (خير أُمّة أُخرجت للنّاس) .

والشّريعة الإسلاميّة قسمان :

١ً ـ قسم من مبادئهـا ثـابت لا يتغيّر بتغيُّر الزّمـان والمكان والنّـاس ، أحكام قطعيّـة كحرمـة الـزّنـا والخمر والميسر والرّبـا ، وكأنصبـة الـورثـة من مـورثهم ، وكالحدود ، والضّوابط العامّة ، والقواعد العامّة الّتي يُعْرَف بها الحلال والحرام .

---

(١٢٢) الغزو الفكري ٦٦ ـ ٧٠

٢ ـ وقسم متغيّر للمتطلّبات الآتية في كلّ زمان ومكان ، وتفسير الأحكام أو تأويلها يكون من لدن رجال الفقه الإسلامي ، مادام التّفسير مؤيّداً بالقرائن والدّلائل ، فالاجتهاد فهم قواعد الشّريعة وأُصولها العامّة فهماً دقيقاً واعياً ، ثمّ تطبيق هذه القواعد والأُصول على قضايا جديدة لم يكن لها نظائر في السّابق .

وهذا القسم المتغيّر هو الّذي يتيح لأهل الرّأي وأصحاب الحلّ والعقد من المسلمين أن يضعوا من النُّظم والقوانين لكلّ عصر ما يناسبه ، ولكلّ زمانٍ ما يليق به ، متجاوبين في ذلك مع مصالح المسلمين المتجدّدة المتغيّرة .

فكيف تُتّهم هذه النُّظُم بالقصور ، وعلى عدم القدرة على مواكبة ركب التّحضّر والتّقدّم ؟!

ـ ٤٨ ـ

إنّ العرب « أرقى من جميع أُمم الغرب الّتي عاشت قبل عصر النّهضة أخلاقاً وثقافةً ، فلم تعرف جامعات القرون الوسطى في قرون كثيرة ، مصدراً غير مؤلّفاتهم ومناهجهم ، وكانت أخلاقهم أفضل من أخلاق أجدادنا بمراحل » ، [صفحة ٧٣١] .

« إنّ أكابر العرب السّابقين دون أكابر الزّمن الحاضر بما يستحقّ الذِّكر ، ولكن عرب الطّبقات الوسطى السّابقة مساويةٌ لأبناء طبقاتنا الوسطى المتمدّنة الحاضرة على الأقل ، وأرقى منها في الغالب » ، [صفحة ٧٣٢] .

مثل هذه الأقوال من غوستاف لوبون شهادات حقٍّ يعتزّ بها العرب ، بل وهي ردٌّ واضح وصريح على بعض ما ورد بحقّ العرب من أقوال غوستاف لوبون وغيره ، فقد تأكّد للجميع أن علماء العرب المسلمين كانوا أساتذة العالم خلال فترة العصور الوسطى ، حين كانت أُوربّة غارقة في بحار ظلام الجهل والجمود الفكري ، والتّعصّب الأعمى ، والتّخلّف في ميادين الحياة المختلفة ، بينما كان العرب المسلمون

ينعمون وتنعم بلادهم الممتدة من حدود الصّين شرقاً إلى مياه الأطلسي غرباً ، بحضارة تتميّز بتقدُّم كبير في العلوم المختلفة وكشوفها ومخترعاتها الكثيرة ، وبتحرُّرها الفكري ومدارسها الفلسفيَّة والفنِّيَّة .

ولا ندري لماذا عاد (لوبون) بعد أقواله هذه عن رفعة العرب أخلاقاً وثقافةً إلى القول بأنَّ أكابر العرب السَّابقين كانوا دون أكابر الزَّمن الحاضر ، ولا ندري تماماً ، ماذا يقصد بكلامه هذا ؟ فهل كانوا دونهم علماً ؟ وهذا ـ إن أراده لوبون ـ كان أمراً طبيعيّاً تبعاً لتقدُّم العلوم المستمر ، إلاَّ أنَّهم في زمانهم ما كان لهم ندٌّ أو منافس في العالم قاطبة ، ولهذا غدت مؤلَّفاتهم ومناهجهم العلميَّة المصدر الأساسي لجامعات أُوربَّة لقرون عديدة ، كما يعترف ويقرِّر لوبون نفسه .

ـ ٤٩ ـ

استخدم غوستاف لوبون ـ على الأغلب ـ كلمة (الاستيلاء) ، كلَّما تحدَّث عن فتوحاتنا العربيَّة الإسلاميَّة ، ومثال ذلك :

« استولى عليه العرب » ، [صفحة ١٦٦] ، « استولت على بلاد مصر والنُّوبة » ، [صفحة ١٧٦] ، « وجاب أُسطول مؤلَّف من ألف ومئتي قطعة البحرَ المتوسِّط ، فاستولى على جزره وأغار على صِقِلِّيَة » ، [صفحة ١٧٦] ، « استولى عليها العرب » ، [صفحة ١٨٦] ، « استيلاء العرب على سوريَّة » ، [صفحة ١٨٧] ، « استيلاء العرب على مصر » ، [صفحة ٢٥٥] ، « استولى العرب .. » ، [صفحة ٣٨٤] ، « الاستيلاء عليها » ، [صفحة ٣٩٠] ، « واستولى على مدينة .. » ، [صفحة ٥٢٧] ، « وكلُّ قُطْرٍ استولى عليه » ، [صفحة ٧٢٠] ..

بينما لم يستخدم لوبون لقومه إلاّ كلمة الفتح :

« فَتْحُ النُّورمان لصِقِلِّيَّة » ، [صفحة ٣٧٦] .

« بَعْدَ الفتح النَّصراني » ، [صفحة ٣٨١] ..

لماذا يستعمل (لوبون) كلمة الاستيلاء ومشتقَّاتها ، عند دخول العرب لأيٍّ بلد من البلاد ، حتَّى ولو كانت ذات أُصول عربيَّة ، ولها ماضٍ عربي مثل بلاد مصر وسوريَّة ، بينما يستعمل كلمة الفتح عند كلامه عن غير العرب كقوله : فتح النُّورمان لصِقِلِّيَّة ، وكقوله : الفتح النَّصراني ؟

لماذا يعمد (لوبون) إلى هذا التَّمييز ؟ علماً بأنَّه إن أراد الإنصاف الَّذي عرفناه عنده في بعض مواقفه الأُخرى ، لوجب أن يقلب الآية ، لأنَّ العرب ما فتحوا البلاد بهدف الاستيلاء عليها لاستغلال خيراتها وأهلها ، وإنَّما كانوا يحملون رسالةً اعتقدوا أنَّهم رسل تبليغها إلى أهل الأرض ، ولهذا سرعان ما كانوا يتعايشون مع أبناء البلاد المفتوحة ، وتصبح المساواة بينهم الصِّفة الملازمة لحكمهم ، مادام الإسلام سائداً بينهم .

- ٥٠ -

واستخدم (لوبون) عبارات الشَّك في مصادرنا ، والرِّيبة في مؤرِّخينا :

« ويروي مؤرِّخو العرب » ، [صفحة ١١٩] ، « كما روى العرب » ، [صفحة ١٢٣] ، « ورأي العرب » ، [صفحة ١٢٩] ، « على زعم كتب السِّيرة » ، [صفحة ١٣٠] ، « كما روى مؤرِّخو العرب » ، [صفحة ١٣٢] ، « روى مؤرِّخو العرب » ، [صفحة ١٣٣] ، « ما رواه مؤرِّخو العرب » ، [صفحة ١٤١] ، « روى مؤرِّخو العرب » ، [صفحة ١٧٥] ..

إنَّ كتب السِّيرة اعتمدت في كتاباتها عن حياة الرَّسول ﷺ الطُّرق العلميَّة المتَّبعة حديثاً في توثيق أخبارها ورواياتها ، فأخبارها تُذْكَرُ مع مصادرها وأسماء رواتها مع دراسة دقيقة لهؤلاء الرُّواة ، فهل من الإنصاف أن نقول « تزعم كتب السِّيرة » ؟

يقول اللُّورد هِدْلي : « ولكن الَّذين يرموننا بسهام النَّقد ، قد غاب عنهم شيءٌ واحد ، غاب عنهم أنَّ الحقائق التَّاريخيَّة الخاصَّة بالنَّبيِّ ﷺ هي من الشُّهرة والثُّبوت بحيث لا يتسنَّى معها اختلاق شيءٍ جديد ، فإنَّ لنا معشر المسلمين كتباً ضخمة معترفاً بصحَّتها ، تحتوي على أحاديث الرَّسول ﷺ ، الَّتي محَّصها الرُّواة تمحيصاً دقيقاً ، ومن هذه الكُتُب نستمدُّ كلَّ ما نريد أن نكتبه عن النَّبيِّ ﷺ .. وقد بلغ من عناية المسلمين بهذا الأمر ، أنَّهم يضربون عُرْض الحائط بكلِّ ما يقال عنه ﷺ ، ممَّا لم يرد له ذكر في كُتُب السُّنَّة ، مهما كان فيه تمجيده والإشادة بذكره »(١٢٣) .

« على زعم كُتُب السِّيرة » عبارة بعيدة كلَّ البُعْد عن صفة العالم المنصف المتجرِّد عن الهوى ، والتَّحيُّز والتَّعصُّب ، وكان الأولى به والأجدر ، أن يقول : وجاء في كتب السِّيرة ، أو ذكرت كتب السِّيرة ، ثمَّ لينقد ما جاء إن كان يريد نقداً أو تمحيصاً لما ورد في تلك الكتب .

أما أراد داڤيد صموئيل جليوث ـ معاصر لوبون ـ أن نمزِّق كلَّ مصادرنا الأدبيَّة والتَّاريخيَّة ، بل ربَّما كان علينا أن نُلقي عقولنا أيضاً ، استجابةً لشكوكه الَّتي نسجها حول مصادرنا(١٢٤) .

ويعترف إميل درمنغهم في كتابه (حياة محمَّد) : « أنَّه لا يوجد واحد في الدُّنيا أمكنه أن ينكر وجود محمَّد ، ولكن وُجِد من ينكرون بعض ما جاء في ترجمة محمَّد في الكتب العربيَّة ، ومن النَّاس من يتجاوز الحدَّ في النَّقد والاعتراض حتَّى يقع في الظُّلم ، أمَّا أنا فقد جعلت كتابي سيرة حقيقيَّة مبنيَّة على المنابع

(١٢٣) من مقدِّمة اللُّورد البريطاني المسلم هِدْلي ، لكتاب المثل الأعلى في الأنبياء ، لخوجة كمال الدِّين ، ص ١٧ ، طبعة دار الفكر المعاصر ، بيروت ، سنة ١٩٨٩ م .

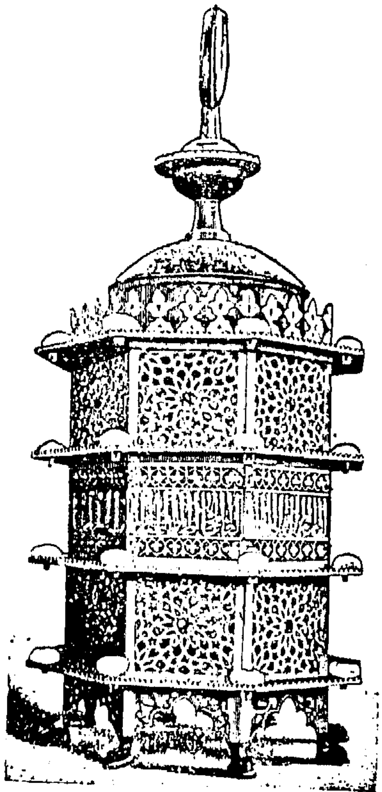
(١٢٤) مناهج المستشرقين ٤٣١/١ ، وهذا ما انتحله طه حسين ، وروَّج له في كتابه : (في الشِّعر الجاهلي) .

العربيَّة الأصيلة بدون إهمال جميع ما وصلت إليه تدقيقات المتخصّصين في هذا الموضوع في الأزمنة الأخيرة .. إن من المنابع الأُولى لسيرة محمَّد القرآن والسُّنَّة »(١٢٥) .

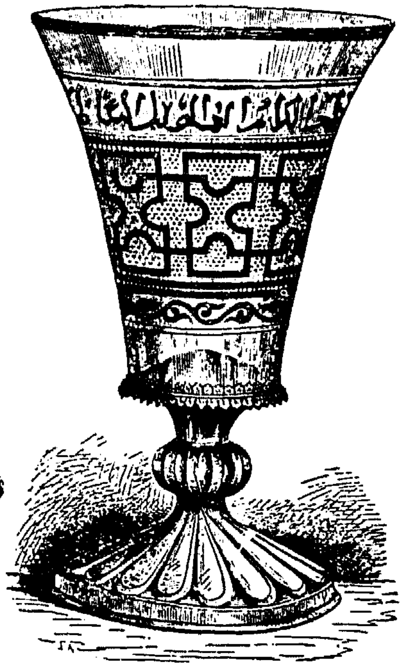
إنَّهم يقفون موقف المطمئن الواثق من أيِّ خبر أو قول أو شعر يطعن أو يمسُّ بالإسلام ونبيِّه ، أمَّا سيرة محمَّد ﷺ فلا يرونها مصدراً تاريخيّاً صحيحاً ، إنَّها تحتاج - حسب زعمهم - إلى التَّحقيق ، والبحث العلمي الدَّقيق !؟!

☆ ☆ ☆

(١٢٥) حاضر العالم الإسلامي ٤٤/١



مسرجة مسجد قديمة مصنوعة من البرونز
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف في القاهرة)



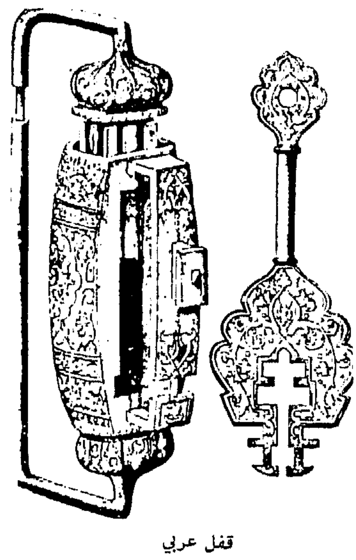
قدح عربي يعرف بقدح شارلمان ويرجح أنه جيء به من الشرق أيام الحروب الصليبية
(متحف شارتر)



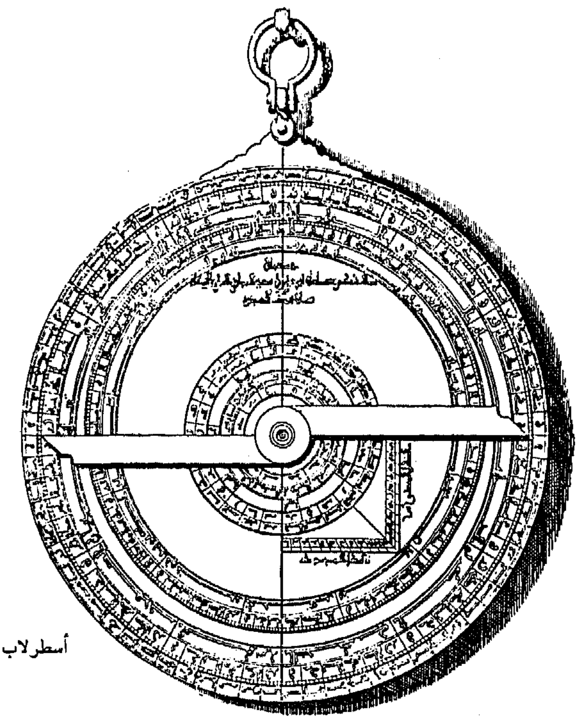
إبريق عربي مصنوع من البلور في القرن العاشر من الميلاد (متحف اللوفر)
(صورة أخذت من جريدة الفنون الجميلة)



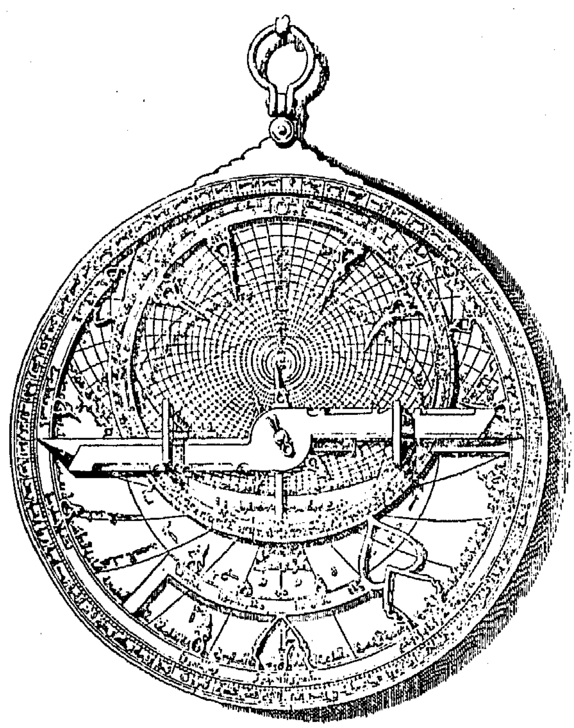
إنـــاء من البرونـز مصنـوع على الطراز الصيني العربي (من مجموعة شيفر)
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)



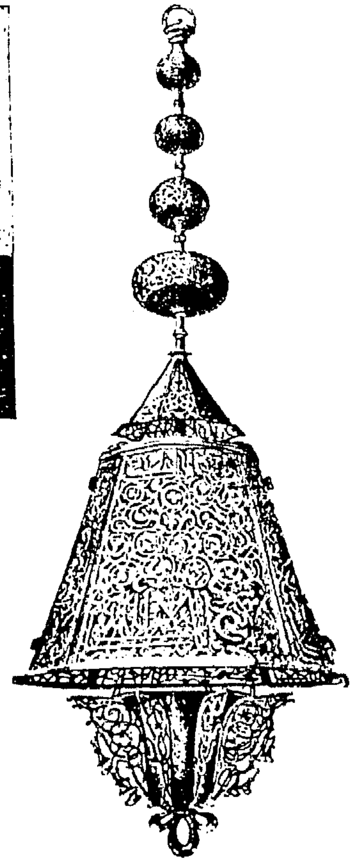
قفل عربي



أسطرلاب عربي قديم (متحف الآثار القديمة الإسباني)



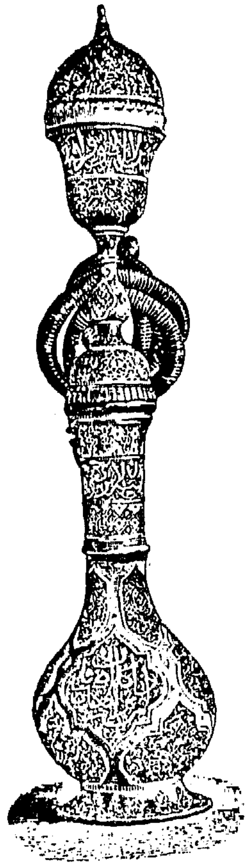
الوجه الثاني للأسطرلاب



مصباح عربي قديم كان في مسجد الحمراء
(يبلغ ارتفاعه مترين و١٥ سنتيمتراً)
(متحف الآثار القديمة الإسباني)



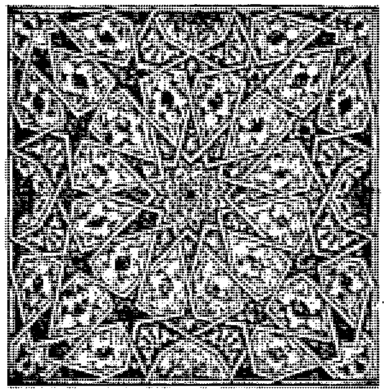
كوب عربي قديم من البلور
(من تصوير إيبر)



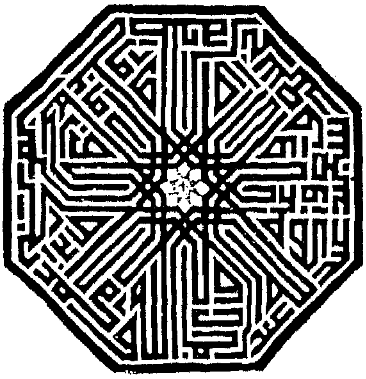
نارجيلة عربية مصنوعة من النحاس المكفت بالفضة
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)



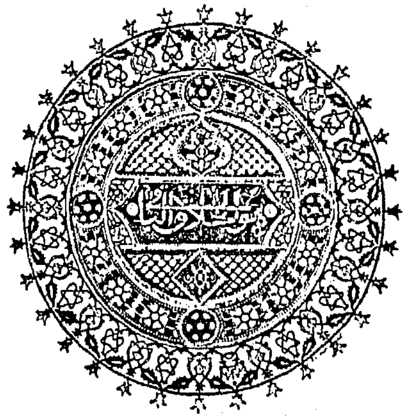
عربي حضري سوري
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف في دمشق)

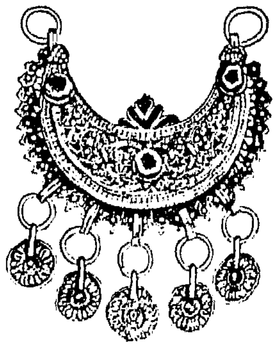


من زخارف مصحف قديم في القاهرة
(من إيبر)

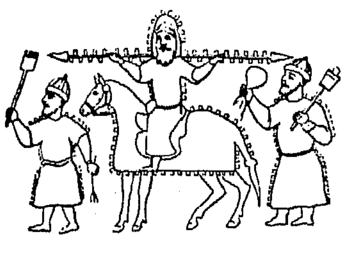


كتابة مزخرفة مؤلفة من تشابك حروف كوفية





قطعة حلي فضية عربية (سورية)
(من صورة فوتوغرافية التقطها المؤلف)



قذائف محرقة استعملها العرب في القرن الثالث عشر من الميلاد (نرى في هذه الصورة فارساً حاملاً رمحاً نارياً ولابساً كخادميه قميصاً صفيقاً من صوف ذي دسر معداً ليبلل بنفط يشعل فيما بعد ، وذلك لإلقاء الرعب في الأعداء)
(من مخطوط عربي قديم محفوظ في بطرسبرغ)



سقاء مراكشي في طنجة
(من صورة فوتوغرافية)

خاتِمَةٌ

﴿ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلٰهُنَا وَإِلٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ .

[العنكبوت ٤٦/٢٩]

وهكذا رأينا إيجابيَّات الرَّجل وسلبيَّاته ، وقبل أن نطوي آخر صفحات هذا الكتاب ، نؤكِّد أن الرَّجل كان بعيداً عن التَّعصُّب والتَّشنُّج إلى حدٍّ بعيد ، لا حقد ، ولا كراهية ، لا شتائم ، ولا سُباب ، لقد جاء إلى البلاد العربيَّة زائراً باحثاً ، فأُعجب بآثار حضارة رفيعة المستوى ، خالدة الذِّكر ، لها أثرها البالغ في بناء الحضارة الإنسانيَّة ، وختم كتابه بفقرات هامَّة عن أسباب عظمة العرب ، وأسباب انحطاطهم ، وحال الإسلام الحاضرة .

أسباب عظمة العرب :

جعل (لوبون) **الزَّمَنَ** الَّذي ظهر فيه العرب ـ القرن السَّابع الميلادي ـ من العوامل التَّمهيديَّة الَّتي ساعدت على إظهار قوتهم : « بيد أنَّ القضاء على دولة لا يكفي لإقامة حضارة »(١) .

لقد جعل (لوبون) الزَّمَنَ عاملاً مساعداً على إنشاء دولة جديدة ، وحضارة جديدة ، ولكنه أضاف عوامل أساسيَّة أُخرى لإقامتها ، مثل :

(١) حضارة العرب ٧١٥

العِرْق ، والعِرْق والنَّوع ـ عند (لوبون) ـ كلمتـان مترادفتـان[٢] ، فصفـات العِرْق الخلقيّـة والعقليّـة ثـابتـة ، ثبـات الصِّفـات التَّشريحيَّـة ، ومن صفـات أُمَّـة العرب : الذَّكاء ، وحماستهم واستعدادهم الفنِّي والأدبي ، وما إلى ذلك من الصِّفات الَّتي لولا وجودها فيهم ، مااستطاعوا أن يَصِلوا إلى درجة الحضارة .

ولما جـاء الإسلام ألَّف بين قلوب العرب ، فوجَّهـوا جميـع قـواتهم إلى البـلاد الأجنبيَّـة ، فكانت طبـائعهم الحربيَّـة من أسبـاب انتصـاراتهم ، كما منحهم الإسلامُ مَثَلاً أعلى ، اكتسبوا به من الْحَمِيَّة ، مااستعدُّوا به للتَّضحية في سبيله :

﴿ إنَّ اللهَ ٱشْتَرَى مِنَ الْمؤمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِـأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّـةَ يُقَـاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْـداً عَلَيْـهِ حَقّـاً فِي التَّوراةِ وَالإنْجِيـلِ وَالقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْـدِهِ مِنَ اللهِ فَـٱسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّـذِي بَـايَعْتُمْ بِـهِ وَذَلِـكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾ ، [التَّوبة ١١١/٩] .

وجعل (لوبون) تسامح العرب ورحمتهم في فتوحهم سبباً لانتشار دينهم ، مع بساطة النُّظُم الَّتي انبثقت عن دينهم .

كما وجعل من تـأقْلُم العرب مع البيئـة الجـديـدة بعـد الفتوح ، وجـدَّهم من فـورهم لبنـاء حضـارتهم ، سببـاً آخر من أسبـاب عظمـة العرب ، الَّتي تجلَّت بـاستقلالهم الرُّوحي والعلمي ، وبقـوَّة إبـداعهم في مبتكراتهم الحـديثـة ، فلم يَمْضِ سوى وقت قصير ، حتَّى طبعوا على فنِّ العمارة ، وسائر الفنون ، ثمَّ على مبـاحثهم العلميَّة طابعهم الخاص[٣] .

☆ ☆ ☆

---

(٢) حضارة العرب ٧٨ : « فيجب عَدُّ كلمة العِرْق بالنِّسبة إلى الإنسان مرادفة لكلمة النَّوع » .

(٣) حضارة العرب ٧١٤ ـ ٧٢٢

أسباب انحطاط العرب :

إنَّ غرائز العرب في الحرب والخصام ، الَّتي كانت نافعة في دور فتوحهم ، لم تلبث أن أصبحت ضارّة بعد انقضائه وخلو الميدان من أعداء يحاربونهم ، فالعرب بعد أن تمَّت فتوحهم أخذ ميلهم إلى الانقسام يبدو ، وصارت دولتهم تتجزَّأ حتَّى سقطت ، كما حدث لهم في بلاد إسبانية وصِقِلِّيَّة اللَّتين أضاعوهما بفعل انقساماتهم الدَّاخليَّة على الخصوص .

ويقول (لوبون) : إن العرب لم يقدروا على فتح العالم إلاَّ حينما خضعوا للشَّريعة الجديدة الَّتي جاء بها محمَّد ﷺ ، وجمعوا كلمتهم المتفرِّقة تحت لوائها ، وهي الَّتي كان يمكنها وحدها أن تجمع القُوَى المبعثرة في بلاد العرب ، فنير تلك الشَّريعة الحازم ظلَّ طيِّباً ماظلَّت نُظُم النَّبيِّ ملائمة لاحتياجات أُمَّته ، فلما أصبح تعديل تلك النُّظُم ضَرْبَة لازبٍ بسبب مبتكرات حضارة العرب ، كان نير التَّقاليد من الثِّقل بحيث لا يمكن زحزحته[٤] .

وتمتَّع الولاة في ولاياتهم بمثل ماتمتَّع به الخلفاء من السُّلطات العسكريَّة والدِّينيَّة والمدنيَّة[٥] ، فلم تلبث أهم ولايات الدَّولة أن تحوَّلت إلى دويلات مستقلَّة ، وهذا أضعف سلطان العرب السِّياسي ، وإن مهَّد السَّبيل لتقدُّم الحضارة في مصر والأندلس مثلاً[٦] .

ثمَّ إنَّ الحضارة تهذِّب الطَّبائع ، وتُثَقِّف الذِّهن ، لاتنمِّي الصِّفات الحربيَّة ، فتهيء بذلك سقوط الدُّول الكبرى .

---

(٤) حضارة العرب ٧٢٣ ، ورددنا بعض أفكاره في هذا المقطع في الفقرة ٤٨ ، فصل (الأخطاء والهفوات) .

(٥) خصوصاً ولاية التَّفويض ، يقول الماوردي [الأحكام السُّلطانيَّة ١٨ ـ ٢١] : فهو ينظر في كلِّ ما ينظر فيه الخليفة .

(٦) يعني مصر أيَّام الفاطميين والمماليك ، والأندلس أيَّام الأمويين في عهدي الإمارة ثمَّ الخلافة .

ومن أسباب انحطاط العرب ، اختلاف العروق الّتي خضعت لسلطانهم ، مما أسفر عن تنافس مختلف الأُمم ، وتوالد الكثير من فساد دم الغالبين بسرعة .

كان اختلاف مختلف الأُمم في دولة واحدة عامل انحلال قوي على الدّوام ، وقد أثبت التّاريخ أنّه لا يمكن بقاء مختلف العروق تحت سلطان واحد ، إلاّ بمراعاة الشَّرطَيْن الآتِيَيْن ، وهما : أن يكون الفاتح من القوّة بحيث يعلم كلٌّ واحد أنّ كلَّ مقاومة له لا تجدي نفعاً ، وألاّ يتوالد الغالب والمغلوب ، ومن ثَمَّ ألاّ يفنى الغالبُ فيه ، ولم يراعِ العربُ الشَّرط الثّاني قطّ[٧] .

حَالُ الإسلامِ الْحَاضِرَةِ :

ولا يزال الإسلام جادّاً في تقدّمه ، والسُّهولة العجيبة الّتي ينتشر بها القرآن في العالم شاملة للنّظر تماماً ، فالمسلم أينما مرَّ تركَ خلفه دينه ، ويتّسع نطاق الإسلام في أي مكان في العالم[٨] .

☆ ☆ ☆

مِفْتاحُ شَخْصِيَّةِ لُوبُون :

أُعجب (لوبون) بتراثنا وآثارنا ، وأحبَّ العرب وسماحتهم في فتوحهم ، ولمس إبداعهم في بناء حضارتهم ، الّتي كانت سبب صحوة أُوربة الحديثة عندما احتكّت بها : « وقد يسأل القارئ : لماذا ينكر تأثيرَ العرب علماءُ الوقت الحاضر ، الّذين يضعون مبدأ حرِّيَّة الفكر فوق كلِّ اعتبار ديني كما يلوح ؟ لا أرى غير جواب واحد عن هذا السؤال الّذي أسأله نفسي أيضاً ، وهو : أنّ استقلالنا

(٧) حضارة العرب ٧٢٢ ـ ٧٣٢

(٨) حضارة العرب ٧٣٤ ـ ٧٣٦

الفكريَّ لم يكن في غير الظَّواهر بـالحقيقـة ، وأنَّـا لسنـا من أحرار الفكر في بعض الموضوعات كما نريد »[٩] .

ولسبب أو لآخر (**استقــلّ لــوبــون فكريّــاً**) ، فتحرَّر من أثر النُّصــوص التَّوراتيَّة ، أو المؤثِّرات التَّوراتيَّة ، أو التَّطويع التَّوراتي إلى حدٍّ بعيد .

إنَّ مفتاح شخصيَّة الرَّجل عـدم أخـذه بـدراسـات الاستشراق الظَّـالمة ، مع كرهه لليهود ، فتحرَّر من تأثير دراساتهم وأحكامهم ووجهات نظرهم حول تاريخنا وحضارتنا ، فجاءت آراؤه منصفة عادلـة بشكل عـام ، وعنـدمـا أخطـأ أو كَبَـا ، ماأخطأ عن تعصُّب أو حقد ، وما كَبَا عن سوء قصد .

ويلمس القــارئ بغضَ (لـوبـون) لليهـود ، من خـلال خمســة نصـوص في (حضارة العرب) هي :

١ ـ « زالت تقريباً القصور العجيبة الَّتي كانت تشتمل كلُّ مدينـة عربيَّـة على عدد كبير منها ، أيَّام ازدهار حضارة العرب ، نعم ، يُقِيمُ **مُرابُو اليهود** بيوتـاً من نـوعهـا في دمشـق ، ولكن مـافطر عليـه الشَّعب اليهـودي من الـذَّوق الفـاسـد ، **والتَّرف المزيَّف** ، يدفع المرء إلى الأسف على ما ينفقونه من المـال في سبيل تقليـد تلك القصور العربيَّة الَّتي هي في طريق الأُفول تقليداً سيئاً ، فالمرء يرى في تلـك البيوت اليهوديَّة خلطاً كريهاً بين أخسِّ ماصنعه شرقي ، وأقبح ماأنتجـه أُوربي ، ويشاهد فيها نقوشاً من أحطِّ ماصنعه الرَّسَّامون ، وتلك البيوت اليهوديَّة وحدها هي الَّتي يستطيـع الأجـانب أن يـدخلـوهـا ، وهي الَّتي لا يـزورون غيرهــا ، فيخطئون في عـدِّهـا من أمثلـة فنِّ العمارة العربي ، وقـد أنعمت في بيت يهودي ، الَّذي نشر رسمه المؤلِّفـان الفـاضلان مسيو لوتـه ، ومسيو غيران ، والَّـذي هو أشهر تلك البيوت اليهوديَّة ، فلم أجد فيه سوى فساد في ذوق صانعيه الَّذين حـاولوا أن

(٩) حضارة العرب ٦٨٨

يوفِّقوا في شيده بين مختلف فنون البناء فضلاً عمّا رأيت فيه من الأمتعة الأُوربيَّة المبتذلة ، والشَّماعد الَّتي لا يساوي بدل الواحد منها سوى بضعة دوانق ، والتَّماثيل الصَّغيرة لنابليون ، والرُّسوم الَّتي تعد بجانبها أحطّ رسوم إيبنال الملوَّنة آية في الإبداع »[١٠] .

٢ ـ « وينتظر التَّاجرُ أمام دكّانه متَّزناً صابراً المشتريَ فلا يُزْعِج أحداً من المارِّين ، مالم يكن التَّاجر يهوديّاً ، فإذا كان التَّاجر يهودياً ألْحَفَ على المشتري بدناءَةٍ ، فلم يَسْطِع أن يتخلَّص منه إلاَّ بعد عناء كبير »[١١] .

٣ ـ « وما علمناه من أشعار العرب قيل بعد المسيح ، وقبيل ظهور محمَّد ، ولم تكن هذه الأشعار في غير الغَزَل وتمجيد الملاحم ، فالعرب كانوا ، كالإغريق في عصر البطولة ، يحبُّون أن يسمعوا شعراءهم يُشيدون بمفاخرهم .

وتبدأ تلك الأشعار في الغالب ، بالتَّصوير والتَّشبيه ، شأن شعر الأُمم الفطريَّة الَّتي تَحِسُّ كثيراً وتفكِّر قليلاً ، وتختلف تلك الأشعار عن الشِّعر الإسرائيلي في خُلُوِّها من التَّكهُّن والدّجون والتَّغنِّي بسفك الدِّماء ، ولا تجد فيها ذكراً لمثل المجاز والوحشيَّة والمذابح والإبادات ولَعَنات الرَّبِّ الدَّائمة الَّتي مُلِئَت بها التَّوراة »[١٢] .

٤ ـ « فالحقُّ أنَّ أتباع محمَّد ظلُّوا أشدَّ من عرفته أُوربة من الأعداء إرهاباً عِدَّة قرون ، فهم عندما كانوا لا يُرْعِدُوننا بأسلحتهم ، كما في زمن شارل مارتل والحروب الصَّليبيَّة ، أو يهدِّدون أُوربة بعد فتح القسطنطينيَّة ، كانوا يُذلُّوننا بأفضليَّة حضارتهم السَّاحقة ، فلم نتحرَّر من نفوذهم إلاَّ بالأمس .

لقد تراكمت أوهامنا الموروثة ضدَّ الإسلام والمسلمين في قرون كثيرة ،

---

(١٠) حضارة العرب ٤٤٥

(١١) حضارة العرب ٤٤٩

(١٢) حضارة العرب ٥٢٩

فصارت جزءاً من مزاجنا ، فأضحت طبيعة متأصّلة فينا تـأصُّلَ حِقْـد اليهود على النَّصارى الخفيِّ أحياناً ، والعميقِ دَوْماً »[١٣] .

٥ ـ « يصعب بيان ماامتصَّته رجال المال الأوربيون ، ولا سيا اليهود ، من فلاحي مصر في بضع سنوات ، وإنَّما نعلم من الأرقام الَّتي نشرها مسيو فانـدنبرغ في سنة ١٨٧٨ م أن رجال المال أخذوا من مبلغ الـ ١٣٩٧١٧٥٠٠٠ فرنـك ، الَّـذي هو مجموع القروض الخمسة ٥٢٢ مليون فرنك إكراميَّـة أو عمـالـة إلخ ، فلم يكن نصيب الخزينة المصريَّة منه سوى ٨٧٥ مليون فرنك ، فدفعت هذه الخزينة من الفوائد ، منذ زمن طويل ، ما يعدل رأس المال »[١٤] .

لقد تحرَّر (لوبون) فكريّاً من مؤثِّرات الاستشراق الحاقـدة الموجَّهـة ، والَّتي حرصت على إدانة الإسلام وأهله ، ونبذ التَّفسيرات التَّوراتيَّـة ، وكره حقـد اليهود الخفي أحياناً ، والعميق دَوْماً ، فكتب ما كتب .

ورأى (لوبون) محمَّداً ﷺ رجلاً عظيماً ، وشخصيَّة عالميَّة ، ولكن لم يَرَ فيـه نبوَّةً ووحياً :

« أمَّا الفريق الثَّاني من القوَّاد ، وهم ذوو الإرادة الثَّابتة ، فإنَّ تـأثيرهم أعظم بكثير ، وإن كانـوا أقـل ظهـوراً في الشَّكل ، وهم الَّـذين نبـغ من بينهم أصحـاب الأعمـال الكبيرة كالقـدِّيس بـولص[١٥] ، ومحمَّـد ـ ﷺ ـ ، وكريستوف كولومبس[١٦] ، ودولسبس[١٧] .. » .

(١٣) حضارة العرب ٦٨٨

(١٤) حضارة العرب ٧٠٣

(١٥) شـارل بولص : اضطهـد المسيحيين بعنف ، واهتـدى فجـأة على طريق دمشق نحو سنـة ٣٣ م ، أُعدم في رومة سنة ٦٧ م .

(١٦) كولـومبس [ت ١٥٠٦ م] بحـار ولـد في جنـوى (إيطـاليـة) ، وتـوفي في إسبـانيـة ، مكتشف أمريكة سنة ١٤٩٢ م .

(١٧) مهندس فرنسي ، صاحب مشروع السُّويس ، الَّذي بدأ بحفرها سنة ١٨٥٩ م ، وافتتحت سنة ١٨٦٩ م .

« إنَّ أكثر من نشعر بنفوذه فينـا هم من الَّـذين ارتحلـوا عن هـذه الـدَّار ، ولم نعـــد نخـــاف منهم مثـــل الاسكنـــدر[١٨] ، وقيصر[١٩] ، ومحمَّـــد - ﷺ - ، وبوذا[٢٠] .. » .

« لقـد كان تيبير[٢١] وجنكيزخـان[٢٢] ونـابليـون[٢٣] جبَّـارين مستبـدِّين ، ولكن استئثار موسى وبوذا وعيسى ومحمَّـد ولوثر[٢٤] ، وهم في قبورهم أشـدّ وأبقى ، إنّ مكيدة قد تبيد سطوة الجبار ، ولكن مـاذا ينفع الكيـد في عقيـدة استقرَّت في النُّفوس »[٢٥] .

« يعتبر المرء الثَّورات الدِّينيَّة أمراً سيِّئـاً إذا ظنَّ أنّ تـاريخهـا يشبـه تـاريخ ثورة الإصلاح الدِّيني ، والواقع أنَّ شأنها كلَّها ليس كذلك ، فقد كان تـأثير الكثير منها في تهذيب النَّاس ، وتقويم نفوسهم عظيماً جداً ، إذ هي بمنحها الشَّعب وحـدة أدبيَّة تزيد في قوَّته المادِّيَّة كثيراً ، وقد شوهد ذلك لما حوَّل محمَّـد - ﷺ - بمـا أتى به من الإيمان ، قبائل العرب الضَّعيفة إلى أُمَّةٍ مخيفة » .

---

(١٨) الاسكندر بن فيليب المكدوني .

(١٩) يوليوس قيصر Cesar : [١٠١ - ٤٤ ق . م] ، امبراطور رومة ، تزوَّج ملكة مصر كليوباترة .

(٢٠) بوذا (بدها غوتما) Buddha Gautáma : [٥٦٦ - ٤٨٦ ق . م] ، مؤسِّس الديانة البوذيَّة ، كان اسمه سدهارتا ، واسم عائلته غوتما ، ولُقِّب ببوذا أي المنوَّر .

(٢١) تيبير : Tiberius ، اسم ثـلاثـة من أبـاطرة رومـة وبيزنطـة ، أُشهرهم تيبيريـوس الأول : [٤٢ ق . م - ٣٧ م] .

(٢٢) جنكيز خان (ابن يشوكي) : [١١٦٧ - ١٢٢٧] منشيء الامبراطوريَّة المغوليَّة .

(٢٣) نـابليـون Napolion : [١٧٦٩ - ١٨٢١ م] ، امبراطـور فرنسـة : [١٨٠٤ - ١٨١٥ م] نفي إلى جزيرة القديسة هيلانة - في المحيـط الأطلسي ، بعيـداً عن سواحل إفريقيـة الجنوبيَّـة الغربيَّـة - حيث توفي فيها ، ثم نقل رفاته إلى باريس .

(٢٤) مارتين لوثر Luther : [١٤٨٣ - ١٥٤٦ م] ، مؤسِّس البروتسـتانتيَّـة بحركـة الإصلاح الـدِّيني في ألمانية ، انفصل عن الكنيسة في شأن صكوك الغفران وسلطة البابا .

(٢٥) روح الاجتماع ، على التَّوالي : ٨٨ و ٩١ و ١٠٦

« إنّ حماسة مؤسّسي الثّورة الفرنساويّة تعادل حماسة ناشري دين محمّد - ﷺ - » [روح الثّورات ٨٥] .

« لقد أثبتَ التّاريخ ماللمعتقد القوي من القوّة الّتي لاتقاوم ، فخضعت دولة الرّومان المنيعة لجيوشٍ من رعاة البدو ، الّذين أضاء قلوبهم ماجاء به محمّد - ﷺ - من الإيمان »(٢٦) .

☆ ☆ ☆

وأخيراً ، لقد صدر من هذه السّلسلة (في الميزان) حتّى نهاية سنة ١٩٨٩ م أربعة كتب هي :

١ - جرجي زيدان ، من خلال دراسة : (روايات تاريخ الإسلام) .
٢ - فيليب حِتّي ، من خلال دراسة كتابه : (تاريخ العرب المطوّل) .
٣ - كارل بروكلمان ، من خلال دراسة كتابه : (تاريخ الشّعوب الإسلاميّة) .
٤ - غوستاف لوبون ، من خلال دراسة كتابه : (حضارة العرب) .

وبعد إبعاد ماأورده جرجي زيدان في رواياته الغراميّة الخياليّة ، الّتي فيها كلُّ شيء إلا التّاريخ ، ومقارنة ماقدّمه حتّي وبروكلمان ولوبون ، نجد عوامل ، أو قواسم مشتركة فيما قدّموه في كتبهم المذكورة ، وهم يتقاربون جدّاً في الخطوط العامّة ، وإن تخلّص لوبون من الكثير ، الّذي سبّبه الحقد والصّليبيّة ، أو الطّعن والتّأثيرات التّوراتيّة ، فمن نقاط التّقاطع بين حتّي وبروكلمان ولوبون ، النّقاط التّالية :

---

(٢٦) روح الثّورات على التّوالي : ٤٧ و ٢٠

١ ـ إقحام (اليهود) في الهجرات العربيَّة الَّتي انطلقت من الجزيرة العربيَّة :

قال حتِّي : « فإنَّها ـ أي الجزيرة العربيَّة ـ قد أنشأت الشُّعوب الَّتي نزحت فيما بعد إلى الهلال الخصيب ، هذه الشُّعوب الَّتي أصبحت مع تعاقب الأجيال أُمم البابليِّين والآشوريِّين والفينيقيِّين والعبرانيِّين ، وفي تربة هذه الجزيرة الرَّمليَّة نشأت العناصر الأصليَّة للديانة اليهوديَّة » ، [تاريخ العرب المطوَّل : ١] .

وقال بروكلمان : « وابتداء من الألف الثَّالث قبل الميلاد ، شرعت جماعات من شعوب الجزيرة العربيَّة ، تندفع نحو الشَّمال في فترات من القحط بالغة الخطورة ، فإذا بالبابليِّين يَغْشَوْن العراق ، ويقتبسون فيه ثقافة السُّومريِّين ، وإذا بالكنعانيِّين واليهود والآراميِّين يهبطون سوريَّة وفلسطين ، ويستعيرون مع الفينيقيِّين ثقافة الجنس المعروف بجنس الشَّرق الأدنى .. » ، [تاريخ الشُّعوب الإسلاميَّة ١٥] .

وقال لوبون : « عُدَّ العربُ واليهود والفينيقيُّون والعبريون والسُّومريون والبابليُّون والآشوريون ، الَّذين استوطنوا جزيرة العرب وآسية الصُّغرى إلى الفرات من أصل واحد ، ويُدْعى ذلك الأصل بالأرومة السَّاميَّة » ، [حضارة العرب ٨٣] .

٢ ـ القول بتقديس الحجارة عند الوثنيِّين أيَّام الجاهليَّة ، ومنها (الحجر الأسود) :

قال حتِّي : « تقديس الحجارة والغدران في العصور الَّتي سبقت عصر الحجر الأسود ، وبئر زمزم في الجزيرة ، وعصر بيت إيل في فلسطين » ، « وفي وسطها ـ وسط الكعبة ـ قام نصبٌ هو عبارة عن قطعة من الحجر البركاني الأسود يعبدونه » ، « وأقرَّ ـ ﷺ ـ الحجَّ إلى الكعبة ولثم الحجر الأسود فيها ، وهما من فروض الدِّين المرعيَّة في الجاهليَّة » ، [تاريخ العرب المطوَّل ٣٢ و ١٣٩ و ١٦٣] .

وقال بروكلمان : « ومن هنا قدَّس العرب القدماء ضروباً من الحجارة في سَلْع وغيرها من بلاد العرب ، كما يقدِّس المسلمون الحجر الأسود القائم في زاويةٍ من الكعبة في مكَّة » ، [تاريخ الشُّعوب الإسلاميَّة ٢٤ و ٢٥] .

وقال لوبون : « ولا نعلم نُصُباً كرَّمه النَّاس زمناً طويلاً كالحجر الأسود ، فقد كان موضع احترامٍ وتبجيلٍ قبل ظهور محمَّد بقرون كثيرة » ، [حضارة العرب ٧١] .

٣ ـ صِلَةُ محمَّد ﷺ بالرَّاهب بَحِيرى خلال رحلته إلى الشَّام :

قال حِتِّي : « ولما بلغ محمَّد الثَّانية عشرة من عمره فيما يروى ، رافق عمَّه أبا طالب في رحلة إلى الشَّام ، زعموا أنَّه قابل في أثنائها راهباً مسيحيّاً يعرف بالرَّاهب بَحِيرى » ، [تاريخ العرب المطوَّل ١٥٦] .

وقال بروكلمان : « وتذهب الرِّوايات إلى أنَّه اتَّصل في رحلاته ببعض اليهود والنَّصارى » ، [تاريخ الشُّعوب الإسلاميَّة ٣٤] .

وقال لوبون : « وتقول القِصَّة إنَّ محمَّداً سافر مرَّةً مع عمِّه إلى سوريَّة ، فتعرَّف في بُصْرى براهب نسطوري في دَيْر نصراني ، فتلقَّى منه علم التَّوراة » ، [حضارة العرب ١٣٠] .

٤ ـ الأَخْذُ من التَّوراة والاقتباس منها ومن الإنجيل :

قال حِتِّي : « وقد ظهرت ديانة العرب بعد اليهوديَّة والمسيحيَّة ، فأصبحت ثالثة الديانات التَّوحيديَّة وخاتمتها ، وهي من النَّاحية التَّاريخيَّة تَمُتُّ بأوثق الصِّلات إلى هاتين الديانتَيْن ، فكانت أقرب الديانات إليهما على الإطلاق ، وهكذا فإن هذه الديانات الثَّلاثة ليست إلاَّ نتاجاً لحياة روحيَّة واحدة هي الحياة السَّاميَّة ، ومن هنا هان على المسلم المؤمن ـ إذا استثنينا بعض الأحوال ـ أن يُسَلِّم بمعظم ماتنطوي عليه العقائد المسيحيَّة » ، [تاريخ العرب المطوَّل ٢] .

« لقد نسج الإسلام في ترتيب صلاة الجمعة على منوال اليهود في عبادتهم بالكنيس ، إلاَّ أنَّه تأثَّر من بعد بطقوس صلاة الأحد الَّتي يمارسها النَّصارى في البيَع » ، [تاريخ العرب المطوَّل ١٨١] .

وقال بروكلمان : « اقتبس النَّبيُّ عن التَّوراة فكرة الخطيئة الأصليَّة » ، [تاريخ الشُّعوب الإسلاميَّة ٧٠] .

« وإنَّما ترجع معتقداته فيما يتعلَّق بالعالم الآخر إلى مصادر يهوديَّة ، وهكذا تتَّصل بصورة غير مباشرة بمصادر فارسيَّة وبابليَّة قديمة » ، [تاريخ الشُّعوب الإسلاميَّة ٧١] .

وقال لوبون : « وما جاء في القرآن من نصٍّ على خَلْق السَّماوات والأَرْض في ستَّة أيَّام ، وخَلْقِ آدم والجنَّةِ وهبوط آدم منها ، ويومِ الحساب مقتبسٌ من التَّوراة » ، [حضارة العرب ١٥٣] .

« وإذا أرجَعْنا القرآنَ إلى أُصوله أمكننا عَدُّ الإسلام صورةً مختصرة من النَّصرانيَّة ، والإسلامُ يختلف عن النَّصرانيَّة ، مع ذلك ، في كثير من الأُصول ، ولا سيما في التَّوحيد المطلق الَّذي هو أصل أساسي » ، [حضارة العرب ١٥٨] .

٥ ـ الاستيلاء والفتح :

استعمل حِتِّي في كتابه كلمة (استولى) في كتابه (تاريخ العرب المطوَّل) ، بحقِّ الفتوحات العربيَّة الإسلاميَّة : « الاستيلاء على مصر وطرابلس وبرقة » ، [صفحة ٢١٥] ، « وهكذا تمَّ استيلاء المسلمين للمرَّة الثَّانية على الاسكندريَّة » ، [صفحة ٢٢٢] ، « واستولى معاوية على قبرص » ، [صفحة ٦٤٩] ، « الاستيلاء على إسبانية » ، [صفحة ٢٧٠] ، وهكذا خصَّ حِتِّي العرب المسلمين بعبارات الاستيلاء والاغتصاب والاكتساح والغزو والقهر ، كما في الصَّفحات : ٢٦٢ ، ٢٧٨ ، ٢٨٨ ، ٥٤٢ ، ٥٥٨ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٥ ، ٥٩٨ ،

٦٠٣ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٧١٤ ، ٨٣٦ ، ٨٣٨ ، ٨٣٩ ، ٨٧٠ ، وخصّ قومه بالفتح والتّحرير ، خصّهم بكلمة حضاريّة إنسانيّة هي « الفتح » .

« ولما فتح الفرنجة بيت المقدس سنة ١٠٩٩ م » ، [صفحة ٥٧٥] ، « الفتح النّورماندي » ، [صفحة ٧١٩] ، « تمّ للصّليبيّين فتح بيروت وصيدا في عام ١١١٠ م » ، [صفحة ٧٥٨] ، « تحرير الرُّها » ، [صفحة ٧٦٣] قالها بحقّ قومه الصّليبيّين ، وقال عن نور الدّين زنكي : « أتمّ احتلال كونتيّة الرُّها » ، « فَتْحُ الفرنسيين لِمَرّاكُش » ، [صفحة ٨٤٦] .

وقال بروكلمان : « كان الغزاة العرب يجوسون خلال الدّيار غانمين مخرِّبين » ، [صفحة ١٠٠] ، ووصف المجاهدين في البحر المتوسّط ضدّ الغزو الأُوربي ، والإسباني خصوصاً ، بالقراصنة ، وجهادهم : قرصنة ، كما في الصّفحات : ٤٥٣ و ٤٧١ و ٦٢٠ ، ووصف جهاد الجزائريين ضدّ الفرنسيين المستعمِرين « بالتّعصّب الدّيني » ، [صفحة ٦٢٥] ، « نيران العصبيّة الدّينيّة بين القبائل ، فتابعت حرب العصابات ضدّ الفرنسيين » ، [صفحة ٦٢٦] ، وجعل بروكلمان احتلال بريطانية لمصر « لرفع مستوى المصريين من الوجهتين الماديّة والفكريّة أيضاً » ، [صفحة ٧١١] .

ولوبون وصف فتوحاتنا بالاستيلاء : « استولى عليه العرب » ، [صفحة ١٦٦] ، « استولت على بلاد مصر والنُّوبة » ، [صفحة ١٧٦] ، « استيلاء العرب على سوريّة » ، [صفحة ١٨٧] ، « استيلاء العرب على مصر » ، [صفحة ٢٥٥] ... وقال : « فتح النُّورمان لصِقِلّيّة » ، [صفحة ٣٧٦] ، « بعد الفتح النّصراني » ، [صفحة ٣٨١] .

٦ ـ القرآن من تـأليف محمّد ـ ﷺ ـ، فهـو « صـاحب الشّريعـة المحمـديّـة ، أو الإسلاميّة » :

قال حِتّي : « ويمكن أن نعتبر النّثر المسجّع الّـذي ابتكره الكُهّـان والعرّافون خطوة أُولى في سبيل ابتـداع الفنّ الشّعري ، وفي القرآن نمـاذج لهـذا الأُسلوب » ، [تاريخ العرب المطوّل ١٢٥] .

وقـال بروكلمـان : « وكان على أبي لهب أن يحـلّ محـل أخيـه أبي طـالب في حماية النّبيّ ، على الرّغم من خصومته له ، وعلى الرّغم من أنّ النّبيّ لعنـه في إحـدى السُّوَر » ، [تاريخ الشُّعوب الإسلاميّة ٤١] .

ولقد كان يُعْلِن أحكامه السّياسيّة في المـدينـة بوصفهـا جزءاً من القرآن ، أي جزءاً من الوحي الإلهي » ، [تاريخ الشُّعوب الإسلاميّة ٦٨] .

وقـال لـوبـون : « ويقـال إنّ محمّـداً كان قليـل التّعليم ونُرَجّـح ذلـك ، وإلاّ لوجدت في تأليف القرآن ترتيباً أكثر مما فيه » ، [حضارة العرب ١٤١] ، ثم قال في الصّفحات : ١٥١ و ١٥٣ و ١٥٤ و ١٥٥ : « فـاسمع تعريف النّبيّ ، فـإليـك وصف محمّد » ، « فاسمع قولَه ـ قول محمّد ـ عنهم » ، ويذكر آيات من القرآن الكريم .

٧ ـ أسبـاب غـزوة خيبر : خيراتهـا وخصبهـا ، وفشـل النّبيّ ﷺ في صلح الحديبية :

قـال حِتّي : « أمّـا يهود خيبر فـأخرجهم من واحتهم الخصيبـة في الشّمال من المدينة سنة ٦٢٩ م » ، [تاريخ العرب المطوّل ١٦٢] .

وقال بروكلمان : « وفي نوّار من سنة ٦٢٨ حـاول النّبيّ أن يعوّض من فشلـه الظّاهري في الحديبية ، فقـاد المسلمين في حملـة على المستعمرة اليهوديّـة الغنيّـة في خيبر » ، [تاريخ الشّعوب الإسلاميّة ٥٦] .

وقال لوبون : « رأى محمّد بعد ذلك الإخفاق ـ في صلح الحديبية ـ أن يُرَوِّح أصحابه فخفَّ بهم إلى مدينة خيبر المحصّنة المهمّة الواقعة في شمال المدينة الغربي ، والبعيدة منها مسيرة خمسة أيّام ، والّتي كان يقطن فيها قبائلُ يهوديّة ، والّتي كانت مقرّ تجارة اليهود ففتحها عَنْوَةً » ، [حضارة العرب ١٣٦] .

٨ ـ كان بناء الصَّخرة أيّام عبد الملك ، لصرف المسلمين عن الحجّ إلى الكعبة المشرّفة :

قال حِتّي في الصّفحة ٣٣٢ [تاريخ العرب المطوّل] عن بناء عبد الملك لقبّة الصّخرة : « وقد دعاه إلى بنائها عزمه على صرف الحجّاج عن مسجد مكّة » .

وقال بروكلمان في الصّفحة ١٤٠ [تاريخ الشّعوب الإسلاميّة] : « وفي عهد عبد الملك تعذّر على أتباعه الحجّ إلى الكعبة ، بسبب استيلاء منافسه في الخلافة ، عبد الله بن الزّبير على مكّة ، فحاول أن ينشئ في القدس بدلاً من البيت الحرام ، وهناك على الصّخرة المقدّسة الّتي استنّ عمر نفسه الصّلاة عندها ، يوم دخل بيت المقدس ، شيّد عبد الملك ما يدعى قبّة الصّخرة » .

وقال لوبون في الصّفحة ٣٣٨ [حضارة العرب] عن عبد الرّحمن بن الحكم الخطأ نفسه : « ولم يكد عبد الرّحمن يقبض على زمام الحكم في إسبانية حتّى أخذ يسعى في حمل العرب على اتّخاذ إسبانية وطناً لهم ، فأنشأ جامع قرطبة الشّهير ، الّذي هو من عجائب الدّنيا لتحويل أنظار العرب عن مكّة » .

٩ ـ يوسف بن تاشفين ، أفقد ملوك الطّوائف عروشهم حبّاً بالتّوسّع :

قال حِتّي : « وأراد المعتمد اتّقاء الخطر الّذي تهدّده به ألفونسو السّادس والسّيّد ، فارتكب أكبر خطأ ، إذ طلب النّجدة من يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين في مَرّاكُش ، ورغّبه في الجهاد ونصرة الإسلام .. غير أنّه لم تمضِ فترة طويلة حتّى عاد زعيم المرابطين هذا هو وأتباعه ، وكان هؤلاء قد سمُوا البادية

وقحطها ، وتاقت أنفسهم لأطـايب المـدنيَّـة الأنـدلسيَّـة الَّتي تـذوَّقوهـا من قبل ، فنزلوا الأنـدلس مرَّة ثـانيـة ، ولكنهم نـزلـوهـا هـذه المرَّة فـاتحين لامُنْجـدين » ، [تاريخ العرب المطوَّل ٦٤٢ و ٦٤٣] .

وقال بروكلمـان : « والواقع أنَّـه دفع ـ المعتمـد بن عبَّـاد ـ وزملاؤه ثمن هـذه المساعدة غالياً ، فما أن نزلت الهزيمة بالعدو حتَّى فقـدوا عروشهم جميعـاً ، واحـداً بعد واحد ، أمَّا المعتمد فـاقتيـد إلى إفريقيـة حيث مـات في سجن أغمـات مَرَّاكُش سنة ١٠٩٥ م » ، [تاريخ الشُّعوب الإسلاميَّة ٣٠٨] .

وقـال لوبـون : « واستغـاث عرب إسبـانيـة ببربر مَرَّاكُش في سنـة ١٠٨٥ م ليَحُولوا دون توالي انتصارات ملك قشتالة وليون والأذفونش السَّـادس ، فلم يلبث هؤلاء البربر الَّذين جاؤوا إلى إسبـانيـة حلفـاء للعرب أن ظهروا لهم بمظهر السَّيِّـد الآمر النَّاهي » ، [حضارة العرب ٣٣٣] .

١٠ ـ العِلْمُ عند المسلم لم يكن يعني اكتساب معرفة جديدة :

قـال حِتِّي : « وقـاموا مقـام الوسيـط في أن نقلوا إلى أُوربـة خلال العصـور الوسطى كثيراً من هـؤلاء المـؤثِّرات الفكريَّـة الَّتي أنتجت بـالتَّـالي يقظـة أُوربـة الغربيَّة ، ومهَّدت لها سبيل نهضتها الحديثة » ، [تاريخ العرب المطوَّل ٢] .

وقـــال بروكلمـــان : « إنَّ العِلْمَ لم يكن يعني عنـــد المسلم اكتســـاب معرفـــة جـديـدة ، بل التَّمكُّن إلى أقصى حـدٍّ مستطـاع من المـادَّة الَّتي أنتجتهـا الأجيـال السَّالفة » ، [تاريخ الشُّعوب الإسلاميَّة ٤٨٢] .

وقـال لـوبـون : « ولم يكن للقرآن تـأثير في جميـع مـذاهب العرب العلميَّـة والفلسفيَّة الَّتي نشروها في العالم في خمسة قرون » ، [حضارة العرب ٦٨٠] .

١١ ـ إن سبب يسر الفتح العربي الإسلامي وهن الفرس والرُّوم وضعفهما :

قال حِتِّي : « ولقد يَسَّر الفتح للعرب أسباب منها أنَّ فارس وبيزنطـة كانتـا

قد وهنتا بسبب الحرب فيهما أجيالاً طوالاً ، فاضطرتهما هذه الحرب إلى إرهاق رعاياهما بضرائب قاسية أدّت إلى نفورهم » ، [تاريخ العرب المطوّل ١٩٤] .

وقال بروكلمان : « لم يحالفه التّوفيق - يعني أبا بكر الصّدّيق رضي الله عنه - في الحكم على الحالة الدّوليّة ، وبخاصّة فيما يتعلّق ببيزنطة ، تطلّع أوّل الأمر إلى المشرق ، نحو الامبراطوريّة الفارسيّة ، بعد أن رأى إلى ضعفها البيّن منذ عهد غير قصير » ، [تاريخ الشّعوب الإسلاميّة ٩٠] .

وقال لوبون : « وكانت دولة الرّوم ، الّتي نهكتْها محارباتها لدولة الفرس ، والّتي كانت تعاني عوامل الانحلال الكثيرة ، في دور الانحطاط ، فلم تكن غير هيكلٍ نخرٍ يكفي لتداعيه أقلُّ صدمة » ، « .. كانت أركان العالم متداعية كالدّولة الإغريقيّة الرّومانيّة والدّولة الفارسيّة في زمن ظهور محمّد - ﷺ - » ، « وُلِدَ محمّد في أحسن الأوقات ، فقد رأينا أن العالَم الْمُسِنّ كان متصدّعاً فيه من كلّ جانب ، فلم يتوجّب على أتباع محمّد إلاّ أن يَهُزُّوه ليتساقط » ، [حضارة العرب ١٦٦ و ١٦٨ و ٧١٥] .

١٢ - الطّعن في مصادرنا العربيّة ، مع روايات التّوهين والتّمريض والتّضعيف :

استعمل فيليب حِتّي في كتابه [تاريخ العرب المطوّل] العبارات التّالية : « إن صحّ » ، « أساطير » ، « كما يُحكى » ، « زعموا » ، « فيما يُقال » ، « على قول الرّوايات » ، « نسبتها الرُّواة » ، « رُوِيَ ويُرْوَى » ..

ناهيك عن اعتماده على كتاب (ابن العبري) : [تاريخ مختصر الدُّول] ، المعروف بتعصُّبه وبعده عن البحث العلمي ، وكتاب « ألف ليلة وليلة » ، وكتاب « الأغاني » الذي هو ليس كتاب تاريخ يُحتجّ به .

واستعملَ كارل بروكلمان في كتابه [تاريخ الشُّعوب الإسلاميَّة] العبارات التَّالية : « ولسنا نملك بيِّنة موثوقاً بها » ، « وتذهب الرِّوايات » ، « وقد يكون » ، « ولسنا نعرف على اليقين » ، « وليس من الميسور أن نقرِّر على وجه الدِّقَّة » ، « الرِّوايات الأُسطوريَّة » ، « وتعزو الرِّوايات » ، أمَّا مصادره ، فهي كتب المستشرقين ، « مع أنَّنا وإيّاه نعلم : إذا ضاعت الأُصول ضاع التَّاريخ ، هذه قاعدة لا موضع للجدال فيها ، وذلك أنّ التَّاريخ لا يقوم إلاَّ على الآثار الَّتي خلَّفتها عقول السَّلف أو أيديهم » .

واستعمل غوستاف لوبون في كتابه [حضارة العرب] العبارات التَّالية : « ويُقال » ، « من الأقوال الشَّائعة » ، « ويروي مؤرِّخو العرب » ، « كما روى العرب » ، « على زعم كتب السِّيرة » ، « ما رواه مؤرِّخو العرب » ..

ورغم هذا كله ، تبقى لكتاب « حضارة العرب » قيمته العلميَّة الرَّفيعة ، ويكفي غوستاف لوبون تحرَّره من المؤثِّرات التَّوراتيَّة ، وبُعْدَه عن التَّعصُّب والشَّتائم والحقد ، ويكفيه حُبُّه للعرب وحضارتهم الخالدة .

ونحن في هذه السِّلسلة (في الميزان) نقف موقف الدِّفاع عن ديننا وحضارتنا ، لأنَّ الدِّفاع عنها دفاع عن حياتنا ووجودنا ، سائلين الله عزَّ وجلَّ أن يجعلنا ممَّن يَنْطَبق عليهم قوله : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ﴾ ، [الفتح ٤٨/٢٦] ، والحمد لله ربِّ العالمين .

☆ ☆ ☆
☆ ☆
☆

الْمُحْتَوَى

الصفحة

تم طبع هذا الكتاب بتاريخ ١٩٩٠/٤/١م
عدد النسخ (١٥٠٠)